شي
الملكة الأسطورة



الروايات المشهورة







شي الملكة الأسطورة



تأليف : هـ. رايدار هاغارد
إعداد : الدكتور اللواء السيد أبو مسلم
رسوم : ممدوح الفرماوي

مكتبة لبنان
بيروت

الفصـــل الأوّل

كيف وصلتني هذه القصة

بينما كنت أسير في أحد شوارع مدينة كمبردج مع صديق لي ، لاحظت شخصين قادمين نحونا ، وقد تأبط كل منهما ذراع الآخر . كان أحدهما شابًا وسيمًا للغاية ، طويل القامة ، مليح القسمات . وعندما رفع قبعته لتحية إحدى السيدات كشف عن شعره الذهبي اللامع ، فقلت لصديقي : « يا له من شاب وسيم ! »

فقال مؤيدًا : « نعم ! إنه أكثر شباب الجامعة وسامة . ويطلق عليه البعض اسم « المعبود الإغريقي » . أما اسمه الحقيقي فهو ڤنسي . ولكن انظر إلى الشخص الآخر ، الأكبر سنًا إنه يدعى هولي ، وهو الوصي على هذا الشاب حتى يبلغ الخامسة والعشرين من عمره . ويطلق بعض الناس عليهما اسمي « الحسن والبشاعة » . »

ونظرت إلى هولي ، وكان يبدو في حوالى الأربعين من عمره ، وهبه الله من الدمامة بقدر ما وهب الآخر من الجمال . كان قصير القامة

قوي البنيان ، له ذراعان طويلتان ، وشعر داكن ، وعينان ضيقتان . وظننت أنني أنظر إلى قرد قبيح ولكني لمحت في عينيه ما يدل على الرقة والحنان ، فقلت لصاحبي : « أود أن أتعرف إليهما . » فاصطحبني صديقي إليهما ، ووقفنا بضع دقائق نتحدث . تحدثنا عن إفريقية ؛ إذ كنت قد عدت لتوي من هناك . وفي تلك اللحظة مرت بنا سيدتان ، وكان من الواضح أن ڤنسي يعرفهما . ثم حدث شيء غريب ، فعندما التفت ڤنسي ليتحدث مع السيدتين توقف هولي فجأة عن الحديث معي ، ثم استدار وأسرع يبتعد عبر الشارع : بدا وكأنه يخاف من النساء خوفه من كلب مسعور .

وغادرت مدينة كمبردج في الليلة نفسها ، ولم يشغلني هذا الموضوع لسنوات طويلة . ومنذ شهرين تلقيت خطابًا ، ولما قرأت اسم مرسل الخطاب تبينت أنه هوراس هولي ، واستغرق مني الأمر بعض الوقت قبل أن أتذكر من هو هوراس هولي ، وكان الخطاب كما يلي :

« كمبردج

« سيدي العزيز

« لقد قابلتك منذ خمس سنوات في أحد شوارع مدينة كمبردج ، وكنت أصطحب آنذاك ليو ڤنسي . وقد بدأت أقرأ في الآونة الأخيرة

كِتابَيْكَ : « كُنوزُ المَلِكِ سُلَيْمان » و « أَلَنْ كُواتِرْمان » . وَٱلقِصَّتانِ عَنِ ٱلرِّحْلاتِ وَٱلأَحْداثِ ٱلغَريبَةِ في إفْريقِيَّةَ ، وَٱلَّتي تَمْتَزِجُ فيها ٱلحَقيقَةُ بِٱلخَيالِ .

« وَهٰأَنَذا أُرْسِلُ لَكَ مَجْموعَةً مِنَ ٱلأَوْراقِ تَحْوي قِصَّةً تَحْكي بَعْضَ ٱلأَحْداثِ ٱلَّتي وَقَعَتْ لي أَنا وَلِيو ڤِنْسي . وَهِيَ أَحْداثٌ تَبْلُغُ مِنَ ٱلغَرابَةِ حَدًّا يَجْعَلُني أَعْتَقِدُ أَنَّكَ لَنْ تُصَدِّقَها .

« لَقَدِ ٱتَّفَقْتُ مَعَ لِيو ڤِنْسي عَلى ضَرورَةِ نَشْرِ هٰذِهِ ٱلقِصَّةِ . إِنَّنا سَنُغادِرُ إِنْجِلْتِرا قَريبًا لِسَبَبٍ سَوْفَ تَتَبَيَّنُهُ فَوْرَ فَراغِكَ مِنْ قِراءَةِ قِصَّتِنا . وَنَحْنُ نَسْأَلُكَ أَنْ تَقْرَأَها وَتُشْرِفَ عَلى طِباعَتِها .

« وَأُرْسِلُ لَكَ أَيْضًا ٱلخاتَمَ وَشَقَفَةَ ٱلجَرَّةِ المَكْسورَةِ ٱلَّتي تَتَحَدَّثُ عَنْهُما هٰذِهِ ٱلأَوْراقُ .

« لَيْسَ عِنْدي ما أُضيفُهُ إلى ما كَتَبْتُهُ . وَلٰكِنْ مَنْ تَكونُ « شِيْ » ؟ وَمِنْ أَيْنَ جاءَتْ ؟ وَكَيْفَ وَصَلَتْ إلى كُهوفِ كُور ؟ إِنَّنا لَمْ نَتَوَصَّلْ إلى إجاباتٍ عَنْ هٰذِهِ ٱلأَسْئِلَةِ ؛ وَقَدْ لا نَتَوَصَّلُ إلى تِلْكَ ٱلإِجاباتِ أَبَدًا ؛ وَقَدْ ...

« إِنَّنا كَما قُلْتُ سَنَقومُ بِرِحْلَةٍ ، فَٱلرَّجاءُ ٱلاهْتِمامُ بِهٰذِهِ ٱلأَشْياءِ حَتّى نَطْلُبَها مِنْكَ مَرَّةً أُخْرى إذا عُدْنا .

المُخْلِص

ل. هُوراس هُولي »

هٰذِهِ هِيَ ٱلقِصَّةُ ٱلَّتي وَصَلَتْني بِتِلْكَ ٱلطَّريقَةِ ٱلغامِضَةِ .

هَنْري رايْدر هَغارْد

الفَصْلُ ٱلثّاني
كَيْفَ وَصَلَ ٱلصُّنْدوقُ ٱلحَديدِيُّ إلى هُولي

كُنْتُ ، أَنا لُوذْفيغ هُوراس هُولي ، أَجْلِسُ ذاتَ لَيْلَةٍ ، وَفي ساعَةٍ مُتَأَخِّرَةٍ مِنَ ٱللَّيْلِ ، في شَقَّتي بِمَدينَةِ كِمْبرِدْج . وَقَدْ حَدَثَ هٰذا مُنْذُ أَكْثَرَ مِنْ عِشْرينَ سَنَةً . وَكانَ عَلَيَّ أَنْ أُؤَدِّيَ ٱمْتِحانًا بَعْدَ أُسْبوعٍ ، لِأُصْبِحَ مُدَرِّسًا في ٱلجامِعَةِ إذا ٱجْتَزْتُهُ .

كُنْتُ في ذٰلِكَ ٱلوَقْتِ ، وَكَما أَنا ٱليَوْمَ ، رَجُلًا بِلا أَصْدِقاءَ . وَأَنا شَخْصٌ دَميمٌ لِلْغايَةِ ، وَهٰذا ما أَعْرِفُهُ عَنْ نَفْسي جَيِّدًا . وَأَتَمَتَّعُ بِقُوَّةٍ جَسَدِيَّةٍ خارِقَةٍ . وَدَفَعَ شَكْلي وَمَظْهَري ٱلنّاسَ إلى أَنْ يُطْلِقوا عَلَيَّ ٱسْمَ ٱلقِرْدِ .

وَكانَ في هٰذا ما جَعَلَني أَخْشى صُحْبَةَ ٱلنِّساءِ ، وَأَعْزِفُ عَنْ رُفْقَةِ ٱلرِّجالِ ؛ لِذا لَمْ يَكُنْ لي وَأَنا أَدْرُسُ في جامِعَةِ كِمْبرِدْج سِوى عَدَدٍ قَليلٍ جِدًّا مِنَ ٱلأَصْدِقاءِ ، وَكانَ ڤِنْسي واحِدًا مِنْهُمْ . وَلَعَلَّهُ مِنْ غَرائِبِ ٱلمُصادَفاتِ أَنْ يَكونَ ڤِنْسي هٰذا مِنْ أَكْثَرِ مَنْ عَرَفْتُ مِنَ ٱلرِّجالِ وَسامَةً .

وَبَيْنَما كُنْتُ مُسْتَغْرِقًا في ٱسْتِذْكارِ دُروسي في ساعَةٍ مُتَأَخِّرَةٍ مِنْ لَيْلَةٍ شَديدَةِ ٱلبُرودَةِ سَمِعْتُ طَرْقًا بِٱلبابِ . وَكُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّ صَديقي ڤِنْسي مَريضٌ ، وَخَشيتُ أَنْ يَكونَ ٱلمَرَضُ قَدِ ٱشْتَدَّ بِهِ فَلَجَأَ إِلَيَّ ، فَأَسْرَعْتُ لِأَفْتَحَ ٱلبابَ .

صَدَقَ إِحْساسي ، فَقَدْ كانَ ڤِنْسي هُوَ ٱلطّارِقَ ، وَكادَ أَنْ يَسْقُطَ عَلى ٱلأَرْضِ مِنْ فَرْطِ ٱلإِعْياءِ عِنْدَما فَتَحْتُ ٱلبابَ . كانَ شاحِبَ ٱلوَجْهِ ، يَعْتَصِرُهُ ٱلأَلَمُ ، وَٱلدَّمُ يَسيلُ مِنْ زاوِيَةِ فَمِهِ . وَكانَ يَحْمِلُ صُنْدوقًا حَديدِيًّا ثَقيلًا ، وَضَعَهُ فَوْقَ ٱلمِنْضَدَةِ ، ثُمَّ ٱنْهارَ عَلى ٱلكُرْسِيِّ ، وَظَلَّ لِبِضْعِ دَقائِقَ غَيْرَ قادِرٍ عَلى ٱلحَديثِ . فَصَبَبْتُ لَهُ بَعْضَ ٱلعَصيرِ في كوبٍ فَتَناوَلَهُ وَشَرِبَهُ ، فَتَحَسَّنَتْ حالُهُ قَليلًا .



لٰكِنَّ وَطْأَةَ ٱلمَرَضِ كانَتْ شَديدَةً عَلَيْهِ ، فَقُلْتُ لَهُ : « اِسْمَحْ لي أَنْ أَذْهَبَ لِأَسْتَدْعِيَ ٱلطَّبيبَ . »

فَأَجابَ : « لا ! لَقَدِ ٱنْتَهَيْتُ يا هُولِي ، وَلَنْ يَطْلُعَ عَلَيَّ ٱلنَّهارُ . لَنْ يَسْتَطيعَ أَيُّ طَبيبٍ أَنْ يُساعِدَني . الآنَ ٱسْتَمِعْ جَيِّدًا لِما سَأَقولُهُ لَكَ ؛ لِأَنَّكَ قَدْ لا تَسْمَعُ صَوْتي بَعْدَ ذٰلِكَ أَبَدًا . لَقَدْ كُنّا صَديقَيْنِ طَوالَ عامَيْنِ ، وَٱلآنَ قُلْ لي ما تَعْرِفُهُ عَنّي . »

قُلْتُ : « أَعْرِفُ أَنَّكَ شابٌّ ثَرِيٌّ ، وَأَنَّكَ ٱلْتَحَقْتَ بِٱلجامِعَةِ وَأَنْتَ في سِنٍّ أَكْبَرَ مِنْ بَقِيَّةِ أَقْرانِكَ بِٱلجامِعَةِ . وَأَعْرِفُ أَنَّكَ كُنْتَ مُتَزَوِّجًا ، وَأَنَّ زَوْجَتَكَ قَدْ تُوُفِّيَتْ ، وَأَنَّكَ خَيْرُ صَديقٍ لي . »

سَأَلَني : « هَلْ تَعْرِفُ أَنَّ لِي ٱبْنًا ؟ »

أَجَبْتُهُ : « لا ! »

فَقالَ : « إِنَّ لِي ٱبْنًا يَبْلُغُ مِنَ ٱلعُمْرِ خَمْسَ سَنَواتٍ ، تُوُفِّيَتْ والِدَتُهُ أَثْناءَ وِلادَتِهِ ؛ وَلِهٰذا لَمْ أَكُنْ أَرْغَبُ أَبَدًا في رُؤْيَتِهِ . إِنَّني أَوَدُّ يا هُولِي أَنْ أَجْعَلَ مِنْكَ وَصِيًّا عَلَيْهِ . »

فَقَفَزْتُ مِنْ مَقْعَدي قائِلًا : « أَنا ؟! »

أَجابَ : « نَعَمْ . لَقَدْ كُنْتُ أَبْحَثُ عَمَّنْ أَسْتَطيعُ أَنْ أَأْتَمِنَهُ عَلى وَلَدي ، وَعَلى هٰذا . »

وَأَشارَ إِلى ٱلصُّنْدوقِ ٱلحَديدِيِّ ، وَواصَلَ كَلامَهُ : « أَنْتَ ذٰلِكَ ٱلرَّجُلُ يا هُولِي . فَأَنْتَ رَجُلٌ قَوِيٌّ ، وَأَمينٌ ، وَعَطوفٌ . اِسْمَعْ : إِنَّ هٰذا ٱلصَّبِيَّ سَيَصيرُ آخِرَ سُلالَةِ عائِلَةٍ مِنْ أَعْرَقِ عائِلاتِ ٱلدُّنْيا . قَدْ تَضْحَكُ لِما أَقولُهُ لَكَ ٱلآنَ ، وَلٰكِنَّ ٱلأَيّامَ سَتُثْبِتُ لَكَ قَوْلي هٰذا بِما لا يَدَعُ مَجالًا لِلشَّكِّ . وَسَتُثْبِتُ لَكَ أَنَّني أَنْحَدِرُ مُباشَرَةً مِنْ سِلْسِلَةٍ مِنْ خَمْسَةٍ وَسِتّينَ فَرْدًا يَنْتَمونَ إِلى جُنْدِيٍّ يونانِيٍّ كانَ يَعْمَلُ في خِدْمَةِ فِرْعَوْنَ مَلِكِ مِصْرَ ٱلقَديمَةِ . وَكانَ اسْمُ هٰذا الجُنْدِيِّ كاليكْراتِس ، وَ « كالي » كَما تَعْرِفُ كَلِمَةٌ يونانِيَّةٌ مَعْناها الجَميلُ ، « وَكراتِس » مَعْناها القُوَّةُ .

« وَقَدْ أَصْبَحَ ٱبْنُ هٰذا ٱلجُنْدِيِّ فيما بَعْدُ كاهِنًا في مَعْبَدِ ٱلإِلٰهَةِ إيزيس . وَكانَ ذٰلِكَ مُنْذُ أَلْفَيْ عامٍ تَقْريبًا . وَقَدْ وَقَعَ كاليكْراتِس ٱلكاهِنُ في غَرامِ أَميرَةٍ مِنْ عائِلَةِ فِرْعَوْنَ ، وَغادَرا مِصْرَ سِرًّا عَلى ظَهْرِ إِحْدى ٱلسُّفُنِ . وَلٰكِنَّ ٱلرِّياحَ ساقَتِ ٱلسَّفينَةَ إِلى ساحِلِ إِفْريقِيَّةَ ، وَماتَ رُكّابُها كُلُّهُمْ وَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ سِوى كاليكْراتِس وَٱلأَميرَةِ ؛ إِذْ أَنْقَذَتْهُما مَلِكَةٌ جَميلَةٌ بَيْضاءُ كانَتْ تَحْكُمُ شَعْبًا بُدائِيًّا يَسْكُنُ هٰذِهِ ٱلمِنْطَقَةَ ، وَعاشا في بَيْتِها . وَسَتَعْرِفُ ٱلقِصَّةَ مِنْ قِراءَتِكَ ٱلأَوْراقَ ٱلَّتي في هٰذا ٱلصُّنْدوقِ ، وَسَتَعْرِفُ أَيْضًا أَنَّ هٰذِهِ ٱلمَلِكَةَ قَتَلَتْ كاليكْراتِس ، وَأَنَّ ٱلأَميرَةَ فَرَّتْ إِلى ٱليونانِ وَمَعَها طِفْلُها .

« وَعِنْدَما كَبِرَ ٱلطِّفْلُ ٱتَّخَذَ ٱسْمَ ڤينِدِكْس ، وَٱتَّخَذَهُ أَوْلادُهُ وَأَحْفادُهُ

مِنْ بَعْدِهِ . وَهُوَ ٱسْمٌ لاتِينِيٌّ يَعْني ٱلْمُنْتَقِمَ ، أَوِ ٱلآخِذَ بِٱلثَّأْرِ . وَبِمُرورِ ٱلسِّنينَ رَحَلَتِ ٱلعائِلَةُ مِنَ ٱليونانِ إلى روما ، وَٱنْتَقَلَتْ مِنْ روما إلى فَرَنْسا ، وَمِنْ فَرَنْسا إلى إنْجِلْترا ، وَحُرِّفَ ٱسْمُ ڤِينْدِكْس إلى ڤِنْسي .

« وَقَدِ ٱنْتَقَلَتْ مُحْتَوَياتُ هٰذا ٱلصُّنْدوقِ مِنْ أَبٍ لِٱبْنِهِ عَبْرَ ٱلأَجْيالِ ، حَتّى سَلَّمَها لي والِدي . وَكانَ ٱلأَمَلُ يَحْدو أَجْدادي في أَنْ يَنْتَقِمَ واحِدٌ مِنْ هٰذِهِ ٱلأَجْيالِ لِجَريمَةِ ٱلقَتْلِ ٱلَّتي وَقَعَتْ مُنْذُ مِئاتِ ٱلسِّنينَ عَلى يَدَيِ ٱلمَلِكَةِ ٱلبَيْضاءِ في إفْريقِيَّةَ .

« وَحاوَلْتُ أَنْ أَقومَ بِواجِبي نَحْوَ ٱلعُثورِ عَلى ذٰلِكَ ٱلمَكانِ ٱلَّذي وُصِفَ في ٱلأَوْراقِ ٱلمَوْجودَةِ بِٱلصُّنْدوقِ ، وَلٰكِنْ دونَ أَنْ أُفْلِحَ . وَأَثْناءَ عَوْدَتي مِنْ إفْريقِيَّةَ تَعَرَّفْتُ إلى زَوْجَتي ، ٱلَّتي تُوُفِّيَتْ أَثْناءَ وِلادَتِها ٱبْني لِيو .

« وَعُدْتُ إلى عَمَلي مَرَّةً أُخْرى ، وَرَأَيْتُ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أَتَوَجَّهَ إلى إفْريقِيَّةَ أَنْ أَتَعَلَّمَ ٱللُّغَةَ ٱلعَرَبِيَّةَ . وَهٰذا هُوَ ٱلسَّبَبُ ٱلَّذي جِئْتُ إلى هُنا مِنْ أَجْلِهِ ، وَلٰكِنْ فاتَ ٱلأَوانُ . »

وَٱسْتَطَعْتُ أَنْ أَتَبَيَّنَ أَنَّهُ كانَ مُصيبًا ؛ فَقَدْ فاتَ ٱلأَوانُ . كانَ مُمَدَّدًا عَلى ٱلمَقْعَدِ ، مُنْقَطِعَ ٱلأَنْفاسِ لِكَثْرَةِ ما تَحَدَّثَ ، شاحِبَ ٱلشَّفَتَيْنِ . وَكانَتْ عَلاماتُ ٱلمَوْتِ مُرْتَسِمَةً عَلى وَجْهِهِ .

وَعاوَدَ حَديثَهُ مَرَّةً أُخْرى قائِلًا : « إنَّني أَطْلُبُ مِنْكَ أَنْ تَتَوَلّى رِعايَةَ

ٱبْني لِيو عِنْدَما أَموتُ . وَقَدْ كَتَبْتُ عَلى هٰذِهِ ٱلوَرَقَةِ ٱلأَشْياءَ ٱلَّتي أَوَدُّ أَنْ يَعْلَمَها ٱبْني . وَعِنْدَما يَبْلُغُ ٱلخامِسَةَ وَٱلعِشْرينَ مِنْ عُمْرِهِ ، ٱفْتَحْ هٰذا ٱلصُّنْدوقَ ، وَٱجْعَلْهُ يَقْرَأُ ما بِهِ ، وَسَلْهُ إذا كانَ عازِمًا عَلى أَنْ يُؤَدِّيَ واجِبَهُ . هَلّا عَمِلْتَ هٰذا مِنْ أَجْلي ؟ لَقَدْ تَرَكْتُ لَكَ نِصْفَ ما لَدَيَّ مِنْ أَمْوالٍ ، وَسَيُمْكِنُكَ أَنْ تَحْيا بِها وَبِما تَكْسِبُهُ مِنْ عَمَلِكَ بِٱلتَّدْريسِ في ٱلجامِعَةِ حَياةً هانِئَةً . هَلّا عَمِلْتَ هٰذا مِنْ أَجْلي ؟ إنَّ هٰذا رَجاءُ رَجُلٍ مُشْرِفٍ عَلى ٱلمَوْتِ . أَتَوَسَّلُ إلَيْكَ أَنْ تَفْعَلَ هٰذا . »

« وَكَيْفَ لي أَنْ أَرْفُضَ ؟ »

قالَ وَهُوَ يُمْسِكُ بِيَدي : « وَداعًا يا صَديقي . »

وَلَمّا خَرَجَ تَساءَلْتُ هَلْ كانَ صَديقي هٰذا مَجْنونًا ؟ إنَّ قِصَّتَهُ مِنْ أَغْرَبِ ما سَمِعْتُ وَلٰكِنَّهُ كانَ صَديقي ، وَلا بُدَّ أَنْ يَتَوَلّى أَحَدٌ تَرْبِيَةَ ٱلطِّفْلِ ٱلبالِغِ مِنَ ٱلعُمْرِ خَمْسَةَ أَعْوامٍ . وَمَرَّتْ ساعاتٌ لَمْ أَسْتَطِعِ ٱلنَّوْمَ خِلالَها بِسَبَبِ ٱلمَوْضوعِ بِرُمَّتِهِ ، فَقَدْ كُنْتُ أَتَساءَلُ هَلْ أَحْسَنْتُ ٱلتَّصَرُّفَ أَمْ لا ؟

وَيَبْدو أَنَّني نِمْتُ لَحَظاتٍ قَبْلَ أَنْ أَسْمَعَ أَحَدَ خَدَمي يُناديني . وَصِحْتُ بِهِ : « ما بالُكَ يا جون ؟ ماذا حَدَثَ ؟ » وَكانَ شاحِبَ ٱلوَجْهِ ، وَبَدا في عَيْنَيْهِ ما يَدُلُّ عَلى أَنَّ شَيْئًا أَفْزَعَهُ وَأَخافَهُ .

قالَ : « لَقَدْ ذَهَبْتُ ، يا سَيِّدي ، لِأُوقِظَ ٱلسَّيِّدَ ڤِنْسي فَوَجَدْتُهُ مَيِّتًا . »

الفَصلُ ٱلثّالِثُ

لِيُو يَكْبُرُ

أَخَذْتُ ٱلصُّنْدوقَ ٱلحَديدِيَّ إلى لَنْدَن ، وَوَضَعْتُهُ في مَكانٍ آمِنٍ . وَوُفِّقْتُ في ٱلعُثورِ عَلى بَيْتٍ جَميلٍ في مَدينَةِ كِمْبرِدْج لِأَسْكُنَهُ أنا وَٱلطِّفْلُ . وَلَمْ أَكُنْ — بِطَبيعَةِ ٱلحالِ — بِحاجَةٍ إلى ٱمْرَأَةٍ في ٱلبَيْتِ لِتَرْعى ٱلطِّفْلَ ؛ إذْ كانَ كَبيرًا بِما يَكْفي لِيَرْعى بَعْضَ أُمورِ نَفْسِهِ دونَ ٱلحاجَةِ إلى سَيِّدَةٍ . وَلٰكِنَّني وَجَدْتُ بَعْدَ صُعوبَةٍ فَتًى يُدْعى جُوب . كانَ أَكْبَرَ إخْوَتِهِ ٱلثَّلاثَةَ عَشَرَ ، وَكانَتْ لَدَيْهِ خِبْرَةٌ طَويلَةٌ في رِعايَةِ إخْوَتِهِ وَأَخَواتِهِ .

وَأَخيرًا وَصَلَ ٱلطِّفْلُ لِيُو بِصُحْبَةِ سَيِّدَةٍ مُسِنَّةٍ بَكَتْ لِفِراقِهِ . وَكانَ هٰذا ٱلطِّفْلُ أَجْمَلَ مَنْ رَأَيْتُ مِنَ ٱلأَطْفالِ . فَقَدْ كانَ لَهُ وَجْهُ والِدِهِ وَمَلامِحُهُ نَفْسُها ، وَكانَ لَهُ أَيْضًا ٱلشَّعْرُ ٱلذَّهَبِيُّ ٱللّامِعُ نَفْسُهُ . وَأَتَذَكَّرُ ٱلآنَ كَيْفَ كانَ يَقِفُ أَمامَ ٱلنّافِذَةِ وَقَدْ سَقَطَ ضَوْءُ ٱلشَّمْسِ عَلى شَعْرِهِ عَلى حينِ كُنْتُ أَجْلِسُ أنا عَلى كُرْسِيٍّ ، وَيَقِفُ جُوب في رُكْنِ ٱلغُرْفَةِ

وَقَدْ أَمْسَكَ بِيَدِهِ حِصانًا خَشَبِيًّا .

وَقَفَ ٱلطِّفْلُ وَنَظَرَ إلَيَّ ، وَمَدَّ ذِراعَيْهِ ، وَٱنْطَلَقَ نَحْوي قائِلًا : « أنا أُحِبُّكَ ؛ فَبِٱلرَّغْمِ مِنْ أَنَّكَ قَبيحُ ٱلمَنْظَرِ ، إلّا أَنَّكَ طَيِّبُ ٱلقَلْبِ . »

وَكَبِرَ ٱلطِّفْلُ لِيُو لِيُصْبِحَ صَبِيًّا ، ثُمَّ صارَ ٱلصَّبِيُّ شابًّا ، وَكانَ كُلَّما كَبِرَ ٱزْدادَ قُوَّةً وَجَمالًا ، وَقَدِ ٱلْتَزَمْتُ بِوَصِيَّةِ والِدِهِ مِنْ حَيْثُ تَعْليمِهِ ؛ فَتَعَلَّمَ ٱليونانِيَّةَ وَٱلعَرَبِيَّةَ ، وَتَعَلَّمْتُ أنا أَيْضًا ٱلعَرَبِيَّةَ لِأَكونَ رَفيقًا لَهُ .

وَعِنْدَما بَلَغَ لِيُو ٱلثّامِنَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِهِ ٱلْتَحَقَ بِٱلجامِعَةِ ، ثُمَّ دَرَسَ ٱلقانونَ . وَلَمْ أُقابِلْ طَوالَ هٰذِهِ ٱلمُدَّةِ صُعوبَةً تُذْكَرُ مَعَ لِيُو سِوى أَنَّ كُلَّ ٱمْرَأَةٍ رَأَتْهُ كانَتْ تَقَعُ في حُبِّهِ ، مِمّا تَسَبَّبَ في إيجادِ بَعْضِ ٱلمَشاكِلِ ، وَلٰكِنَّهُ كانَ شابًّا مُمْتازًا يولي كُلَّ ٱهْتِمامِهِ لِلرِّياضَةِ وَٱلدِّراسَةِ وَلِأَصْدِقائِهِ مِنَ ٱلشَّبابِ أَكْثَرَ مِنَ ٱلنِّساءِ . وَسارَتِ ٱلأُمورُ عَلى ما يُرامُ . ثُمَّ حَلَّ عيدُ ميلادِهِ ٱلخامِسُ وَٱلعِشْرونَ .

الفَصْلُ الرّابِعُ

فَتْحُ الصُّنْدوقِ الحَديدِيِّ

قَبْلَ عيدِ ميلادِ لِيُو الخامِسِ وَالعِشْرينَ تَوَجَّهْنا مَعًا إلى لَنْدَن ، وَأَحْضَرْنا الصُّنْدوقَ الحَديدِيَّ مَعَنا إلى كِمْبرِدْج . وَقَرَّرْنا أَنْ نَفْتَحَهُ في صَباحِ اليَوْمِ التّالي لِعيدِ ميلادِ لِيُو بَعْدَ الإِفْطارِ .

وَبَعْدَ الإِفْطارِ أَحْضَرَ جُوب الصُّنْدوقَ إلى غُرْفَةِ الجُلوسِ ، وَعِنْدَما هَمَّ بِمُغادَرَةِ الحُجْرَةِ قُلْتُ لَهُ : « اِنْتَظِرْ لَحْظَةً يا جُوب . إِنَّني يا لِيُو أَوَدُّ أَنْ يَبْقى جُوب ، إذا لَمْ يَكُنْ لَدَيْكَ مانِعٌ ؛ إِذْ يَجِبُ أَنْ يوجَدَ مَعَنا شَخْصٌ ثالِثٌ لِيَرى أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَسيرُ عَلى ما يُرامُ . »

فَأَجابَ لِيُو : « بِالتَّأْكيدِ ، لِيَبْقَ مَعَنا . »

وَتَناوَلْتُ المَفاتيحَ مِنْ عُلْبَةٍ أَحْتَفِظُ فيها بِأَغْلى مُقْتَنَياتي وَكُنْتُ قَدْ وَضَعْتُ بِها هٰذِهِ المَفاتيحَ الَّتي أَعْطانيها والِدُ لِيُو لَيْلَةَ وَفاتِهِ .

وَكانَ لِلصُّنْدوقِ ثَلاثَةُ مَفاتيحَ : كانَ أَحَدُها مِفْتاحًا حَديثًا عادِيًّا ، وَكانَ المِفْتاحُ الثّاني قَديمًا جِدًّا ، أَمّا المِفْتاحُ الثّالِثُ فَكانَ يَخْتَلِفُ عَنْ

كُلِّ ما رَأَيْتُهُ في حَياتي مِنْ مَفاتيحَ . لَقَدْ كانَ عِبارَةً عَنْ قَضيبٍ مِنَ الفِضَّةِ بِهِ حُزوزٌ في حافَتِهِ ، وَثُبِّتَ بِهِ قَضيبٌ فِضِّيٌّ آخَرُ بِشَكْلٍ يَتَقاطَعُ مَعَهُ .

تَناوَلْتُ المِفْتاحَ الأَوَّلَ وَفَتَحْتُ بِهِ الصُّنْدوقَ الحَديدِيَّ ، وَساعَدَني لِيُو عَلى رَفْعِ غِطائِهِ الثَّقيلِ . وَكانَ بِداخِلِ الصُّنْدوقِ صُنْدوقٌ آخَرُ مَصْنوعٌ مِنَ الخَشَبِ الأَسْوَدِ الثَّقيلِ ، تَآكَلَتْ بَعْضُ أَجْزائِهِ وَصارَتْ هَشَّةً .

وَتَناوَلْتُ المِفْتاحَ الثّانِيَ وَفَتَحْتُ بِهِ الصُّنْدوقَ الأَسْوَدَ ، وَكانَ بِداخِلِهِ صُنْدوقٌ فِضِّيٌّ يَبْلُغُ طولُهُ ثَلاثينَ سَنْتيمِتْرًا وَارْتِفاعُهُ عِشْرينَ سَنْتيمِتْرًا ، وَعَلَيْهِ أَشْكالٌ فِرْعَوْنِيَّةٌ حُفِرَتْ في المَعْدِنِ بِشَكْلٍ جَميلٍ .

وَأَخَذْتُ الصُّنْدوقَ وَوَضَعْتُهُ عَلى المِنْضَدَةِ ، وَفَتَحْتُهُ بِالمِفْتاحِ الفِضِّيِّ الغَريبِ الشَّكْلِ .

كانَ بِداخِلِ هٰذا الصُّنْدوقِ الفِضِّيِّ وَرَقَةٌ كُتِبَتْ عَلَيْها ــ بِخَطِّ يَدِ صَديقي المُتَوَفّى ــ العِبارَةُ التّالِيَةُ : « إلى ابْني لِيُو » . ثُمَّ أَخْرَجْتُ لِفافَةً مِنَ الوَرَقِ كُتِبَ عَلى حافَتِها : « تَرْجَمَةٌ إِنْجليزِيَّةٌ لِلْكِتابَةِ اليونانِيَّةِ المَوْجودَةِ عَلى الجَرَّةِ » ، وَكانَ تَحْتَ اللِّفافَةِ شَيْءٌ لُفَّ في قِطْعَةٍ بالِيَةٍ مِنَ القُماشِ الأَصْفَرِ العَتيقِ . وَفَضَضْتُ لِفافَةَ القُماشِ فَوَجَدْتُ بِداخِلِها شَقَفَةً كَبيرَةً مِنْ جَرَّةٍ مَكْسورَةٍ ، وَرَأَيْتُ كِتاباتٍ كَثيرَةً مَنْقوشَةً عَلى

سَطْحِها ٱلدّاخِلِيِّ ، وَكانَتْ بِخُطوطِ أَشْخاصٍ عَديدينَ وَبِلُغاتٍ مُخْتَلِفَةٍ . أَمّا سَطْحُها ٱلخارِجِيُّ فَقَدِ ٱمْتَلأَ بِكِتاباتٍ مُتَلاصِقَةٍ مَكْتوبَةٍ بِلُغَةٍ واحِدَةٍ عَرَفْتُ أَنَّها ٱللُّغَةُ ٱليونانِيَّةُ . وَظَهَرَ لي أَيْضًا أَنَّ هٰذِهِ ٱلشَّقَفَةَ قَدْ سَبَقَ أَنْ كُسِرَتْ إِلى جُزْأَيْنِ في وَقْتٍ مِنَ ٱلأَوْقاتِ وَأُعيدَ لَصْقُهُما .

سَأَلَني لِيو : « هَلْ هُناكَ شَيْءٌ آخَرُ خِلافَ هٰذا ؟ »

وَتَحَسَّسْتُ قاعَ ٱلصُّنْدوقِ ، وَأَخْرَجْتُ مِنْهُ شَيْئًا صُلْبًا وَثَقيلًا مَوْضوعًا في كيسٍ صَغيرٍ ، وَكانَ خاتَمًا ذا فَصٍّ بُنِّيِّ ٱللَّوْنِ . وَنُقِشَتْ عَلى ٱلفَصِّ كِتاباتٌ فِرْعَوْنِيَّةٌ مَعْناها : « ٱبْنُ رَعْ » ، وَ « رَعْ » هٰذا هُوَ إِلٰهُ ٱلشَّمْسِ . وَوَجَدْتُ في ٱلكيسِ نَفْسِهِ صورَةً لِوالِدَةِ لِيو ٱليونانِيَّةِ ،



وَقَدْ كُتِبَ عَلى ظَهْرِ ٱلصّورَةِ « زَوْجَتي ٱلعَزيزَةُ » .

قُلْتُ لَهُ : « هٰذا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ . »

وَوَضَعَ لِيو صورَةَ والِدَتِهِ جانِبًا وَقالَ : « فَلْنَقْرَإِ ٱلخِطابَ . » وَكانَ نَصُّهُ كَٱلآتي :

« ٱبْنِيَ ٱلعَزيزَ لِيو :

« عِنْدَما تَفْتَحُ هٰذا ٱلخِطابَ سَتَكونُ قَدْ بَلَغْتَ ٱلخامِسَةَ وَٱلعِشْرينَ مِنْ عُمْرِكَ ، وَسَأَكونُ قَدْ تُوُفّيتُ مِنْ زَمَنٍ بَعيدٍ ، وَنَسِيَني كُلُّ ٱلَّذينَ كانوا يَعْرِفونَني .

« وَسَيَكونُ هولي قَدْ حَكى لَكَ بَعْضَ تاريخِ أُسْرَتِكَ . وَسَتَجِدُ في هٰذا ٱلصُّنْدوقِ قِصَّةً غَريبَةً كَتَبَتْها أَميرَةٌ عَلى شَقَفَةِ جَرَّةٍ مُنْذُ زَمَنٍ طَويلٍ . لَقَدْ حَكى لي والِدي هٰذِهِ ٱلقِصَّةَ عِنْدَما كُنْتُ في ٱلتّاسِعَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْري . وَشَرَعْتُ عِنْدَئِذٍ في مُحاوَلَةِ ٱلتَّوَصُّلِ إِلى مَدى صِحَّةِ هٰذِهِ ٱلرِّوايَةِ ، فَوَصَلْتُ إِلى ساحِلِ إِفْريقِيَّةَ شَمالَ مَصَبِّ نَهْرِ زامْبيزي ، وَهِيَ مِنْطَقَةٌ لا يَعْرِفُها إِلّا ٱلقَليلُ ، وَلَمْ يَزُرْها أَحَدٌ تَقْريبًا . وَهُناكَ تَلٌّ صَخْرِيٌّ عَلى شَكْلِ رَأْسِ رَجُلٍ إِفْريقِيٍّ ، وَقَدْ وَصَفَتْ ذٰلِكَ ٱلتَّلَّ ٱلكِتاباتُ ٱلمَنْقوشَةُ عَلى شَقَفَةِ ٱلجَرَّةِ . وَرَسَوْتُ هُناكَ حَيْثُ ٱلْتَقَيْتُ رَجُلًا طَرَدَهُ أَهْلُهُ بِسَبَبِ جُرْمٍ ٱرْتَكَبَهُ . وَقَدْ قالَ لي ٱلرَّجُلُ إِنَّهُ يوجَدُ داخِلَ هٰذِهِ ٱلمِنْطَقَةِ بَلَدٌ بِهِ جِبالٌ تُشْبِهُ ٱلكُؤوسَ في شَكْلِها ، وَبِها ٱلعَديدُ مِنَ ٱلكُهوفِ ٱلهائِلَةِ . وَتُحيطُ بِهٰذا ٱلبَلَدِ مَناطِقُ شاسِعَةٌ مِنَ ٱلأَراضي

الواطِئةِ الّتي تَبْلَعُ كُلَّ مَنْ يُحاوِلُ أَنْ يَعْبُرَها ، ما لَمْ يَعْرِفِ الدُّروبَ الصَّحيحَةَ الّتي يَجِبُ أَنْ يَسْلُكَها . وَيَعيشُ في هٰذِهِ الجِبالِ وَالكُهوفِ أُناسٌ يَتَكَلَّمونَ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ ، وَتَحْكُمُهُمُ امْرَأَةٌ جَميلَةٌ بَيْضاءُ نادِرًا ما يَرَوْنَها . وَلِهٰذِهِ المَرْأَةِ سُلْطانٌ عَلى كُلِّ ما في هٰذِهِ المِنْطَقَةِ مِنْ أَحْياءٍ وَأَمْواتٍ .

« وَكانَ الرَّجُلُ الّذي أَخْبَرَني بِكُلِّ هٰذا مَريضًا ، وَقَدْ تُوُفِّيَ بَعْدَ يَوْمَيْنِ ، وَمَرِضْتُ أَنا أَيْضًا ؛ لِذٰلِكَ اضْطُرِرْتُ إلى الرُّجوعِ . وَفي طَريقِ العَوْدَةِ تَوَقَّفْتُ في اليونانِ ، وَهُناكَ الْتَقَيْتُ بِوالِدَتِكَ .

« إنَّني أَعْتَقِدُ أَنَّ القِصَّةَ المَكْتوبَةَ عَلى الشَّقَفَةِ قِصَّةٌ حَقيقِيَّةٌ ، كَما أَعْتَقِدُ أَنَّ هُناكَ طَريقَةً أَوْ أُخرى تَجْعَلُ النّاسَ يَخْلُدونَ ، أَيْ يَعيشونَ إلى الأَبَدِ .

« وَقَدْ يَتَبادَرُ إلى ذِهْنِكَ أَنَّ هٰذِهِ لَيْسَتْ سِوى خَيالاتٍ مَحْمومَةٍ لِرَجُلٍ مَريضٍ . وَحَتّى إنْ صَدَّقْتَ هٰذِهِ القِصَّةَ فَإنَّكَ قَدْ تَرى أَنَّهُ مِنَ الحِكْمَةِ أَلّا تَفْعَلَ شَيْئًا إزاءَ تِلْكَ القُوى . فَإذا كانَ هٰذا رَأْيَكَ فَعَلَيْكَ عِنْدَئِذٍ أَنْ تُمَزِّقَ الأَوْراقَ وَتَتَخَلَّصَ مِنَ الشَّقَفَةِ ذاتِ النُّقوشِ ، وَلا تُزْعِجْ أَبْناءَكَ وَأَحْفادَكَ بَعْدَ ذٰلِكَ بِمِثْلِ هٰذِهِ القِصَّةِ الخَرْقاءِ الخَطِرَةِ الّتي تَرْجِعُ إلى الماضي السَّحيقِ .

« وَلَعَلَّكَ أَيْضًا تَوَدُّ ــ كَما وَدِدْتُ أَنا ــ أَنْ تَعْرِفَ مَدى صِحَّةِ

هٰذِهِ الرِّوايَةِ ، وَقَدْ تَعْقِدُ العَزْمَ عَلى أَنْ تَتَوَجَّهَ بِنَفْسِكَ لِتَتَحَقَّقَ مِنْها . إنَّ لَكَ حُرِّيَّةَ الاخْتِيارِ . وَداعًا . »

سَأَلَني لِيُو : « حَسَنٌ ، ما رَأْيُكَ يا هُولِي ؟ »

أَجَبْتُهُ : « أَعْتَقِدُ أَنَّ والِدَكَ كانَ مَجْنونًا . وَكانَ هٰذا اعْتِقادي مُنْذُ عِشْرينَ عامًا ، عِنْدَما دَخَلَ غُرْفَتي حامِلًا هٰذا الصُّنْدوقَ . »

قالَ جُوب : « مُنْتَهى الجُنونِ . »

قالَ لِيُو : « حَسَنٌ ، فَلْنَرَ ما كُتِبَ عَلى الجَرَّةِ . »

وَفَحَصَ ما كُتِبَ مِنْهُ بِالإنْجليزِيَّةِ وَقَرَأَ : « أَنا أَمينارْتاس ، سَليلَةُ الفَراعِنَةِ : أَنا زَوْجَةُ كاليكْراتِس . وَأَكْتُبُ هٰذا لِابْني الصَّغيرِ الّذي أَسْمَيْتُهُ « المُنْتَقِمَ » وَأَكْتُبُ هٰذا لِأَنَّني مُشْرِفَةٌ عَلى المَوْتِ . بَعْدَ أَنْ فَرَرْتُ مِنْ مِصْرَ مَعَ والِدِكَ عَلى ظَهْرِ سَفينَةٍ وَصَلْنا إلى ساحِلِ إفْريقِيَّةَ الشَّرْقِيِّ ، وَهُناكَ قَذَفَتِ العاصِفَةُ بِسُفُنِنا إلى الشّاطِئِ قُرْبَ صَخْرَةٍ عَلى شَكْلِ رَأْسِ رَجُلٍ إفْريقِيٍّ . وَقَدْ هَلَكَ كُلُّ الرِّجالِ الّذينَ كانوا بِالسَّفينَةِ ، وَلٰكِنَّ بَعْضَ الرِّجالِ البُدائِيّينَ حَمَلونا في رِحْلَةٍ طالَتْ عَشَرَةَ أَيّامٍ حَتّى وَصَلْنا إلى جَبَلٍ حَيْثُ كانَتْ تَقومُ مَدينَةٌ كَبيرَةٌ ، وَقَدْ دُمِّرَتْ مُنْذُ أَمَدٍ بَعيدٍ . وَكانَ بِالجَبَلِ كُهوفٌ هائِلَةٌ . وَقَدِ اصْطَحَبَنا هٰؤُلاءِ الرِّجالُ إلى مَلِكَةٍ كانَ رَعاياها يَضَعونَ القُدورَ المُحَمّاةَ فَوْقَ رُؤوسِ مَنْ يَفِدُ إلَيْهِمْ مِنَ الغُرَباءِ .

« إنَّ هٰذِهِ ٱلمَلِكَةَ ساحِرَةٌ ، وَتَعْرِفُ كُلَّ أَسْرارِ ٱلحَياةِ وَٱلجَمالِ ؛ كَما أَنَّها خالِدَةٌ لا تَموتُ . وَقَدْ أَحَبَّتِ ٱلمَلِكَةُ كاليكْراتِس وَأَرادَتْ أَنْ تَقْتُلَني . وَنَقَلَتْنا إلى كَهْفٍ هائِلٍ تَحْتَ ٱلأَرْضِ حَيْثُ نارُ ٱلحَياةِ . وَدَخَلَتِ ٱلمَلِكَةُ وَسْطَ ٱلنّارِ وَخَرَجَتْ مِنْها سَليمَةً وَأَكْثَرَ جَمالًا مِمّا كانَتْ ، ثُمَّ قالَتْ لِكاليكْراتِس : 'اُقْتُلْ زَوْجَتَكَ وَهَبْ نَفْسَكَ لي ، فَأَجْعَلَكَ مُخَلَّدًا مِثْلي ، وَسَتَعيشُ إلى ٱلأَبَدِ . وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ .

« وَعِنْدَئِذٍ غَضِبَتِ ٱلمَلِكَةُ وَقَتَلَتْهُ ، وَلٰكِنَّها لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَقْتُلَني لِأَنَّني أَعْرِفُ أَسْرارَ سِحْرِ قَوْمي ؛ لِذا أَرْسَلَتْني إلى مَصَبِّ ٱلنَّهْرِ ٱلعَظيمِ حَيْثُ تَصِلُ ٱلسُّفُنُ ، وَمِنْ هُناكَ وَصَلْتُ اليونانَ . وَٱلآنَ أَطْلُبُ مِنْكَ يا بُنَيَّ — ٱلمُنْتَقِمَ — أَنْ تَجِدَ هٰذِهِ ٱلمَرْأَةَ ، وَأَنْ تَكْشِفَ سِرَّ ٱلحَياةِ ، ثُمَّ تَقْتُلَها لِأَنَّها قَتَلَتْ والِدَكَ كاليكْراتِس . وَإذا فَشِلْتَ في ذٰلِكَ فَٱجْعَلِ ٱبْنَكَ يَقومُ بِهٰذا أَوْ أَحْفادَكَ أَوْ أَحْفادَ أَحْفادِكَ ، حَتّى يَأْتِيَ يَوْمٌ يَكونُ لِواحِدٍ مِنْهُمْ مِنَ ٱلشَّجاعَةِ ما يَكْفي لِيَقومَ بِهٰذا ٱلواجِبِ . »

قُلْتُ لِليُو : « حَسَنٌ يا لِيُو ، عَلَيْكَ أَنْ تُقَرِّرَ ما سَتَفْعَلُهُ في هٰذا ٱلشَّأْنِ . إنَّني أَعْرِفُ أَنَّ تِلْكَ ٱلجَرَّةَ وَما عَلَيْها مِنْ كِتاباتٍ حَقيقِيَّةٌ ، إنَّها بِٱليونانِيَّةِ ٱلقَديمَةِ . وَلٰكِنَّني أَعْتَقِدُ أَيْضًا أَنَّ ما عانَتْهُ أَمينارْتاس مِنْ صِعابٍ بِٱلإِضافَةِ إلى فِقْدانِها زَوْجَها قَدْ دَفَعاها إلى ٱلجُنونِ فَكَتَبَتْ هٰذا . إنَّها لَمْ تَكُنْ في كامِلِ قُواها ٱلعَقْلِيَّةِ عِنْدَما كَتَبَتْهُ . ما رَأْيُكَ يا جُوب ؟ »

فَأَجابَ جُوب : « لا أَعْتَقِدُ أَنَّ هُناكَ كَلِمَةً واحِدَةً صَحيحَةً في هٰذِهِ ٱلرِّوايَةِ يا سَيِّدي . وَآمُلُ أَلّا يُقْحِمَ ٱلسَّيِّدُ لِيُو نَفْسَهُ في مِثْلِ هٰذِهِ ٱلأُمورِ ؛ إذْ لا جَدْوى مِنْ وَرائِها . »

فَقالَ لِيُو في هُدوءٍ : « لَعَلَّكُما عَلى حَقٍّ . وَلٰكِنَّ رَأْيي أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ أَضَعَ حَدًّا لِهٰذِهِ ٱلرِّوايَةِ . » وَتَوَقَّفَ عَنِ ٱلكَلامِ ثُمَّ قالَ : « إنْ لَمْ تَأْتِيا مَعي ، فَسَأَذْهَبُ وَحْدي . »

قُلْتُ : « حَسَنٌ ، أَنا في حاجَةٍ إلى إجازَةٍ ، وَلا بُدَّ أَنَّنا سَنُمارِسُ خِلالَها ٱلرِّمايَةَ . »

وَبَعْدَ ثَلاثَةِ أَشْهُرٍ كُنّا في طَريقِنا إلى زَنْجِبار .

الفَصْلُ الخامِسُ

عاصِفَةٌ بِالبَحْرِ

حَصَلْنا عَلى داوَةٍ ، وَهِيَ سَفينَةٌ عَرَبِيَّةٌ شِراعِيَّةٌ ، رَبَطْنا خَلْفَها قارِبًا أَحْضَرْناهُ مِنْ إِنْجِلْترا . وَكانَ ٱلقارِبُ مُزَوَّدًا بِخَزّاناتِ هَواءٍ رُكِّبَتْ بِهِ لِتُبْقِيَ ٱلقارِبَ طافِيًا إِذا ٱمْتَلأَ بِٱلماءِ ، وَكانَتْ بِهِ أَيْضًا صَناديقُ لِلطَّعامِ وَٱلمُؤَنِ .

أَبْحَرْنا جَنوبًا عَلى ٱمْتِدادِ ٱلسّاحِلِ ٱلشَّرْقِيِّ لِإِفْرِيقِيَّةَ ، وَكانَتِ ٱليابِسَةُ عَلى يَمينِنا . وَهَبَّتْ رِياحٌ لَطيفَةٌ فَمَلأَتِ ٱلشِّراعَ ، وَكانَ ٱلبَحْرُ هادِئًا ، وَكانَتْ مِياهُهُ تَرْتَطِمُ بِجانِبَيِ ٱلسَّفينَةِ فَتُحْدِثُ صَوْتًا أَشْبَهَ بِموسيقى هادِئَةٍ حالِمَةٍ . أَمّا ٱلقَمَرُ فَقَدْ كانَ يُطِلُّ عَلَيْنا في لَيْلٍ ساجٍ كُنّا نَسْمَعُ فيهِ أَرَقَّ ٱلأَصْواتِ وَأَكْثَرَها خُفوتًا .

وَكانَ يُمْسِكُ بِٱلدَّفَّةِ رَجُلٌ عَرَبِيٌّ ٱسْمُهُ مُحَمَّدٌ . وَفَجْأَةً رَفَعَ يَدَهُ قائِلًا : « أَنْصِتوا ! »

وَسَمِعْنا صَوْتًا عَميقًا يَأْتينا مِنْ بَعيدٍ .

قالَ مُحَمَّدٌ : « إِنَّهُ أَسَدٌ ! »

قُلْتُ : « لَقَدْ أَبْلَغَني ٱلرُّبّانُ أَنَّنا سَنَتَمَكَّنُ غَدًا في ٱلعاشِرَةِ تَقْريبًا مِنْ أَنْ نَرى ٱلتَّلَّ ٱلَّذي عَلى شَكْلِ رَأْسِ رَجُلٍ . »

قالَ لِيُو : « كُنْتُ أَتَدَرَّبُ عَلى ٱلحَديثِ مَعَهُ بِٱلعَرَبِيَّةِ . وَعَرَفْتُ أَنَّهُ كانَ يَعْمَلُ بِٱلتِّجارَةِ في هٰذا ٱلجُزْءِ مِنْ إِفْرِيقِيَّةَ طَوالَ حَياتِهِ . وَسَأَلْتُهُ إِذا كانَ يَعْرِفُ شَيْئًا عَنْ تِلْكَ ٱلمَدينَةِ ٱلمُتَهَدِّمَةِ وَٱلكُهوفِ . »

سَأَلْتُ لِيُو : « هَلْ يَعْرِفُ شَيْئًا عَنْها ؟ »

فَأَجابَ : « لا ، وَلٰكِنَّهُ قالَ لي إِنَّ ٱلبِلادَ ٱلواقِعَةَ عَلى ٱمْتِدادِ ٱلسّاحِلِ مُنْخَفِضَةٌ وَتَغْمُرُها ٱلمِياهُ ، وَلا تَصْلُحُ لِلْحَياةِ ، وَتَعِجُّ بِٱلأَفاعي . »

وَسَأَلَ لِيُو مُحَمَّدًا مُشيرًا إِلى كُتْلَةٍ سَوْداءَ في ٱلسَّماءِ : « ما هٰذِهِ ٱلسَّحابَةُ ؟ »

فَأَجابَ : « أَتَعْني هٰذِهِ ؟ إِنَّها عاصِفَةٌ ، وَلٰكِنَّها مُجَرَّدُ عاصِفَةٍ صَغيرَةٍ سَتَمُرُّ مِنْ جانِبِنا . »

وَفي تِلْكَ ٱللَّحْظَةِ قَدِمَ جوب ناحِيَتَنا وَقَدْ تَغَيَّرَ لَوْنُ وَجْهِهِ إِلى ٱلسُّمْرَةِ ، وَظَهَرَتْ مَلامِحُهُ ٱلإِنْجِليزِيَّةُ واضِحَةً ، قالَ : « لَقَدْ وَضَعْتُ يا سَيِّدي كُلَّ ٱلمُؤَنِ وَٱلبَنادِقِ في ٱلقارِبِ خَلْفَ ٱلسَّفينَةِ حَتّى نَكونَ مُسْتَعِدّينَ لِرِحْلَتِنا في ٱلنَّهْرِ . وَيَقولُ ٱلرُّبّانُ إِنَّنا سَنَصِلُ مُبَكِّرينَ غَدًا ،

وَلٰكِنَّني لا أَثِقُ يا سَيِّدي بِهٰؤلاءِ ٱلرِّجالِ ؛ لِذا فَإِنَّني سَأَقْضي لَيْلَتي في ٱلقارِبِ لَوْ سَمَحْتَ لي . »

وَوافَقْتُ جُوب عَلى ٱقْتِراحِهِ ، وَكانَ ٱلوَقْتُ مُتَأَخِّرًا ؛ لِذا فَقَدْ أَخْلَدْتُ إلى ٱلنَّوْمِ أَنا وَلِيُو .

اِنْتَبَهْتُ بَعْدَ ذٰلِكَ عَلى صَوْتِ ٱلرِّياحِ وَعَويلِها ٱلمُخيفِ ، وَصَيْحاتِ ٱلفَزَعِ ٱلَّتي أَطْلَقَها ٱلرِّجالُ في ٱلسَّفينَةِ ، فَٱنْتَفَضْتُ واقِفًا وَأَمْسَكْتُ بِحَبْلٍ . كانَتِ ٱلسَّماءُ قَدِ ٱسْوَدَّتْ مِنْ فَوْقِنا ، وَلٰكِنَّ ٱلقَمَرَ كانَ مُشْرِقًا ، فَرَأَيْتُ في ضَوْئِهِ مَوْجَةً كَبيرَةً يَبْلُغُ ٱرْتِفاعُها سَبْعَةَ أَمْتارٍ تَنْدَفِعُ نَحْوَنا ، وَقَدْ عَلاها ٱلزَّبَدُ ٱلأَبْيَضُ . وَوَصَلَتِ ٱلمَوْجَةُ وَغَمَرَتْنا ، وَٱجْتاحَتْنا حَتّى صِرْنا جَميعًا في طَيّاتِها ، ثُمَّ مَرَّتْ .

وَما إِنْ نَهَضْتُ مِنْ وَسَطِ ٱلمِياهِ حَتّى رَأَيْتُ شِراعَ ٱلسَّفينَةِ وَقَدْ طَوَّحَتْهُ ٱلرِّياحُ ، وَحَمَلَتْهُ كَما تَحْمِلُ سَحابَةً صَغيرَةً . وَسَمِعْتُ جُوب يَصيحُ : « أَنا هُنا يا سَيِّدي ! تَعالَ إلى هُنا ، إلى ٱلقارِبِ ! »

وَكانَتِ ٱلسَّفينَةُ قَدْ غَمَرَتْها ٱلمِياهُ ، وَرَأَيْتُ مُحَمَّدًا يَقْفِزُ إلى ٱلقارِبِ ، فَقَفَزْتُ خَلْفَهُ ، وَجَذَبَني جُوب مِنْ ذِراعي . وَقَطَعَ مُحَمَّدٌ ٱلحَبْلَ ٱلَّذي كانَ يَرْبُطُ ٱلقارِبَ بِٱلسَّفينَةِ ٱلَّتي كانَتْ تَغوصُ في أَعْماقِ ٱلمِياهِ .

صِحْتُ : « وَلٰكِنْ أَيْنَ لِيُو ؟ لِيُو ! لِيُو ! »

فَأَجابَ جُوب : « لَقَدْ هَلَكَ يا سَيِّدي . أُنْظُرْ ! مَوْجَةٌ ثانِيَةٌ قادِمَةٌ نَحْوَنا . » اِحْتَجَبَ ٱلقَمَرُ تَقْريبًا خَلْفَ ٱلسُّحُبِ ، وَلٰكِنّي رَأَيْتُ عَلى ضَوْئِهِ ٱلخافِتِ ٱلمَوْجَةَ القادِمَةَ نَحْوَنا ، وَكانَ في وَسَطِها جِسْمٌ أَسْوَدُ ٱللَّوْنِ . وَغَمَرَتْنا ٱلمَوْجَةُ ، فَمَلَأَتِ ٱلقارِبَ بِٱلمِياهِ ، وَلٰكِنَّ خَزّاناتِ ٱلهَواءِ أَبْقَتْهُ طافِيًا . أَمّا ٱلجِسْمُ ٱلأَسْوَدُ فَقَدِ ٱنْدَفَعَ ناحِيَتي مُباشَرَةً ، فَرَفَعْتُ ذِراعي لِأَحْمِيَ نَفْسي مِنْهُ ، وَلٰكِنَّ يَدي ٱصْطَدَمَتْ بِذِراعٍ أُخْرى ، ثُمَّ أَمْسَكَتْ بي يَدٌ . وَرَغْمَ أَنَّني أَتَمَتَّعُ بِقُوَّةٍ جَسَدِيَّةٍ هائِلَةٍ ، وَكُنْتُ أُمْسِكُ بِجانِبِ ٱلقارِبِ ، إِلّا أَنَّني شَعَرْتُ أَنَّ ذِراعِيَ كادَتْ تَنْخَلِعُ مِنْ جِسْمي .

وَلَوْ كانَ ٱنْدِفاعُ ٱلمِياهِ طالَ أَكْثَرَ مِمّا حَدَثَ لَتَعَيَّنَ عَلَيَّ أَنْ أَتْرُكَ ٱلقارِبَ ، وَلٰكِنَّ ٱلمَوْجَةَ مَرَّتْ بِسَلامٍ . وَعِنْدَما سَقَطَ ٱلشُّعاعُ ٱلأَخيرُ لِلْقَمَرِ — قَبْلَ أَنْ يَطْوِيَهُ ٱلظَّلامُ — عَلى وَجْهِ ذٰلِكَ ٱلرَّجُلِ ٱلَّذي كُنْتُ مُمْسِكًا بِهِ تَبَيَّنْتُ أَنَّهُ وَجْهُ لِيُو ، وَقَدْ حَمَلَتْهُ إِلَيَّ ٱلمَوْجَةُ ٱلثّانِيَةُ حَيًّا أَوْ مَيِّتًا ، لَمْ أَكُنْ أَدْري .

اِنْهَمَكَ جُوب وَمُحَمَّدٌ في نَزْحِ ٱلمِياهِ مِنَ ٱلقارِبِ ، فَسارَعْتُ إلى مُعاوَنَتِهِما . وَعَمِلْنا مَعًا مِنْ أَجْلِ ٱلإِبْقاءِ عَلى حَياتِنا . وَكانَ صَوْتُ ٱرْتِطامِ ٱلمَوْجِ بِٱلصُّخورِ يَعْلو عَلى صَوْتِ ٱلرِّياحِ وَٱلمَطَرِ . وَبَزَغَ ٱلقَمَرُ مَرَّةً أُخْرى ، فَشاهَدْتُ عَلى بُعْدِ كيلومِتْرٍ تَقْريبًا خَطًّا أَبْيَضَ مِنَ ٱلمِياهِ ٱلمُتَكَسِّرَةِ ، يَليهِ خَطٌّ أَبْيَضُ آخَرُ في ٱلوَقْتِ ٱلَّذي زادَ فيهِ ٱلصَّوْتُ



العَميقُ وُضوحًا . صِحْتُ قائِلًا لِمُحَمَّدٍ : « قُدِ القارِبَ ، فَعَلَيْنا أَنْ نَجْتازَ العاصِفَةَ . »

وَجَلَسْتُ أَنا وَجُوب مُسْتَعِدَّيْنِ لِلتَّجْديفِ ، وَدَفَعَتْنا الرِّياحُ وَالمِياهُ إِلى الأَمامِ .

وَفي مَوْضِعٍ مُعَيَّنٍ بَدا لَنا الخَطُّ الأَبْيَضُ أَقَلَّ سُمْكًا ، فَأَشَرْتُ إِلَيْهِ قائِلًا لِمُحَمَّدٍ : « وَجِّهِ القارِبَ إِلى هُناكَ . » فَرَأَيْتُهُ يَبْذُلُ قُصارى جَهْدِهِ لِتَغْييرِ وِجْهَةِ القارِبِ . وَقُمْتُ أَنا وَجُوب بِالتَّجْديفِ بِكُلِّ ما أوتينا مِنْ قُوَّةٍ ، حَتّى صِرْنا في مُنْتَصَفِ ذٰلِكَ المَوْضِعِ . وَارْتَفَعَتِ المِياهُ المُتَكَسِّرَةُ حَتّى عَلَتْ رُؤوسَنا ، ثُمَّ جاءَتْ مَوْجَةٌ هائِلَةٌ مِنْ خَلْفِنا ،

وَرَفَعَتْنا ثُمَّ أَلْقَتْ بِنا إِلى مِنْطَقَةِ مِياهٍ أَهْدَأَ .

وَلٰكِنَّ القارِبَ كانَ قَدِ امْتَلَأَ بِالمِياهِ مَرَّةً أُخرى ، وَكانَ الخَطُّ الأَبْيَضُ الثّاني يَبْعُدُ عَنّا كيلومِتْرًا واحِدًا ، وَكانَتِ العاصِفَةُ أَقَلَّ حِدَّةً .

وَنَظَرْتُ إِلى لِيُو ، فَوَجَدْتُ عَيْنَيْهِ مَفْتوحَتَيْنِ ، وَكانَتِ المِياهُ في تِلْكَ اللَّحْظَةِ قَدْ ساقَتْنا إِلى خَطِّ الصُّخورِ الثّاني . وَأَطْلَقَ جُوب صَرْخَةً وَأَخَذَ مُحَمَّدٌ يَدْعو اللهَ ؛ فَقَدْ كانَتِ المِياهُ تَتَقاذَفُنا إِلى الأَمامِ تارَةً وَإِلى الخَلْفِ تارَةً أُخرى . وَبَعْدَ خَمْسِ دَقائِقَ انْطَلَقَ بِنا القارِبُ يَدْفَعُنا إِلى الأَمامِ تَيّارُ المِياهِ ، بَعْدَ أَنْ نالَ مِنّا التَّعَبُ حَتّى إِنَّنا لَمْ نَقْدِرْ عَلى الحَرَكَةِ أَوْ تَسْييرِ القارِبِ .

اِنْتَهَتِ العاصِفَةُ تَقْريبًا ، فَصَفَتِ السَّماءُ ، وَانْسَكَبَ ضَوْءُ القَمَرِ الأَبْيَضُ لِيَغْمُرَ سَطْحَ البَحْرِ وَالأَرْضِ ، وَتَطَلَّعْتُ إِلى الصَّخْرَةِ الهائِلَةِ القائِمَةِ أَمامَنا في البَحْرِ ، وَقَدْ أَضاءَها مِنَ الخَلْفِ نورُ القَمَرِ ، فَبَدَتْ سَوْداءَ مِنَ الأَمامِ .

وَكانَتِ الصَّخْرَةُ عَلى شَكْلِ رَأْسِ رَجُلٍ إِفْريقِيٍّ .

الفَصْلُ السّادِسُ

جَوانِبُ حَقيقِيَّةٌ في القِصَّةِ

أَخيرًا أَشْرَقَ النَّهارُ ، وَكُنْتُ أَجْلِسُ في القارِبِ أُنْصِتُ إلى تَرَقْرُقِ المِياهِ ، وَأَتَطَلَّعُ إلى التَّلِّ الَّذي يَرْتَفِعُ وَسْطَ المِياهِ . وَرَأَيْتُ تِلْكَ الصَّخْرَةَ ذاتَ الشَّكْلِ الغَريبِ وَقَدْ تَوَّجَتْها أَشِعَّةُ الشَّمْسِ . وَلَمْ يَعُدْ هُناكَ شَكٌّ في وُجودِها : فَها هُوَ ذا الأَنْفُ ، وَها هِيَ ذي العَيْنانِ ، وَها هُوَ ذا الفَمُ . إنَّها في الحَقيقَةِ عَلى شَكْلِ رَأْسِ إنْسانٍ ، وَلَمْ أَسْتَطِعْ قَطُّ أَنْ أَكْتَشِفَ ما إذا كانَتْ يَدُ الإنْسانِ هِيَ الَّتي صَنَعَتْها ، أَمْ أَنَّها مِنْ صُنْعِ الطَّبيعَةِ ، وَلٰكِنْ ها هِيَ ذي الصَّخْرَةُ تَنْتَصِبُ أَمامَنا لِتَبْدُوَ وَكَأَنَّها تُطِلُّ عَلى البَحْرِ تَمامًا كَما رَأَتْها أَمينارْتاس الأَميرَةُ المِصْرِيَّةُ مُنْذُ أَلْفَيْ عامٍ .

سَأَلْتُ جوب : « ما رَأْيُكَ في هٰذا ؟ »

وَكانَ جوب قَدْ رَآها لِأَوَّلِ مَرَّةٍ ، فَقالَ : « يا إلٰهي ! »

وَأَيْقَظْتُ لِيو الَّذي سَأَلَني : « أَيْنَ السَّفينَةُ ؟ ما الَّذي حَدَثَ ؟ »

فَقُلْتُ لَهُ : « لَقَدْ فَقَدْنا السَّفينَةَ ؟ وَقَدْ هَلَكَ مَعَها كُلُّ مَنْ كانَ

عَلَيْها ، وَلَمْ يَبْقَ سِوانا نَحْنُ الأَرْبَعَةِ . أَمّا أَنْتَ فَقَدْ نَجَوْتَ بِأُعْجوبَةٍ . »

فَتَطَلَّعَ لِيو إلَيَّ قائِلًا : « يا لَلْعَجَبِ ! ها هُوَ ذا الرَّأْسُ ، ها هِيَ ذي الصَّخْرَةُ الَّتي عَلى شَكْلِ رَأْسِ إنْسانٍ إفْريقِيٍّ . إذًا فَالقِصَّةُ كُلُّها حَقيقِيَّةٌ ! »

فَقُلْتُ لَهُ : « أَنا لا أُوافِقُكَ عَلى ذٰلِكَ ، فَنَحْنُ نَعْرِفُ بِوُجودِ هٰذا الرَّأْسِ هُنا ، فَقَدْ رَآهُ والِدُكَ . وَلٰكِنْ لَعَلَّهُ لَيْسَ الرَّأْسَ نَفْسَهُ الَّذي وَرَدَ ذِكْرُهُ في تِلْكَ الكِتاباتِ . وَحَتّى إذا كانَ الرَّأْسَ نَفْسَهُ ، فَإنَّ هٰذا لا يُثْبِتُ صِحَّةَ بَقِيَّةِ القِصَّةِ .

فَقالَ لِيو : « إنَّكَ شَخْصٌ لا يُصَدِّقُ شَيْئًا . »

قُلْتُ لَهُ : « نَعَمْ ، وَالآنَ لَعَلَّكَ قَدْ لاحَظْتَ أَنَّ التَّيّارَ قَدْ ساقَ القارِبَ إلى شَطٍّ رَمْلِيٍّ عِنْدَ مَصَبِّ النَّهْرِ . وَعَلَيْنا إذًا أَنْ نُواصِلَ التَّجْديفَ حَتّى نَجِدَ مَكانًا صالِحًا وَنَرْسُوَ فيهِ . »

وَكانَتْ تَمْتَدُّ أَمامَنا ، لِمَسافَةِ أَكْثَرَ مِنْ كيلومِتْرٍ ، ذِراعٌ طَويلَةٌ مِنَ اليابِسَةِ تَرْتَفِعُ عَنْ مُسْتَوى بَقِيَّةِ الأَرْضِ ، وَلَها جانِبانِ مُنْحَدِرانِ . وَسُرْعانَ ما وَصَلْنا إلَيْها ، وَهُناكَ نَزَلْنا إلى اليابِسَةِ .

وَبَعْدَ ذٰلِكَ اغْتَسَلْنا ، وَنَشَرْنا مَلابِسَنا لِتَجِفَّ . وَأَخْرَجَ جوب بَعْضَ الطَّعامِ مِنَ القارِبِ ، وَتَناوَلْنا إفْطارَنا . ثُمَّ نَظَرْنا حَوْلَنا ، فَتَبَيَّنّا أَنَّ قِطْعَةَ الأَرْضِ تِلْكَ تَبْلُغُ نَحْوَ خَمْسِمِئَةِ مِتْرٍ طولًا وَمِئَةِ مِتْرٍ عَرْضًا ، وَيَرْتَفِعُ

مُسْتَواها عَنِ ٱلأَرْضِ ٱلْمُنْخَفِضَةِ خَلْفَها بِنَحْوِ ثَمانِيَةِ أَمْتارٍ .

قالَ لِيُو : « إِنَّ هٰذا ٱلْمَكانَ قَدْ بَناهُ ٱلإِنْسانُ ، وَكانَتِ ٱلسُّفُنُ ٱلْكَبيرَةُ تَأْتي إِلى هُنا . »

فَقُلْتُ لَهُ : « لا تَكُنْ غَبِيًّا ، مَنِ ٱلَّذي يَبْني مِثْلَ هٰذا ٱلْمَكانِ وَسْطَ هٰذِهِ ٱلأَراضي ٱلْواطِئَةِ ، وَفي بِلادٍ لا يَعيشُ بِها سِوى أُناسٍ بُدائِيِّينَ — هٰذا لَوْ كانَ يَعيشُ بِها أَحَدٌ عَلى ٱلإِطْلاقِ . »

فَقالَ لِيُو : « لَعَلَّها لَمْ تَكُنْ بِهٰذا ٱلشَّكْلِ مِنْ قَبْلُ ، لَعَلَّ هٰذِهِ ٱلأَراضِيَ ٱلْواطِئَةَ كانَتْ يَوْمًا جافَّةً ، وَلَعَلَّها كانَ يَسْكُنُها ٱلْكَثيرُ مِنَ ٱلنّاسِ في يَوْمٍ مِنَ ٱلأَيّامِ . اُنْظُرْ إِلى هُناكَ . »

وَكانَ لِيُو يُشيرُ إِلى شَجَرَةٍ أَطاحَتْ بِها ٱلعاصِفَةُ ، وَقَدْ خَلَّفَتْ جُذورُها ٱلْمُقْتَلَعَةُ حُفْرَةً كَبيرَةً في ٱلأَرْضِ .

وَسَأَلَ لِيُو : « أَلَيْسَ هٰذا ٱلَّذي نَراهُ في قاعِ هٰذِهِ ٱلْحُفْرَةِ بِناءً حَجَرِيًّا ؟ »

وَهَبَطْتُ إِلى قاعِ ٱلْحُفْرَةِ ، فَوَجَدْتُ حِجارَةً ضَخْمَةً رُصَّتْ مَعًا بِعِنايَةٍ ، وَكانَ وَجْهُ ٱلْحِجارَةِ مُسَطَّحًا ، وَٱسْتَطَعْتُ أَنْ أَتَبَيَّنَ عَلَيْها عَلاماتٍ تُشيرُ إِلى طَريقَةِ قَطْعِها . وَحَفَرْتُ ٱلأَرْضَ بِيَدَيَّ ؛ فَوَجَدْتُ حَلْقَةً حَديدِيَّةً كَبيرَةً لِلْغايَةِ يَبْلُغُ قُطْرُها نَحْوَ ثَلاثينَ سَنْتيمِتْرًا وَسُمْكُها نَحْوَ ثَمانِيَةِ سَنْتيمِتْراتٍ ، فَقالَ لِيُو ٱلَّذي كانَ يُراقِبُني : « يَبْدو أَنَّ سُفُنًا

كَبيرَةً كانَتْ تَجيءُ إِلى هٰذا ٱلْمَكانِ . »

فَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أُجيبَهُ ، وَلٰكِنْ لَعَلَّ هٰذِهِ ٱلأَرْضَ كانَتْ يَوْمًا أَرْضًا يابِسَةً وَقامَتْ عَلَيْها مَدينَةٌ كَبيرَةٌ . وَٱسْتَطْرَدَ لِيُو قائِلًا : « لَقَدْ بَدَأَ يَتَّضِحُ لَنا مِنَ ٱلشَّواهِدِ ما يَدُلُّ عَلى أَنَّ هٰذِهِ ٱلْقِصَّةَ عَلى جانِبٍ مِنَ ٱلصِّدْقِ ، أَلا يَبْدو ذٰلِكَ واضِحًا ؟ »

وَنَظَرْتُ إِلى تِلْكَ ٱلأَراضي ٱلْواطِئَةِ ٱلَّتي تَمْتَدُّ عَلى مَدى ٱلْبَصَرِ ، وَكانَتِ ٱلشَّمْسُ قَدِ ٱزْدادَتْ حَرارَتُها فَكَسَتِ ٱلأَرْضَ بِطَبَقَةٍ مِنَ ٱلْبُخارِ . قُلْتُ لِلِيُو : « هُناكَ ثَلاثَةُ أَشْياءَ تَبْدو جَلِيَّةً أَمامي . أَوَّلُها أَنَّهُ مِنَ ٱلْواضِحِ أَنَّنا لَنْ نَسْتَطيعَ أَنْ نَجْتازَ هٰذِهِ ٱلأَرْضَ . » وَأَشَرْتُ إِلى تِلْكَ ٱلْمِساحَةِ ٱلشّاسِعَةِ ٱلَّتي كانَتْ تَمْتَدُّ أَمامَنا .

« أَمّا ٱلشَّيْءُ ٱلثّاني ٱلَّذي ٱتَّضَحَ لي فَهُوَ أَنَّنا لَنْ نَسْتَطيعَ أَنْ نَبْقى هُنا ؛ وَإِلّا فَتَكَتْ بِنا حُمّى ٱلْمَلارْيا . أَمّا ٱلشَّيْءُ ٱلثّالِثُ ٱلْواضِحُ أَيْضًا فَهُوَ أَنَّهُ لَيْسَ أَمامَنا سِوى خِيارَيْنِ : إِمّا أَنْ نَعودَ إِلى ٱلْبَحْرِ بِٱلْقارِبِ وَنُحاوِلَ أَنْ نَصِلَ إِلى مَكانٍ ما عَلى ٱلسّاحِلِ ، أَوْ نَسيرَ في ٱلنَّهْرِ حَتّى مَنْبَعِهِ وَنَرى إِلى أَيْنَ سَنَصِلُ . »

فَقالَ لِيُو : « أَنا لا أَعْرِفُ ما تَنْوي أَنْ تَفْعَلَهُ ، وَلٰكِنّي سَأَذْهَبُ إِلى مَنْبَعِ ٱلنَّهْرِ . »

فَقالَ جوب : « فَلْيُساعِدْنا ٱللهُ . » وَقالَ مُحَمَّدٌ بِٱلْعَرَبِيَّةِ ٱلشَّيْءَ نَفْسَهُ .

الفَصْلُ ٱلسّابِعُ

إلى مَنْبَعِ ٱلنَّهْرِ

كانَتِ ٱلرِّياحُ تَهُبُّ مِنَ ٱلبَحْرِ على ٱليابِسَةِ ، لِهٰذا فَقَدْ نَشَرْنا ٱلشِّراعَ ؛ فَٱنْدَفَعَ بِنا ٱلقارِبُ في ٱلنَّهْرِ بِسُرْعَةٍ مَعْقولَةٍ عِدَّةَ ساعاتٍ . وَكُنّا نَرى ٱلعَديدَ مِنَ ٱلتَّماسيحِ راقِدَةً على ضِفَّةِ ٱلنَّهْرِ ، أَوْ غاطِسَةً في ٱلمِياهِ وَلا تَبْدو مِنْها سِوى عُيونِها . وَفي مُنْتَصَفِ ٱلنَّهارِ تَوَقَّفَتِ ٱلرِّياحُ ، وَٱرْتَفَعَتْ حَرارَةُ ٱلجَوِّ ، فَلَجَأْنا إلى مِنْطَقَةٍ تُظَلِّلُها ٱلأَشْجارُ ، وَبَقينا بِها حَتّى غُروبِ ٱلشَّمْسِ . وَبَعْدَ ذٰلِكَ واصَلْنا ٱلتَّجْديفَ حَتّى وَصَلْنا إلى بُحَيْرَةٍ صَغيرَةٍ حَيْثُ عَزَمْنا أَنْ نَقْضِيَ لَيْلَتَنا .

وَعِنْدَ غُروبِ ٱلشَّمْسِ جاءَ ظَبْيٌ جَميلٌ ، مِنَ ٱلظِّباءِ ٱلمَعْروفَةِ بِظِباءِ ٱلماءِ ، قاصِدًا ٱلنَّهْرَ لِيَشْرَبَ ، وَلَمّا لَمْ نَكُنْ نَعْرِفُ كَمْ سَتَطولُ رِحْلَتُنا تِلْكَ ٱلَّتي سَنَحْتاجُ خِلالَها إلى طَعامٍ ، لِذا فَقَدْ سارَعَ لِيو وَتَناوَلَ بُنْدُقِيَّتَهُ . وَما زالَ ذٰلِكَ ٱلمَشْهَدُ عالِقًا بِذاكِرَتي : إِذْ أَراهُ واقِفًا حامِلًا بُنْدُقِيَّتَهُ ، وَيَقِفُ أَمامَهُ ٱلظَّبْيُ وَقَدْ خَفَضَ رَأْسَهُ في ٱلماءِ لِيَشْرَبَ ، وَظَهَرَتْ خَلْفَهُ شَمْسُ ٱلغُروبِ كَأَنَّها كُرَةٌ حَمْراءُ مُلْتَهِبَةٌ . أَمّا ٱلسَّماءُ



فَكانَتْ تَعِجُّ بِأَسْرابِ ٱلبَطِّ ٱلبَرِّيِّ ٱلعائِدِ إلى أَعْشاشِهِ مُخْتَرِقًا ٱلضَّوْءَ ٱلذَّهَبِيَّ لِشَمْسِ ٱلغُروبِ .

وَكانَتْ تُحيطُ بِنا مِنْ كُلِّ جانِبٍ مِساحاتٌ شاسِعَةٌ مِنَ ٱلمِياهِ وَٱلأَعْشابِ ٱلطَّويلَةِ . وَوَسَطَ كُلِّ هٰذا وَقَفَ قارِبٌ حَديثٌ بِهِ ثَلاثَةُ رِجالٍ مُتَحَضِّرينَ .

اِنْطَلَقَتْ رَصاصَةٌ لَمْ تُصِبِ ٱلظَّبْيَ ؛ فَقَدْ أَخْطَأَ لِيو ٱلهَدَفَ ، ثُمَّ أَطْلَقْتُ أَنا بَعْدَهُ رَصاصَةً مِنْ بُنْدُقِيَّتي فَصاحَ لِيو على أَثَرِها فَرِحًا : « إِصابَةٌ مُحْكَمَةٌ ! » إِذْ كُنْتُ قَدْ أَصَبْتُ ٱلظَّبْيَ ، فَنَزَلْنا مِنَ ٱلقارِبِ وَعُدْنا بِقَدْرِ ما ٱسْتَطَعْنا حَمْلَهُ مِنْ لَحْمِ ٱلظَّبْيِ .

ثُمَّ عاوَدْنا ٱلتَّجْديفَ حَتّى ٱبْتَعَدْنا عَنِ ٱلشّاطِئِ بِمَسافَةٍ تَزيدُ عَلى خَمْسينَ مِتْرًا ، وَتَوَقَّفْنا لِنَتَناوَلَ وَجْبَةَ طَعامٍ ، حاوَلْنا بَعْدَها أَنْ نَخْلُدَ إِلى ٱلنَّوْمِ ، وَلٰكِنَّ ٱلنَّوْمَ كانَ أَمْرًا مُسْتَحيلًا ؛ إِذْ حَطَّتْ عَلَيْنا ٱلمَلايينُ مِنَ ٱلحَشَراتِ ٱلَّتي أَقْبَلَتْ كَأَنَّها ٱلسُّحُبُ ، وَصارَتْ تَلْسَعُنا حَتّى مِنْ فَوْقِ مَلابِسِنا ، فَغَطَّيْنا وُجوهَنا ، إِلّا أَنَّ ٱلحَشَراتِ كانَتْ تَلْسَعُنا أَيْضًا مِنْ خِلالِ ٱلأَغْطِيَةِ .

وَٱنْقَضَتْ تِلْكَ ٱلسّاعاتُ ٱلمُزْعِجَةُ ، ثُمَّ تَناهى إِلى أَسْماعِنا صَوْتٌ ٱخْتَرَقَ ٱلسُّكونَ ، وَكانَ زَئيرًا قَوِيًّا أَطْلَقَهُ أَحَدُ ٱلأُسودِ ، أَعْقَبَهُ زَئيرُ أَسَدٍ آخَرَ ، فَقالَ لِيُو :

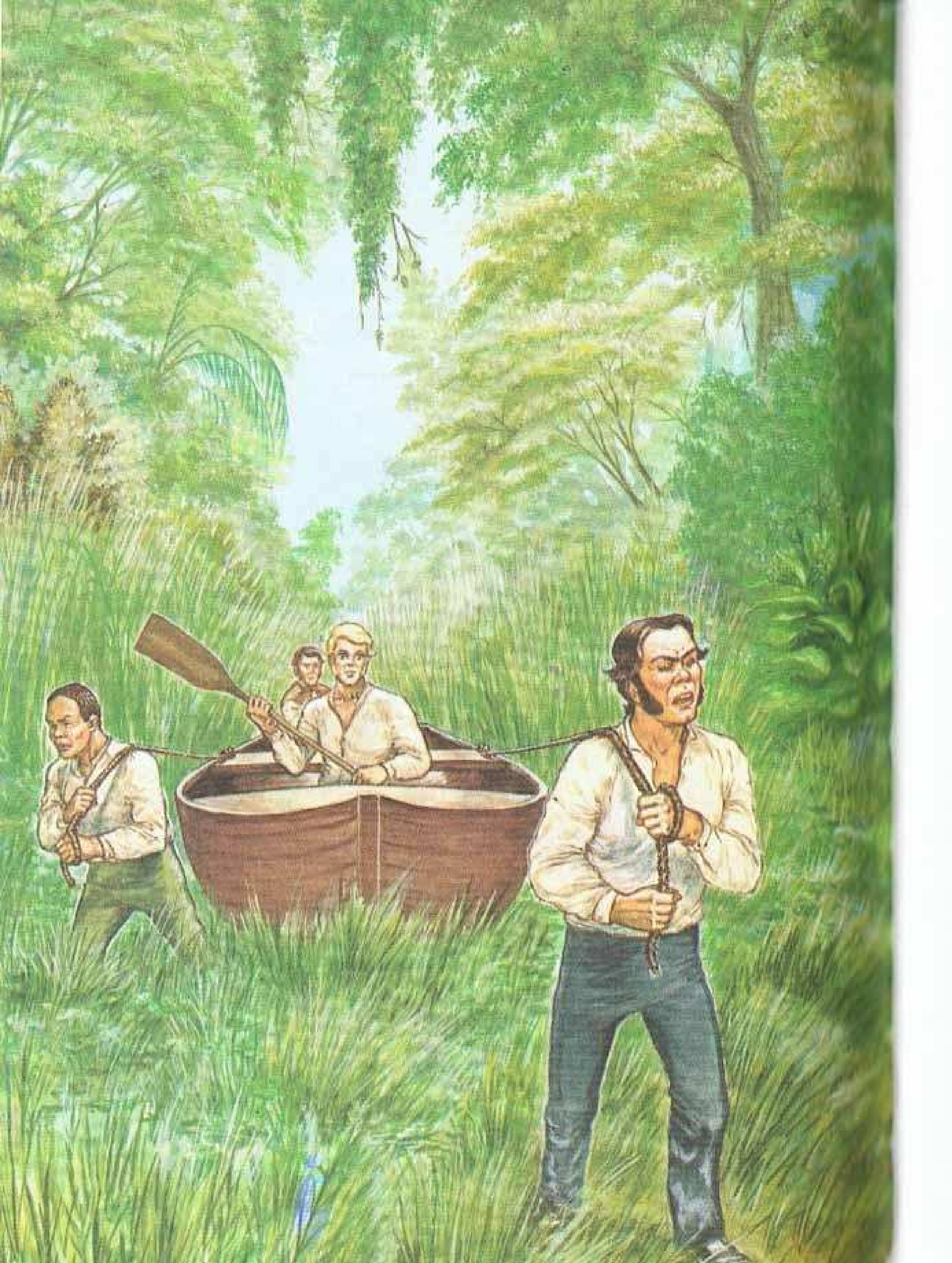
« كَمْ أَنا سَعيدٌ أَنَّنا عَلى ٱلشّاطِئِ ٱلآنَ . » وَسُرْعانَ ما بَزَغَ ضَوْءُ ٱلقَمَرِ ، وَسَمِعْتُ جُوب يَقولُ هامِسًا : « آهٍ ! يا إِلٰهي ! ٱنْظُرْ هُناكَ . »

كانَ أَسَدانِ قَدْ جَذَبَتْهُما رائِحَةُ ٱللَّحْمِ ٱلطّازَجِ فَبَدَآ يَسْبَحانِ في ٱلنَّهْرِ نَحْوَنا ، وَكانَتْ عَلى بُعْدِ حَوالى خَمْسَةِ أَمْتارٍ مِنّا رَبْوَةٌ رَمْلِيَّةٌ وَسْطَ ٱلمِياهِ ، فَجاءَ ٱلأَسَدُ ٱلأَوَّلُ وَوَقَفَ عَلَيْها ، فَأَطْلَقَ عَلَيْهِ لِيُو ٱلنّارَ فَأَرْداهُ قَتيلًا . أَمّا ٱلأَسَدُ ٱلثّاني فَقَدْ كانَ خَلْفَهُ مُباشَرَةً ، وَما إِنْ مَدَّ قائِمَتَيْهِ ٱلأَمامِيَّتَيْنِ إِلى تِلْكَ ٱلرَّبْوَةِ حَتّى وَقَعَ صِراعٌ رَهيبٌ ، وَشاهَدْنا ٱلأَسَدَ يُجَرُّ إِلى ٱلماءِ ، فَصاحَ مُحَمَّدٌ قائِلًا : « ٱنْظُروا ! لَقَدْ أَمْسَكَ تِمْساحٌ بِساقِ ٱلأَسَدِ ! »

وَٱسْتَمَرَّ ٱلصِّراعُ بَيْنَ ٱلأَسَدِ وَٱلتِّمْساحِ ، كادَ ٱلأَسَدُ خِلالَهُ في بَعْضِ ٱلأَحْيانِ أَنْ يُخْرِجَ ٱلتِّمْساحَ مِنَ ٱلماءِ ، وَلٰكِنْ سُرْعانَ ما كانَ ٱلتِّمْساحُ يَجْذِبُهُ إِلى ٱلماءِ مَرَّةً أُخْرى . وَأَخيرًا مالَ رَأْسُ ٱلأَسَدِ إِلى ٱلأَمامِ ، وَرَأَيْناهُ يَغوصُ في أَعْماقِ ٱلماءِ ، ثُمَّ خَيَّمَ ٱلصَّمْتُ حَتّى لَمْ نَعُدْ نَسْمَعُ سِوى طَنينِ مَلايينِ ٱلحَشَراتِ .

وَبِٱنْقِضاءِ ٱليَوْمِ ٱلخامِسِ مِنْ أَيّامِ رِحْلَتِنا كُنّا قَدْ قَطَعْنا أَكْثَرَ مِنْ ٢٢٠ كيلومِتْرًا في ٱلِاتِّجاهِ ٱلغَرْبِيِّ لِلشّاطِئِ . وَفي صَباحِ هٰذا ٱليَوْمِ خَفَّتِ ٱلرِّياحُ ، وَكانَتِ ٱلسّاعَةُ قَدْ قارَبَتِ ٱلحادِيَةَ عَشْرَةَ . وَبَعْدَ أَنْ جَدَّفْنا لِمَسافَةٍ قَصيرَةٍ وَصَلْنا إِلى بُقْعَةٍ يَتَفَرَّعُ فيها ٱلنَّهْرُ إِلى فَرْعَيْنِ ، فَنَزَلْنا مِنَ ٱلقارِبِ ، وَسِرْنا بِٱمْتِدادِ ٱلفَرْعِ ٱلشَّرْقِيِّ لِلنَّهْرِ مَسافَةَ ٤٥ مِتْرًا ، تَبَيَّنَ لَنا بَعْدَها أَنَّهُ مِنَ ٱلمُسْتَحيلِ تَمامًا أَنْ يُبْحِرَ ٱلقارِبُ في هٰذا ٱلفَرْعِ ؛ فَٱلمِياهُ كانَتْ تَتَناقَصُ فيهِ تَدْريجِيًّا حَتّى صارَ ضَحْلًا لا يَتَجاوَزُ عُمْقُ ٱلمِياهِ بِهِ أَكْثَرَ مِنْ عِدَّةِ سَنْتيمِتْراتٍ ، فَعُدْنا أَدْراجَنا ، وَبَدَأْنا نَسيرُ بِٱمْتِدادِ ٱلفَرْعِ ٱلغَرْبِيِّ لِلنَّهْرِ .

وَكانَ مِنَ ٱلواضِحِ لَنا أَنَّ هٰذا ٱلنَّهْرَ لَيْسَ مِنْ فِعْلِ ٱلطَّبيعَةِ ، بَلْ هُوَ مَجْرًى مائِيٌّ مِنْ صُنْعِ ٱلإِنْسانِ ، إِذْ كانَ ٱلطّينُ ٱلمُتَخَلِّفُ عَنْ حَفْرِهِ مُكَدَّسًا عَلى ٱلضِّفَّتَيْنِ . وَكانَ ٱلنَّهْرُ يَمْتَدُّ أَمامَنا إِلى نِهايَةٍ لا نَعْلَمُها في ٱسْتِقامَةٍ واضِحَةٍ ، وَقَدْ خُيِّلَ لَنا أَنَّ مِياهَ ٱلنَّهْرِ ساكِنَةٌ تَكادُ لا تَتَحَرَّكُ ، وَكانَتْ مَليئَةً بِنَباتاتٍ مائِيَّةٍ كَثيفَةٍ .



قالَ لِيُو : « يُخَيَّلُ لي أَنَّ هٰذا ٱلنَّهْرَ قَدْ حُفِرَ لِتَسْتَخْدِمَهُ ٱلمراكِبُ ٱلَّتي كانَتْ تَأْتي إلى ٱلمدينَةِ ٱلقَديمَةِ في وَسَطِ ٱلبِلادِ . »

فَأَجَبْتُهُ قائِلًا : « عَلَيْنا إِمّا أَنْ نُبْحِرَ في هٰذا ٱلنَّهْرِ أَوْ نَعودَ أَدْراجَنا إلى ٱلبَحْرِ ، فَلَنْ نَسْتَطيعَ أَنْ نَبْقى هُنا وَإِلّا ٱلْتَهَمَتْنا ٱلحَشَراتُ . »

وَٱنْتَظَرْنا حَتّى ٱنْخَفَضَتْ حَرارَةُ ٱلشَّمْسِ ، وَكانَتِ ٱلرّيحُ ساكِنَةً . وَعاوَدْنا ٱلتَّجْديفَ ساعَةً ، وَكانَتْ مُهِمَّةً شاقَّةً . وَأَخَذَتْ كَثافَةُ ٱلنَّباتاتِ ٱلمائِيَّةِ تَزْدادُ بَعْدَ ذٰلِكَ ، حَتّى إِنَّ ٱثْنَيْنِ مِنّا ٱضْطُرّا مِنْ حينٍ لِآخَرَ إلى ٱلنُّزولِ إلى ضِفَّةِ ٱلنَّهْرِ لِيَجُرّا ٱلقارِبَ ، بَيْنَما تَوَلّى ثالِثٌ تَوْجيهَ ٱلدَّفَّةِ . أَمّا ٱلرّابِعُ فَكانَ يَجْلِسُ في مُقَدِّمَةِ ٱلقارِبِ لِيُزيحَ ٱلنَّباتاتِ جانِبًا مِنْ أَمامِ ٱلقارِبِ . وَلَنْ أَصِفَ ما حَدَثَ خِلالَ ٱلأَيّامِ ٱلأَرْبَعَةِ ٱلتّالِيَةِ مِنْ أَيّامِ رِحْلَتِنا ، فَقَدْ كانَتْ أَشَقَّ ما شَهِدْتُهُ مِنْ أَيّامٍ في حَياتي . كانَتْ أَيّامَ عَمَلٍ لا تَنْتَهي تَحْتَ وَطْأَةِ ٱلحَرارَةِ ٱلشَّديدَةِ وَلَسْعِ ٱلحَشَراتِ . وَفي ٱليَوْمِ ٱلثّالِثِ شاهَدْنا عَنْ بُعْدٍ تَلًّا غَيْرَ واضِحِ ٱلمَعالِمِ ، وَتَبَيَّنَ لَنا في ٱليَوْمِ ٱلرّابِعِ أَنَّ هٰذا ٱلتَّلَّ يَبْعُدُ عَنّا خَمْسينَ كيلومِتْرًا تَقْريبًا .

وَكانَ ٱلتَّعَبُ وَٱلإِرْهاقُ قَدْ نالا مِنّا . فَأَيْدينا قَدْ تَوَرَّمَتْ وَغَطَّتْها ٱلدِّماءُ ، وَشَعَرْنا بِٱلعَجْزِ عَنْ تَحْريكِ ٱلقارِبِ مِتْرًا واحِدًا . وَلَمْ يَبْقَ أَمامَنا سِوى أَنْ نَرْقُدَ عَلى ٱلأَرْضِ ، وَنَسْتَلْقِيَ في ٱنْتِظارِ ٱلمَوْتِ وَسْطَ هٰذِهِ ٱلمُسْتَنْقَعاتِ ، فَأَلْقَيْتُ بِجَسَدي في ٱلقارِبِ وَأَنا أَلْعَنُ غَبائِيَ ٱلَّذي جَعَلَني أَنْضَمُّ إلى مِثْلِ هٰذِهِ ٱلرِّحْلَةِ ٱلمَجْنونَةِ ٱلَّتي يُمْكِنُ أَنْ تَنْتَهِيَ بِمَوْتِنا

جميعًا . وَعِنْدَما غَلَبَني ٱلنُّعاسُ راوَدَتْني ٱلأَحْلامُ ٱلَّتي شاهَدْتُ فيها
ما سَيَكونُ عَلَيْهِ حالُنا بَعْدَ ثَلاثَةِ أَشْهُرٍ ، عِنْدَما سَيَكونُ هٰذا ٱلقارِبُ قَدِ
ٱمْتَلأَ إِلى مُنْتَصَفِهِ بِٱلماءِ وَتَناثَرَتْ في أَرْجائِهِ بَقايا أَجْسادِنا نَحْنُ ٱلأَرْبَعَةِ
وَقَدْ تَحَلَّلَتْ وَتَعَفَّنَتْ . وَشاهَدْتُ في أَحْلامي جَسَدَ مُحَمَّدٍ مُمَدَّدًا أَمامي
وَقَدْ فَتَحَ عَيْنَيْهِ يَنْظُرُ إِلَيَّ نَظَراتٍ كَأَنَّهُ يَلومُني أَنا وَحْدي عَلى ما لَقِيَهُ .

اِسْتَيْقَظْتُ مِنْ نَوْمي وَأَنا أَرْتَعِشُ مِنَ ٱلخَوْفِ بِسَبَبِ ما رَأَيْتُهُ مِنْ
أَحْلامٍ مُخيفَةٍ ، وَرَأَيْتُ شَيْئًا حَقيقِيًّا وَلَيْسَ حُلْمًا : رَأَيْتُ عَيْنَيْنِ
واسِعَتَيْنِ تُحَمْلِقانِ إِلَيَّ وَسْطَ ٱلظَّلامِ .

نَهَضْتُ وَصِحْتُ مَرّاتٍ وَمَرّاتٍ ، حَتّى هَبَّ ٱلآخَرونَ نِصْفَ نائِمينَ
يَرْتَعِدونَ مِنَ ٱلخَوْفِ . وَرَأَيْتُ ضَوْءَ ٱلقَمَرِ يَنْعَكِسُ عَلى رَأْسِ رُمْحٍ
سُلِّطَ نَحْوَ قَلْبي ، وَكانَ ثَمَّةَ مَنْ يَسْأَلُ :

« مَنْ أَنْتَ يا مَنْ أَتَيْتَ سابِحًا في هٰذِهِ ٱلمِياهِ ؟ تَكَلَّمْ وَإِلّا لَقيتَ
حَتْفَكَ ! » وَكانَ ٱلرَّجُلُ يَتَكَلَّمُ ٱلعَرَبِيَّةَ : وَلٰكِنَّها كانَتْ نَوْعًا مِنَ ٱلعَرَبِيَّةِ
ٱلَّتي صَعُبَ عَلَيَّ فَهْمُها ، فَأَجَبْتُهُ بِأَحْسَنِ ما أَعْرِفُ مِنَ ٱلعَرَبِيَّةِ : « نَحْنُ
رَحّالَةٌ ، وَقَدْ جِئْنا إِلى هُنا مُصادَفَةً . »

وَأَدارَ ٱلرَّجُلُ رَأْسَهُ صَوْبَ رَجُلٍ طَويلِ ٱلقامَةِ يَقِفُ خَلْفَهُ وَسَأَلَهُ :
« هَلْ نَقْتُلُهُمْ يا أَبي ؟ »

الفَصْلُ ٱلثّامِنُ
سُكّانُ ٱلصُّخورِ

سَأَلَ حامِلُ ٱلرُّمْحِ والِدَهُ قائِلًا : « هَلْ نَقْتُلُهُمْ يا أَبي ؟ »

فَأَجابَهُ : « مَنْ هُمْ ؟ »

فَقالَ : « إِنَّهُمْ ثَلاثَةٌ مِنَ ٱلبيضِ يُرافِقُهُمْ شَخْصٌ أَسْوَدُ ٱلبَشَرَةِ . »

فَقالَ ٱلرَّجُلُ ٱلطَّويلُ : « لا تَقْتُلْهُمْ ، فَإِنَّ « شي ٱلَّتي يَجِبُ أَنْ
تُطاعَ » تَكَلَّمَتْ مَعي وَقالَتْ : ' إِذا جاءَ أُناسٌ مِنَ ٱلبيضِ هُنا
فَلا تَقْتُلْهُمْ ، بَلْ أَحْضِرْهُمْ إِلَيَّ وَأَحْضِرْ مَعَهُمْ كُلَّ ما يَحْمِلونَهُ . ' »

فَقالَ لَنا حامِلُ ٱلرُّمْحِ : « هَيّا ! »

وَجَذَبَنا خارِجَ ٱلقارِبِ إِلى ضِفَّةِ ٱلنَّهْرِ حَيْثُ كانَتْ كَوْكَبَةٌ مِنْ
خَمْسينَ رَجُلًا يَحْمِلونَ كُلُّهُمْ رِماحًا . وَكانوا طِوالَ ٱلقامَةِ بِدَرَجَةٍ
مَلْحوظَةٍ ، أَقْوِياءَ ٱلبِنْيَةِ ، ذَوي بَشَرَةٍ فاتِحَةٍ ، وَلا يَرْتَدونَ شَيْئًا سِوى
قِطَعٍ مِنْ جُلودِ ٱلأُسودِ يَلُفّونَها حَوْلَ خُصورِهِمْ .

وَصاحَ ٱلرَّجُلُ ٱلطَّويلُ : « أَحْضِروا ٱلمَحافَّ . »

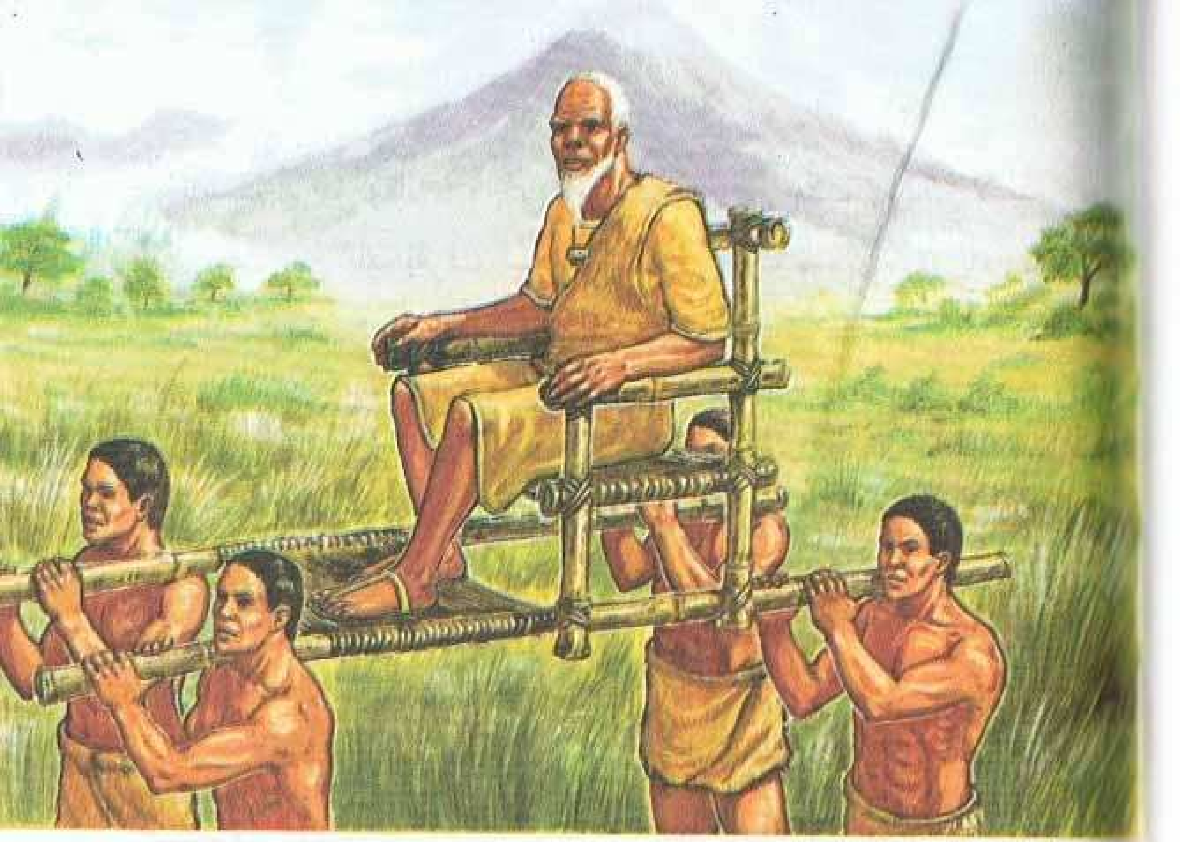
فَأَقْبَلَ عَدَدٌ مِنَ ٱلرِّجالِ يَحْمِلونَ ٱلمَحافَّ ، وَكانَ كُلُّ أَرْبَعَةِ رِجالٍ يَحْمِلونَ مِحَفَّةً ، وَمَعَهُمْ رَجُلانِ آخَرانِ لِيَتَبادَلا ٱلعَمَلَ مَعَ ٱلآخَرينَ كُلٌّ في دَوْرِهِ .

فَقالَ لِيو : « حَسَنٌ ، إِنَّهُ لَشَيْءٌ جَميلٌ أَنْ نَجِدَ مَنْ يَقومونَ بِحَمْلِنا بَعْدَ أَنْ حَمَلْنا أَنْفُسَنا مَسافَةً طَويلَةً . »

وَكانَ لِيو لا يَرى مِنَ ٱلأُمورِ سِوى جانِبِها ٱلمُشْرِقِ ٱلمُتَفائِلِ . وَما إِنْ جَلَسْنا عَلى تِلْكَ ٱلمَحافِّ حَتّى تَحَرَّكَ بِنا ٱلحَمّالونَ ، وَساروا بِنا وَهُمْ يُغَنّونَ ؛ وَسَرْعانَ ما غَلَبَني ٱلنَّوْمُ بِتَأْثيرِ ٱلحَرَكَةِ وَٱلغِناءِ .

وَعِنْدَما ٱسْتَيْقَظْتُ كانَتِ ٱلشَّمْسُ عَمودِيَّةً في ٱلسَّماءِ ، وَكُنّا لا نَزالُ نَسيرُ بِسُرْعَةِ سِتَّةِ كيلومِتْراتٍ في ٱلسّاعَةِ . وَكُنّا قَدْ عَبَرْنا مِنْطَقَةَ ٱلأَراضي ٱلواطِئَةِ إِلى سَهْلٍ مُعْشِبٍ يَمْتَدُّ نَحْوَ تَلٍّ بَعيدٍ .

وَتَطَلَّعْتُ إِلى ٱلرِّجالِ ٱلَّذينَ كانوا يَحْمِلونَنا فَوَجَدْتُهُمْ عَلى جانِبٍ مِنَ ٱلوَسامَةِ وَجَمالِ ٱلمَلامِحِ ، وَلٰكِنَّ ٱلشَّرَّ كانَ يَمْلَأُ وُجوهَهُمْ . وَلَمْ يَضْحَكوا ، بَلْ لَمْ يَبْتَسِموا قَطُّ . كانوا يُغَنّونَ في بَعْضِ ٱلأَحْيانِ ، وَ يَلوذونَ بِٱلصَّمْتِ في ٱلأَوْقاتِ ٱلَّتي لا يُغَنّونَ فيها ، وَلِسَبَبٍ ما وَجَدْتُ أَنَّ مَظْهَرَهُمُ ٱلعامَّ يَمْلَأُني بِٱلخَوْفِ .



وَبَيْنَما كُنْتُ أَتَساءَلُ عَمَّنْ يَكونُ هٰؤُلاءِ ٱلقَوْمُ وَمِنْ أَيْنَ قَدِموا ، شاهَدْتُ مِحَفَّةً تُحْمَلُ عَلى مَقْرُبَةٍ مِنّي مِنَ ٱلنّاحِيَةِ ٱليُمْنى ، وَيَجلِسُ عَلَيْها رَجُلٌ مُسِنٌّ يَرْتَدي مَلابِسَ صَفْراءَ ٱللَّوْنِ تُشْبِهُ إِلى حَدٍّ ما تِلْكَ ٱلَّتي وَجَدْتُها في ٱلصُّندوقِ ٱلحَديدِيِّ ، وَٱسْتَنْتَجْتُ أَنَّ هٰذا ٱلرَّجُلَ هُوَ ٱلَّذي كانوا يُنادونَهُ يا أَبي . وَكانَ ٱلرَّجُلُ بَهِيَّ ٱلطَّلْعَةِ مُسِنًّا ، ذا لِحْيَةٍ بَيْضاءَ وَعَيْنَيْنِ تَبْرُقانِ بِبَريقِ ٱلحِكْمَةِ .

قالَ لِيَ ٱلرَّجُلُ بِصَوْتٍ خَفيضٍ عَميقٍ : « إِذًا فَقَدِ ٱسْتَيْقَظْتَ أَخيرًا أَيُّها ٱلغَريبُ . »

فَأَجَبْتُهُ بِٱللُّغَةِ ٱلعَرَبِيَّةِ وَ بِأَدَبٍ جَمٍّ : « نَعَمْ يا أَبي . صَباحُ ٱلخَيْرِ . »

فَٱبْتَسَمَ ٱلرَّجُلُ وَقالَ : « إِنَّني لا أَعْرِفُ مِنْ أَيْنَ جِئْتَ ، وَلٰكِنْ لا بُدَّ أَنَّكَ جِئْتَ مِنْ بَلَدٍ يَعْرِفُ سُكّانُهُ شَيْئًا عَنْ لُغَتِنا ، وَيَهْتَمّونَ بِآدابِ ٱلسُّلوكِ . وَلٰكِنْ لِماذا جِئْتَ إِلى هٰذا ٱلبَلَدِ ٱلَّذي لَمْ يَزُرْهُ غَريبٌ مُنْذُ زَمَنٍ طَويلٍ حَسْبَما أَتَذَكَّرُ ؟ هَلْ ضِقْتَ ذَرْعًا بِٱلحَياةِ ؟ »

فَأَجَبْتُهُ : « لَقَدْ جِئْنا بَحْثًا عَنْ أَشْياءَ جَديدَةٍ ، فَقَدْ مَلَلْنا ٱلأَشْياءَ ٱلقَديمَةَ . إِنَّنا نَنْتَمي إِلى قَوْمٍ مِنَ ٱلشُّجْعانِ ، وَلا نَرْهَبُ ٱلمَوْتَ إِذا ٱسْتَطَعْنا أَنْ نَتَعَلَّمَ شَيْئًا جَديدًا قَبْلَ أَنْ نَموتَ . »

فَقالَ ٱلرَّجُلُ ٱلمُسِنُّ : « حَسَنٌ ، قَدْ يَكونُ هٰذا صَحيحًا وَأَحْسَبُ أَنَّ « شِي ٱلَّتي يَجِبُ أَنْ تُطاعَ » سَتَكونُ قادِرَةً عَلى أَنْ تُحَقِّقَ لَكُمْ ما تَتَمَنَّوْنَهُ . »

فَسَأَلْتُ : « مَنْ تَكونُ « شِي ٱلَّتي يَجِبُ أَنْ تُطاعَ » ؟ »

فَضَحِكَ ضِحْكَةً كَريهَةً جِدًّا وَقالَ : « سَوْفَ تَعْرِفُ ذٰلِكَ قَريبًا ، إِذا رَغِبَتْ « شِي » أَنْ تَراكَ وَأَنْتَ عَلى قَيْدِ ٱلحَياةِ . »

وَعُدْتُ أَسْأَلُهُ : « ما ٱسْمُ شَعْبِكُمْ ؟ »

فَأَجابَ : « نَحْنُ شَعْبُ أَماهاجِر — سُكّانُ ٱلصُّخورِ . »

سَأَلْتُهُ : « هَلْ لي أَنْ أَسْأَلَكَ ما ٱسْمُكَ ؟ »

فَأَجابَ : « إِسْمي بِلالي . »

سَأَلْتُهُ : « أَيْنَ نَحْنُ ذاهِبونَ ٱلآنَ ؟ »

فَأَجابَ : « سَتَرى ذٰلِكَ بِنَفْسِكَ . »

وَأَمَرَ رِجالَهُ أَنْ يَتَقَدَّموا بِهِ إِلى حَيْثُ كانَ جُوب جالِسًا فَوْقَ مِحَفَّتِهِ وَقَدْ تَدَلَّتْ إِحْدى ساقَيْهِ مِنْ جانِبِ ٱلمِحَفَّةِ .

الفصل التّاسع

قاعةُ الاستراحةِ في الكهفِ

غَلَبَني النَّوْمُ مَرَّةً أُخرى ، وَعِنْدَما ٱسْتَيْقَظْتُ وَجَدْتُ أَنَّنا نَمُرُّ بَيْنَ جِدارَيْنِ صَخْرِيَّيْنِ ، ثُمَّ ٱنْعَطَفْنا يَمينًا لِأَجِدَ مَنْظَرًا جَميلًا : رَأَيْتُ وادِيًا واسِعًا يَمْتَدُّ حَوالى ثَمانِيَةِ كيلومِتْراتٍ ، تُحيطُ بِجانِبَيْهِ ٱلصُّخورُ ٱلَّتي تَنْمو فَوْقَها ٱلشُّجَيْراتُ ، أَمّا وَسَطُهُ فَقَدْ كانَ غَنِيًّا بِٱلْعُشْبِ ٱلْأَخْضَرِ ٱلْكَثيفِ ، وَٱلْأَشْجارِ ٱلباسِقَةِ ٱلْمُتَناثِرَةِ ، وَجَداوِلِ ٱلْماءِ ٱلصَّغيرَةِ .

وَشاهَدْتُ في ٱلوادي أَعْدادًا كَبيرَةً مِنَ ٱلْأَبْقارِ وَغَيْرِها مِنَ ٱلْماشِيَةِ ، وَرِجالًا يَتَجَوَّلونَ وَسْطَها ، وَلٰكِنَّني لَمْ أَرَ أَثَرًا لِأَيَّةِ مَنازِلَ بِٱلْوادي ، فَأَيْنَ يَعيشُ هٰؤُلاءِ ٱلنّاسُ ؟

اِنْعَطَفْنا يَسارًا وَواصَلْنا مَسيرَتَنا عَلى حافَةِ ٱلوادي مَسافَةَ كيلومِتْرٍ تَقْريبًا ثُمَّ تَوَقَّفْنا . وَنَزَلَ ذٰلِكَ ٱلرَّجُلُ ٱلْمُسِنُّ ٱلْمَدْعُوُّ بِلالي مِنْ مِحَفَّتِهِ فَفَعَلْتُ مِثْلَهُ ، وَشاهَدْتُ مُحَمَّدًا ٱلْمِسْكينَ مُمَدَّدًا عَلى ٱلْأَرْضِ ، إِذْ لَمْ يَكُنْ قَدْ أُعْطِيَ مِحَفَّةً ، بَلْ أُكْرِهَ عَلى ٱلعَدْوِ طَوالَ هٰذِهِ ٱلْمَسافَةِ .

كُنّا قَدْ تَوَقَّفْنا عِنْدَ مَكانٍ مُنْبَسِطٍ أَمامَ مَدْخَلِ كَهْفٍ ، وَكانَتْ كُلُّ

مُحْتَوَياتِ ٱلقارِبِ قَدْ نُقِلَتْ إِلى داخِلِهِ . وَوَقَفَ هُناكَ ٱلرِّجالُ ٱلَّذينَ تَوَلَّوْا حَمْلَنا وَمَعَهُمْ آخَرونَ مِنَ ٱلرِّجالِ عَلى شاكِلَتِهِمْ . وَكانَ هُناكَ أَيْضًا عَدَدٌ مِنَ ٱلنِّساءِ ، وَلَمْ يَكُنَّ يَلْبَسْنَ جُلودَ ٱلْأُسودِ كَٱلرِّجالِ ، بَلْ كُنَّ يَرْتَدينَ جُلودَ ظِباءِ ٱلْماءِ ، وَكانَ بَعْضُهُنَّ يَلْبَسْنَ قُماشًا أَصْفَرَ ٱللَّوْنِ ، مِثْلَ ٱلْقُماشِ ٱلَّذي وَجَدْتُهُ في ٱلصُّنْدوقِ ٱلحَديدِيِّ . وَتَبَيَّنْتُ فيما بَعْدُ أَنَّ لِهٰذا ٱلْقُماشِ ٱلْأَصْفَرِ دَلالَةً عَلى ٱلْمَكانَةِ .

وَعِنْدَما نَزَلَ لِيو مِنْ مِحَفَّتِهِ أَبْدى ٱلنّاسُ ٱهْتِمامًا مَلْحوظًا بِهِ ، وَخُصوصًا عِنْدَما خَلَعَ مِعْطَفَهُ وَرَأَوْا شَعْرَهُ ٱلْأَصْفَرَ .

وَكانَتْ تَقِفُ وَسْطَ هٰذِهِ ٱلْجَمْهَرَةِ مِنَ ٱلنّاسِ سَيِّدَةٌ فائِقَةُ ٱلْحُسْنِ



تَرْتَدي مَلابِسَ صَفْراءَ وَلَها بَشَرَةٌ قَمْحِيَّةٌ وَشَعْرٌ بُنِّيٌّ . وَتَفَحَّصَتْ تِلْكَ ٱلسَّيِّدَةُ لِيُو مِنْ قِمَّةِ رَأْسِهِ إلى أَخْمَصِ قَدَمَيْهِ ، ثُمَّ تَقَدَّمَتْ نَحْوَهُ وَطَوَّقَتْ عُنُقَهُ بِذِراعِها وَقَبَّلَتْ يَدَهُ . وَتَوَقَّعْتُ أَنْ يَنْدَفِعَ ٱلرِّجالُ نَحْوَ لِيُو وَيَطْعَنوهُ بِرِماحِهِمْ . وَقالَ جُوب : « يا لَها مِنِ ٱمْرَأَةٍ جَسورٍ لا تَسْتَحي ! »

بَدَتِ ٱلدَّهْشَةُ عَلى لِيُو لِما حَدَثَ ، وَظَنَّ أَنَّها إِحْدى ٱلعاداتِ ٱلغَريبَةِ في ذٰلِكَ ٱلبَلَدِ ؛ لِذا فَإِنَّهُ رَدَّ ٱلتَّحِيَّةَ . وَمَرَّةً أُخْرى تَوَقَّعْتُ حُدوثَ شَيْءٍ ، وَلٰكِنْ ما حَدَثَ هُوَ أَنَّ ٱلشّابّاتِ تَمَلَّكَهُنَّ شُعورٌ بِٱلغَضَبِ ، أَمّا ٱلعَجائِزُ فَٱبْتَسَمْنَ . وَعَرَفْتُ بَعْدَ ذٰلِكَ مَغْزى ذٰلِكَ كُلِّهِ : فَثَمَّةَ نَوْعٌ مِنَ ٱلمُساواةِ بَيْنَ ٱلرَّجُلِ وَٱلمَرْأَةِ عِنْدَ شَعْبِ ٱلأماهاجر . فَٱلنِّساءُ يَخْتَرْنَ أَزْواجَهُنَّ بِتَحِيَّتِهِمْ بِهٰذِهِ ٱلطَّريقَةِ ٱلَّتي إذا ما رَدَّ بِمِثْلِها ٱلرَّجُلُ فُهِمَتْ موافَقَتُهُ عَلى ٱلزَّواجِ .

كانَتْ تِلْكَ ٱلفَتاةُ ٱلصَّغيرَةُ تُدْعى أُوسْتان ، وَبِهٰذا تَكونُ أُوسْتان قَدِ ٱخْتارَتْ لِيُو زَوْجًا لَها ، كَما أَنَّ لِيُو ــ كَما بَدا لَها ــ قَدْ وافَقَ عَلى ذٰلِكَ .

شاهَدْتُ ٱمْرَأَةً تَجاوَزَتْ مَرْحَلَةَ ٱلشَّبابِ تَتَقَدَّمُ نَحْوَ جُوب ، ٱلَّذي بَدا خائِفًا جِدًّا ، وَلٰكِنْ في تِلْكَ ٱللَّحْظَةِ أَقْبَلَ بِلالِي وَقادَنا إلى داخِلِ ٱلكَهْفِ . وَكانَتْ مِساحَتُهُ تُقَدَّرُ بِحَوالى ثَلاثينَ مِتْرًا طولًا ، وَخَمْسَةَ عَشَرَ مِتْرًا عَرْضًا ، وَتَتَفَرَّعُ مِنْهُ مَمَرّاتٌ عَديدَةٌ . وَكانَ مِنَ ٱلواضِحِ

أَنَّ هٰذا ٱلكَهْفَ لَيْسَ مِنْ صُنْعِ ٱلطَّبيعَةِ بَلْ مِنْ صُنْعِ ٱلإِنْسانِ وَلَوْ بِصورَةٍ جُزْئِيَّةٍ .

وَكانَتْ هُناكَ نارٌ موقَدَةٌ في وَسَطِ ٱلكَهْفِ ، تُلْقي بِظِلالِها عَلى جُدْرانِ ٱلكَهْفِ وَسَقْفِهِ . وَقادَنا بِلالِي إلى ٱلنّارِ ، وَأَجْلَسَنا عَلى فِراشٍ مِنَ ٱلجُلودِ أُعِدَّ لَنا ، ثُمَّ أَقْبَلَتْ بَعْضُ ٱلفَتَياتِ يَحْمِلْنَ لَنا طَعامًا مُكَوَّنًا مِنَ ٱللَّحْمِ وَٱلذُّرَةِ ٱلمَسْلوقَةِ وَٱللَّبَنِ ، وَكُنّا جائِعينَ لِلْغايَةِ .

وَبَعْدَ أَنْ فَرَغْنا مِنْ طَعامِنا ، وَقَفَ بِلالِي وَقالَ : « إِنَّ هٰذا شَيْءٌ رائِعٌ ؛ فَلَمْ يَسْبِقْ أَنْ قَدِمَ رَجُلٌ أَبْيَضُ إلى هٰذِهِ ٱلبِلادِ . وَحَتّى ٱلقَليلُ مِنَ ٱلرِّجالِ ٱلبيضِ ٱلَّذينَ قَدِموا قَدْ لَقوا مَصْرَعَهُمْ . عِنْدَما شوهِدْتُمْ تَجْذِبونَ ٱلقارِبَ عَبْرَ ٱلمَمَرِّ ٱلمائِيِّ ٱلقَديمِ ، أَصْدَرْتُ أَوامِري بِقَتْلِكُمْ ، وَلٰكِنَّني تَلَقَّيْتُ عِنْدَئِذٍ رِسالَةً مِنْ « شِي » . »

سَأَلْتُ : « « شِي » ؟! »

أَجابَ : « إِنَّ ٱسْمَها ٱلكامِلَ هُوَ « شِي ٱلَّتي يَجِبُ أَنْ تُطاعَ » ، وَلٰكِنْ لِلِاخْتِصارِ نُطْلِقُ عَلَيْها ٱسْمَ « شِي » . يَجِبُ أَنْ أَذْهَبَ ٱلآنَ إِلَيْها لِأَقِفَ عَلى أَوامِرِها ٱلتّالِيَةِ . »

سَأَلْتُهُ : « كَمْ سَيَطولُ غِيابُكَ ؟ »

أَجابَ « سَأَعودُ في ٱلْيَوْمِ ٱلخامِسِ . »

قُلْتُ : « إذًا فَهِيَ تَسْكُنُ عَلى بُعْدِ مَسيرَةِ يَوْمَيْنِ مِنْ هُنا ؛ فَكَيْفَ عَرَفَتْ بِوُصولِنا ؟ »

اِبْتَسَمَ بِلالِي ، وَتَطَلَّعَ حَوْلَهُ لِيَتَأَكَّدَ مِنْ أَنَّهُ لا يوجَدُ أَحَدٌ بِٱلقُرْبِ مِنّا . ثُمَّ قالَ بِهُدوءٍ :

« أَلا يوجَدُ في بَلَدِكُمْ مَنْ يَرى بِدونِ عَيْنَيْنِ أَوْ يَسْمَعُ بِدونِ أُذُنَيْنِ ؟ لا تَسْأَلْ أَيَّةَ أَسْئِلَةٍ ؛ « شِي » عَرَفَتْ . »

ثُمَّ واصَلَ حَديثَهُ قائِلًا : « سَوْفَ أَعودُ في ٱلْيَوْمِ ٱلْخامِسِ ، وَسَيَكونُ كُلُّ شَيْءٍ مُعَدًّا لِراحَتِكُمْ أَثْناءَ غِيابي ، وَأَتَمَنّى أَنْ تَكونَ مَشاعِرُ « شِي » نَحْوَكُمْ طَيِّبَةً ، وَسَوْفَ أَتَكَلَّمُ بِما فيهِ صالِحُكُمْ ؛ لِأَنَّني أُحِبُّكُمْ . وَلٰكِنَّني لا أَسْتَطيعُ أَنْ أُعْطِيَكُمْ إِلّا بَصيصًا مِنْ أَمَلٍ ؛ فَكُلُّ غَريبٍ وَصَلَ إِلى هٰذِهِ ٱلْبِلادِ أَثْناءَ حَياتي وَحَياةِ أُمّي وَجَدَّتي وَجَدَّةِ أُمّي قُتِلَ ؛ وَقَدْ قُتِلَ جَميعُ ٱلْغُرَباءِ بِطَريقَةٍ بَشِعَةٍ لا أَسْتَطيعُ أَنْ أَصِفَها لَكُمْ . وَكانَتْ « شِي » تَأْمُرُ دائِمًا بِقَتْلِهِمْ ، أَوْ عَلى ٱلأَقَلِّ تَسْمَحُ بِقَتْلِهِمْ . »

قُلْتُ لَهُ : « أَنا لا أَفْهَمُ ذٰلِكَ . إِنَّكَ رَجُلٌ مُسِنٌّ ، فَكَيْفَ تَأَتّى لِـ « شِي » أَنْ تُصْدِرَ ٱلأَوامِرَ بِقَتْلِ أَحَدٍ أَثْناءَ حَياةِ جَدَّةِ أُمِّكَ ؟ فَهِيَ لَمْ تَكُنْ قَدْ وُلِدَتْ آنَذاكَ ! »

اِبْتَسَمَ بِلالِي مَرَّةً أُخْرى ، وَٱنْصَرَفَ دونَ أَنْ يُجيبَ عَنْ سُؤالي .

الفَصْلُ ٱلعاشِرُ

الأَيّامُ ٱلأَرْبَعَةُ ٱلأولى

تَوَلّى أُمورَنا رَجُلٌ بالِغُ ٱلدَّمامَةِ في حَوالى ٱلأَرْبَعينَ مِنْ عُمْرِهِ . وَلَمّا أَبْلَغْتُهُ بِرَغْبَتِنا في ٱلِاسْتِحْمامِ قادَنا إِلى مَجْرًى مائِيٍّ ، حَيْثُ ٱسْتَحْمَمْنا . وَعُدْنا بَعْدَ غُروبِ ٱلشَّمْسِ ، وَوَجَدْنا ٱلكَهْفَ مُمْتَلِئًا بِرِجالٍ وَنِساءٍ جَلَسوا حَوْلَ نارٍ مُشْتَعِلَةٍ يَتَناوَلونَ عَشاءَهُمْ .

كانوا يَتَناوَلونَ طَعامَهُمْ في صَمْتٍ بالِغٍ ، فَجَلَسْنا نَرْقُبُهُمْ بَعْضَ ٱلوَقْتِ . وَلَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ ٱلمَشْهَدُ شائِقًا ، فَقُلْتُ لِلرَّجُلِ ٱلقائِمِ عَلى حِراسَتِنا إِنَّهُ مِنَ ٱلأَفْضَلِ لَنا أَنْ نَخْلُدَ إِلى ٱلنَّوْمِ .

وَبِدونِ أَنْ يَنْطِقَ ٱلرَّجُلُ بِكَلِمَةٍ حَمَلَ مِصْباحًا ، وَقادَني عَبْرَ أَحَدِ ٱلمَمَرّاتِ ٱلصَّغيرَةِ ٱلَّتي تَتَفَرَّعُ مِنَ ٱلكَهْفِ ، فَسِرْنا فيهِ بِضْعَ خُطُواتٍ ، وَٱنْتَهى بِنا إِلى حُجْرَةٍ صَغيرَةٍ . وَكانَ في أَحَدِ جَوانِبِ ٱلحُجْرَةِ رَفٌّ حَجَرِيٌّ طولُهُ مِتْرٌ ، وَعَرْضُهُ نِصْفُ مِتْرٍ ، وَأَشارَ إِلَيَّ بِأَنْ أَنامَ عَلَيْهِ . وَلَمْ يَكُنْ بِٱلحُجْرَةِ نَوافِذُ أَوْ فُتُحاتٌ لِلتَّهْوِيَةِ ، أَوْ مَقاعِدُ ، أَوْ أَيُّ

شَيْءٍ . وَخُيِّلَ لِي أَنَّ ٱلْحُجْرَةَ أُعِدَّتْ لِتَكونَ مَكانًا لِراحَةِ ٱلْمَوْتى ، وَلَيْسَ مَكانًا لِنَوْمِ ٱلْأَحْياءِ ، وَقَدْ تَبَيَّنَ صِدْقُ حَدْسي بَعْدَ ذٰلِكَ . وَلٰكِنْ كانَ عَلَيَّ أَنْ أَجِدَ مَكانًا لِأَنامَ فيهِ ؛ لِذا عَبَرْتُ إِلى ٱلْكَهْفِ لِأُحْضِرَ حَقيبَةَ أَشْيائي . وَفي ٱلْكَهْفِ رَأَيْتُ جُوب ، وَكانوا قَدِ ٱقْتادوهُ إِلى حُجْرَةٍ مُماثِلَةٍ .

قالَ لي : « إِنَّ ٱلْحُجْرَةَ لَيْسَتْ سِوى قَبْرٍ يا سَيِّدي ، وَلا أَسْتَطيعُ أَنْ أَنامَ فيها وَحْدي . هَلْ لي أَنْ أُرافِقَكَ يا سَيِّدي ؟ »

وَفي ٱلصَّباحِ سَمِعْنا صَوْتَ دَقّاتِ طُبولٍ ، فَنَهَضْنا ، وَتَوَجَّهْنا إِلى ٱلْمَجْرى ٱلْمائِيِّ حَيْثُ ٱغْتَسَلْنا ، ثُمَّ قُدِّمَ لَنا طَعامُ ٱلْإِفْطارِ . وَبَيْنَما كُنّا نَتَناوَلُ إِفْطارَنا أَقْبَلَتِ ٱمْرَأَةٌ وَحاوَلَتْ أَنْ تُقَبِّلَ جُوب ، وَلٰكِنَّ جُوب غَضِبَ غَضَبًا شَديدًا وَصاحَ فيها قائِلًا :

« اِبْتَعِدي عَنّي ! اِبْتَعِدي عَنّي ! صَدِّقْني يا سَيِّدي ، لَمْ أَرَ هٰذِهِ ٱلْمَرْأَةَ مِنْ قَبْلُ . ها هِيَ ذي تَعودُ إِلَيَّ ! أَبْعِدْها يا سَيِّدُ هُولي ! » ثُمَّ ٱسْتَدارَ وَوَلّى هارِبًا .

رَأَيْتُ بَعْضَ رِجالِ ٱلْأَماهاجِر يَضْحَكونَ ، وَلٰكِنَّ ٱلْمَرْأَةَ وَقَفَتْ تَرْتَجِفُ مِنَ ٱلْغَضَبِ . وَتَمَنَّيْتُ في تِلْكَ ٱللَّحْظَةِ لَوْ كانَ جُوب أَقَلَّ حِرْصًا عَلى سُمْعَتِهِ ، وَأَكْثَرَ حِرْصًا عَلى مَشاعِرِ تِلْكَ ٱلسَّيِّدَةِ ؛ إِذْ خَشيتُ أَنْ يُعَرِّضَ هٰذا ٱلتَّصَرُّفُ حَياتَنا لِلْخَطَرِ ، وَهٰذا ما حَدَثَ بِٱلْفِعْلِ .

شَرَحْتُ لِلرِّجالِ ٱلْمَوْقِفَ ، فَقُلْتُ : « إِنَّ هٰذا ٱلرَّجُلَ مُتَزَوِّجٌ بِسَيِّدَةٍ فَظيعَةٍ ، أُحالَتْ حَياتَهُ جَحيمًا ؛ وَلِهٰذا يَخْشى كُلَّ ٱلنِّساءِ . »

اِسْتَمَعَ ٱلرِّجالُ في صَمْتٍ ، وَكانَ مِنَ ٱلْجَلِيِّ أَنَّ تَصَرُّفَ جُوب مَعَ تِلْكَ ٱلْمَرْأَةِ مَسَّ كِبْرِياءَهُمْ وَأَغْضَبَهُمْ .

وَبَعْدَ أَنْ تَناوَلْنا طَعامَ ٱلْإِفْطارِ — أَخَذْنا نَرْقُبُ بَعْضَ هٰؤُلاءِ ٱلْقَوْمِ وَهُمْ يَعْمَلونَ في ٱلْحُقولِ ، وَقَدْ صَحِبَتْنا أُوسْتان . وَجَلَسْنا بِجِوارِ مَجْرًى مائِيٍّ صَغيرٍ ، وَوَجَّهْتُ لِأُوسْتان بَعْضَ ٱلتَّساؤُلاتِ عَنْ قَوْمِها :

سَأَلْتُها : « مِنْ أَيْنَ يَنْحَدِرُ قَوْمُكُمْ ؟ »

أَجابَتْ : « لا أَعْرِفُ ، وَلٰكِنَّ ثَمَّةَ ٱلْكَثيرَ مِنْ آثارِ مَدينَةٍ قَديمَةٍ قُرْبَ ٱلْمَكانِ ٱلَّذي تَعيشُ فيه « شِي » ؛ وَتُسَمّى تِلْكَ ٱلْمَدينَةُ خُور . وَلا يَجْرُؤُ أَحَدٌ عَلى ٱلِاقْتِرابِ مِنْ تِلْكَ ٱلْآثارِ ؛ إِذْ تَسْكُنُها أَرْواحُ ٱلْمَوْتى . وَثَمَّةَ آثارٌ أُخْرى في أَنْحاءٍ مُتَفَرِّقَةٍ مِنَ ٱلْبِلادِ في ٱلْمَناطِقِ ٱلَّتي يَرْتَفِعُ فيها مُسْتَوى ٱلْأَرْضِ . وَهُناكَ أَيْضًا بَعْضُ ٱلْكُهوفِ ٱلَّتي نَحَتَها فِي ٱلصَّخْرِ سُكّانُ ٱلْمُدُنِ . »

سَأَلْتُها : « هَلْ لَدَيْكُمْ قَوانينُ ؟ »

أَجابَتْ : « توجَدُ تَقاليدُ قَوْمِنا ، وَمَنْ يَرْتَكِبْ جُرْمًا يُعْدَمْ . »

سَأَلْتُها : « كَيْفَ تُعْدِمونَهُ ؟ »

ابْتَسَمَتْ وَقالَتْ : « قَدْ تَرى ذٰلِكَ بِنَفْسِكَ قَريبًا . »

سَأَلْتُ : « هَلْ لَكُمْ حاكِمٌ ؟ » .

أَجابَتْ : « نَعَمْ ، « شِي » مَلِكَتُنا . وَلا نَراها إِلّا نادِرًا ... مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ في العامِ عِنْدَما تُصْدِرُ حُكْمَها بِإِعْدامِ أَحَدٍ . »

قُلْتُ : « صِفي لي شَكْلَها . »

قالَتْ : « لا أَعْرِفُ ، فَهِيَ دائِمًا مُقَنَّعَةٌ حَتّى لا يَرى وَجْهَها أَحَدٌ . وَيُقالُ إِنَّها جَميلَةٌ لِلْغايَةِ ، وَإِنَّها تَعيشُ إِلى ٱلأَبَدِ ، وَلَها سُلْطانٌ عَلى كُلِّ شَيْءٍ . »

وَهٰكَذا مَرَّتْ أَرْبَعَةُ أَيّامٍ بِدونِ أَنْ يَحْدُثَ شَيْءٌ يُذْكَرُ . وَكُنّا خِلالَ هٰذِهِ ٱلفَتْرَةِ نَتَمَشّى ، وَنَسْأَلُ أوسْتان وَغَيْرَها ٱلعَديدَ مِنَ ٱلأَسْئِلَةِ ، وَتَكَوَّنَتْ لَدَيْنا صورَةٌ واضِحَةٌ عَنْ هٰؤُلاءِ ٱلقَوْمِ ٱلَّذينَ لَمْ يَزُرْهُمْ غَريبٌ مُنْذُ مِئاتِ ٱلسِّنينَ . لَقَدْ خُيِّلَ لي أَنَّ تِلْكَ ٱلبِلادَ قَدْ عُزِلَتْ عَنِ ٱلعالَمِ ٱلخارِجِيِّ تَمامًا ؛ فَلَمْ يَتَمَكَّنْ أَحَدٌ مِنْ أَنْ يَجْتازَ تِلْكَ ٱلأَراضِيَ ٱلواطِئَةَ ما لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ طَريقَهُ خِلالَها ، وَكُلُّ مَنْ حاوَلَ ذٰلِكَ لَقِيَ حَتْفَهُ مُصابًا بِٱلمَلارْيا ، أَوْ جوعًا أَوْ غَرَقًا . لَقَدْ سُرَّ لِيو أَنْ يَرى جانِبًا مِنَ ٱلقِصَّةِ حَقيقِيًّا . وَلٰكِنَّ جوب تَمَلَّكَتْهُ ٱلحَيْرَةُ ، وَلَمْ يَعُدْ يَدْري ماذا يُصَدِّقُ ، وَلَمْ يَكُنْ أَمامَهُ سِوى أَنْ يَتَعَجَّبَ مِنْ كُلِّ ما يَراهُ . أَمّا مُحَمَّدٌ

ٱلعَرَبِيُّ فَقَدِ ٱشْتَدَّ بِهِ ٱلخَوْفُ . وَكانَ شَعْبُ ٱلأَماهاجِر يُعامِلُهُ مُعامَلَةً لَطيفَةً يَشوبُها فُتورٌ ، وَقَدْ تَعَجَّبْتُ مِنْ مَخاوِفِهِ ٱلَّتي لَمْ أَجِدْ لَها مُبَرِّرًا ، وَلٰكِنَّهُ قالَ لي : « هٰؤُلاءِ ٱلقَوْمُ شَياطينُ . » وَكانَ هٰذا رَدَّهُ ٱلوَحيدَ .

وَوَقَعَ في ٱللَّيْلَةِ ٱلرّابِعَةِ حادِثٌ .

الفَصْلُ الحادِي عَشَر
مَعْرَكةُ الكَهْف

كُنّا ، في اللَّيْلَةِ الرّابِعَةِ ، نَجْلِسُ نَحْنُ الثَّلاثَةُ وَأُوسْتان حَوْلَ النّارِ ، عِنْدَما شَرَعَتْ أُوسْتان تُغَنّي بِصَوْتٍ خَفيضٍ . وَلَمْ أَفْهَمْ كُلَّ كَلِماتِ الأُغْنِيَةِ ، وَيَبْدو أَنَّها كانَتْ إِحْدى أَغاني الحُبِّ . وَأَحْسَسْتُ بِرَعْشَةِ خَوْفٍ في صَوْتِها وَهِيَ تُغَنّي ، وَفَجْأَةً تَوَقَّفَتْ عَنِ الغِناءِ . وَثَبَّتَتْ عَيْنَيْها عَلى شَيْءٍ في الظَّلامِ ، وَمَدَّتْ يَدَها تُشيرُ إِلَيْهِ . وَلٰكِنَّنا لَمْ نَرَ شَيْئًا .

سَأَلَها لِيُو : « ماذا بِكِ يا أُوسْتان ؟ »

أَطْلَقَتْ ضِحْكَةً مُفْتَعَلَةً ، وَقالَتْ : « لا شَيْءَ ! يَنْبَغي عَلَيَّ أَلّا أُثيرَ مَخاوِفَكَ . وَلا أُريدُ مِنْكَ سِوى أَنْ تَتَذَكَّرَني بَيْنَ الحينِ وَالآخَرِ عِنْدَما أَموتُ . »

وَجاءَنا في صَباحِ اليَوْمِ التّالي حارِسُنا ، وَأَبْلَغَني أَنَّ حَفْلًا سَيُقامُ عَلى شَرَفِنا . وَعِنْدَما سَمِعَتْ أُوسْتان ذٰلِكَ ارْتَسَمَتْ عَلى وَجْهِها

عَلاماتُ الذُّعْرِ ، وَأَمْسَكَتْ ذِراعَ الرَّجُلِ وَتَحَدَّثَتْ إِلَيْهِ ، وَلٰكِنَّهُ رَدَّ عَلَيْها بِجَفاءٍ . وَبَدا واضِحًا أَنَّها لَمْ تَكُنْ سَعيدَةً بِما سَمِعَتْ . وَحاوَلْتُ التَّخَلُّصَ مِنَ الذَّهابِ إِلى ذٰلِكَ الحَفْلِ فَقُلْتُ : « نَحْنُ قَوْمٌ نَنْشُدُ الهُدوءَ وَلا نُحِبُّ الاِحْتِفالاتِ . » وَلٰكِنَّ إِجابَتي لَمْ تَلْقَ سِوى الصَّمْتِ .

وَقَبْلَ الغُروبِ مُباشَرَةً أُبْلِغْتُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ قَدْ أُعِدَّ : كانَتِ النّارُ قَدْ أُشْعِلَتْ في قَلْبِ الكَهْفِ ، وَجَلَسَ حَوْلَها خَمْسَةٌ وَثَلاثونَ رَجُلًا وَامْرَأَتانِ ، هُما أُوسْتان وَالمَرْأَةُ الَّتي سَعَتْ إِلى جُوب ، وَكانَ مُحَمَّدٌ بَيْنَ الرِّجالِ أَيْضًا .

قالَ جُوب : « أُنْظُرْ ! ها هِيَ ذي المَرْأَةُ الَّتي تُريدُني تَتَكَلَّمُ مَعَ مُحَمَّدٍ . إِنَّني مَسْرورٌ أَنَّها لا تَتَكَلَّمُ مَعي . »

نَهَضَتِ المَرْأَةُ واقِفَةً ، وَاقْتادَتْ مُحَمَّدًا بَعيدًا عَنِ الرُّكْنِ الَّذي كانَ يَجْلِسُ فيهِ ، وَكانَ الرُّعْبُ بادِيًا عَلَيْهِ .

قُلْتُ : « هٰذا المَشْهَدُ لا يُعْجِبُني . هَلْ تَحْمِلُ مُسَدَّسَكَ يا جُوب ؟ »

كانَ جُوب يَحْمِلُ مُسَدَّسَهُ ، وَكانَ مَعي مُسَدَّسي أَيْضًا ، أَمّا لِيُو فَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ سِوى سِكّينٍ .

كانَ الرِّجالُ يَجْلِسونَ في صَمْتٍ تامٍّ يُمَرِّرونَ إِبْريقًا فيما بَيْنَهُمْ . وَلَمْ

يَكُنْ بِالْمَكانِ أَيُّ أَثَرٍ لِطَعامٍ ، وَإِنَّما قِدْرٌ حَديدِيَّةٌ كَبيرَةٌ وُضِعَتْ عَلى ٱلنّارِ وَقَضيبانِ كَبيرانِ أُعِدّا لِرَفْعِها .

وَبَعْدَ فَتْرَةٍ بَدَأُوا في ٱلْغِناءِ .

غَنّى ٱلْقائِدُ : « أَيْنَ ٱللَّحْمُ ٱلَّذي سَنَأْكُلُهُ ؟ »

رَدَّدَ ٱلآخَرونَ : « سَيَصِلُ ٱلطَّعامُ ! »

تابَعَ ٱلْقائِدُ : « كَيْفَ سَيَأْتي ٱللَّحْمُ ؟ »

رَدَّدَ ٱلآخَرونَ : « سَنَذْبَحُ ٱلْفَريسَةَ ! »

« هَلِ ٱللَّحْمُ مُعَدٌّ لِلطَّهْيِ ؟ »

« إِنَّهُ مُعَدٌّ ! إِنَّهُ مُعَدٌّ ! »

« هَلْ حَمَتِ ٱلْقِدْرُ لِنَطْهُوَ ٱللَّحْمَ ؟ »

« لَقَدْ حَمَتْ ! لَقَدْ حَمَتْ ! »

قالَ لِيُو : « اِسْمَعْ يا هُولي ، تَذَكَّرِ ٱلْكِتابَةَ ٱلَّتي كانَتْ عَلى ٱلصُّنْدوقِ . لَقَدْ ذُكِرَ فيها : « وَٱلْقَوْمُ ٱلَّذينَ يَضَعونَ ٱلْقُدورَ عَلى رُؤُوسِ ٱلْغُرَباءِ » . »

وَما إِنْ أَتَمَّ عِبارَتَهُ حَتّى قَفَزَ رَجُلانِ وَأَبْعَدا ٱلْقِدْرَ عَنِ ٱلنّارِ . وفي



ٱللَّحْظَةِ نَفْسِها أَخْرَجَتِ ٱلْمَرْأَةُ ، ٱلَّتي كانَتْ تَجْلِسُ إِلى جِوارِ مُحَمَّدٍ ، حَبْلًا مِنْ بَيْنِ طَيّاتِ مَلابِسِها وَوَضَعَتْهُ فَوْقَ كَتِفَيْهِ ، وَحَمَلَ ٱلرَّجُلانِ ٱلْقِدْرَ إِلى ٱلْمَكانِ ٱلَّذي كانَ مُحَمَّدٌ يُناضِلُ فيه . وَكانا يَقْصِدانِ وَضْعَ ٱلْقِدْرِ ٱلْمُحَمّاةِ إِلى دَرَجَةِ ٱلإِحْمِرارِ فَوْقَ رَأْسِهِ . وَكانَتِ ٱلْمَرْأَةُ قَدْ دَبَّرَتْ هٰذا ٱنْتِقامًا مِنْ جُوب لِما فَعَلَهُ بِها .

هَبَبْتُ واقِفًا وَأَطْلَقْتُ ٱلنّارَ عَلى تِلْكَ ٱلْمَرْأَةِ ٱلشِّرّيرَةِ ٱلَّتي كانَتْ تُطَوِّقُ مُحَمَّدًا بِذِراعَيْها ، فَخَرَّتْ صَريعَةً ، وَقَفَزَ مُحَمَّدٌ في ٱلْهَواءِ ، وَخَرَّ هُوَ أَيْضًا صَريعًا ؛ فَقَدِ ٱخْتَرَقَتِ ٱلرَّصاصَةُ — ٱلَّتي أَطْلَقْتُها مِنْ مَسافَةٍ قَريبَةٍ — جَسَدَيْهِما .

وَكانَ يَقِفُ رَجُلٌ على مَقْرَبَةٍ مِنّا يُمْسِكُ رُمْحَهُ .

صِحْتُ بِزَميلَيَّ أَنْ يَقْفِزا . وَكانَ حَشْدٌ مِنَ ٱلرِّجالِ يَسُدُّ مَدْخَلَ ٱلكَهْفِ ؛ لِذا أَخَذْتُ أَعْدو في ٱلكَهْفِ . وَقَدْ شَعَرْتُ بِحَرارَةِ ٱلقِدْرِ تَلْفَحُ رِجْلي عِنْدَما قَفَزْتُ فَوْقَ جُثَّةِ مُحَمَّدٍ . وَكانَ في نِهايَةِ ٱلكَهْفِ رَفٌّ صَخْرِيٌّ يَبْلُغُ ٱرْتِفاعُهُ نِصْفَ مِتْرٍ ، وَعَرْضُهُ مِتْرًا ، فَقَفَزْنا نَحْنُ ٱلثَّلاثَةُ فَوْقَهُ مُسْتَعِدّينَ لِلْقِتالِ حَتّى ٱلنِّهايَةِ .

تَوَقَّفَ ٱلرِّجالُ لَحْظَةً عِنْدَما رَأَوْنا نُواجِهُهُمْ . وَرَأَيْنا ظِلالَهُمُ ٱلطَّويلَةَ تَمْتَدُّ وَتَنْتَهي عِنْدَ ٱلنّارِ ، وَرَأَيْنا ٱلقِدْرَ ٱلمُحَمّاةَ تُشِعُّ بِٱلحَرارَةِ وَسْطَ ٱلظَّلامِ .

كانَ لِيو يُمْسِكُ سِكّينَهُ ٱلكَبيرَةَ بِيَدِهِ ٱليُمْنى . وَقالَ لي : « وَداعًا يا هُولي . لَيْسَ لَدَيْنا أَمَلٌ في ٱلنَّجاةِ مِنْ هٰؤُلاءِ ٱلرِّجالِ . سَوْفَ يُجْهِزونَ عَلَيْنا في بِضْعِ دَقائِقَ ، ثُمَّ يَلْتَهِمونَنا بَعْدَ ذٰلِكَ . سامِحْني لِأَنَّني قُدْتُكَ إِلى هٰذا ٱلمَصيرِ . وَداعًا يا جُوب . »

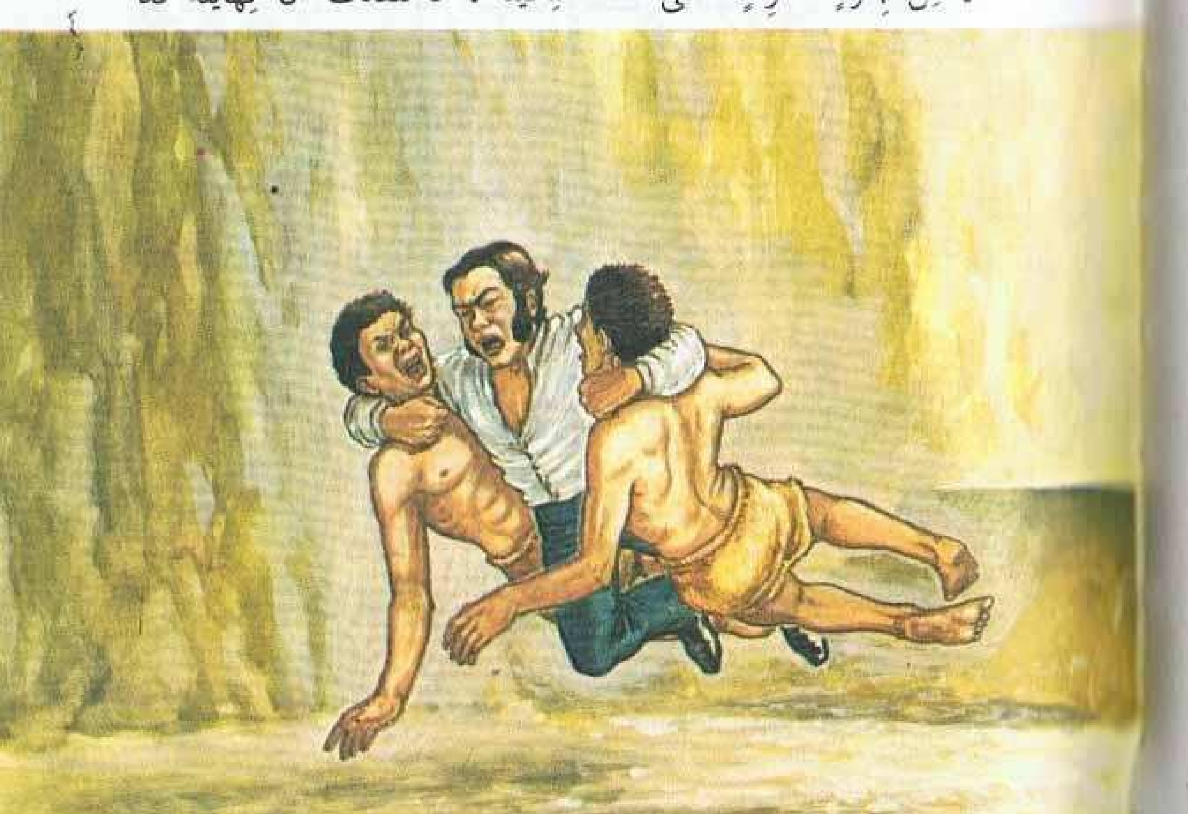
رَفَعَ جُوب مُسَدَّسَهُ وَأَطْلَقَهُ ، فَٱنْدَفَعَ نَحْوَنا حَشْدُ ٱلرِّجالِ .

وَقَفَزَ رَجُلٌ ضَخْمٌ عَلى ٱلرَّفِّ ٱلصَّخْرِيِّ فَعاجَلَهُ لِيو بِطَعْنَةٍ مِنْ سِكّينِهِ نَفَذَتْ إِلى أَعْماقِ ٱلرَّجُلِ .

وَعِنْدَما نَفِدَ رَصاصُ مُسَدَّسي ٱسْتَخْدَمْتُ سِكّيني في ٱلقِتالِ .

وَلا أَعرِفُ ماذا حَدَثَ لِجُوب ، وَأَحْسَبُ أَنَّهُ رَقَدَ ساكِنًا وَتَظاهَرَ بِٱلمَوْتِ . وَطَعَنْتُ رَجُلًا بِسِكّيني طَعْنَةً قَوِيَّةً ، فَهَوى عَلى ٱلأَرْضِ وَٱلسِّكّينُ مُنْغَرِزَةٌ في جَسَدِهِ . وَوَثَبَ عَلَيَّ رَجُلانِ ، فَطَوَّقْتُهُما بِذِراعَيَّ ، وَسَقَطْنا عَلى أَرْضِ ٱلكَهْفِ نَتَدَحْرَجُ . وَكانا قَوِيَّيْنِ ، وَلٰكِنّي كُنْتُ ثائِرًا مِنَ ٱلغَضَبِ . وَشَعَرْتُ بِعِظامِهِما تَتَحَطَّمُ وَأَنا أَضْغَطُ عَلى جَسَدَيْهِما . وَكَفّا عَنِ ٱلمُقاوَمَةِ ، وَمَعَ ذٰلِكَ لَمْ أَتْرُكْهُما

أَدَرْتُ رَأْسي ، فَرَأَيْتُ لِيو ، بَعْدَ أَنْ نَزَلَ عَنِ ٱلرَّفِّ ٱلحَجَرِيِّ ، يَتَصارَعُ في وَسَطِ ٱلكَهْفِ مَعَ حَشْدٍ مِنَ ٱلرِّجالِ . رَأَيْتُ وَجْهَهُ ٱلوَسيمَ وَشَعْرَهُ ٱلأَصْفَرَ ٱلذَّهَبِيَّ فَوْقَ هامَتِهِ ٱلَّتي كانَتْ تَعْلو هاماتِ ٱلرِّجالِ . أَخَذَ يُقاتِلُ بِقُوَّةٍ خارِقَةٍ حَتّى فَقَدَ سِكّينَهُ ، فَٱعْتَقَدْتُ أَنَّ نِهايَتَهُ قَدْ



دَنَتْ . وَلٰكِنَّهُ ٱنْفَلَتَ مِنْ مُهاجِميهِ ، وَأَمْسَكَ جُثَّةَ رَجُلٍ كانَ قَدْ قَتَلَهُ ، وَرَفَعَها عالِيًا ، وَقَذَفَهُمْ بِها ، فَأَوْقَعَتْ خَمْسَةً أَوْ سِتَّةً مِنْهُمْ أَرْضًا . وَنَهَضوا بِٱسْتِثْناءِ واحِدٍ وَعاوَدوا ٱلْهُجومَ عَلَيْهِ مُجْتَمِعينَ في صَمْتٍ ، وَرَأَيْتُهُ يَتَهاوى تَحْتَ ثِقْلِهِمْ ، فَأَمْسَكوا ذِراعَيْهِ وَساقَيْهِ .

صاحَ رَجُلٌ : « رُمْحًا ! إِلَيَّ بِرُمْحٍ لِأَقْتُلَهُ ، وَبِقِدْرٍ لِأَتَلَقّى فيها دَمَهُ . »

أَغْمَضْتُ عَيْنَيَّ ، وَتَناهى إِلى سَمْعي صَوْتُ صِراعٍ . وَعِنْدَما فَتَحْتُ عَيْنَيَّ ، كانَتِ ٱلْمَرْأَةُ ٱلَّتي تُدْعى أُوسْتان قَدْ أَلْقَتْ بِنَفْسِها فَوْقَ لِيو لِتَحْمِيَهُ بِجَسَدِها . وَأَخَذوا يَجْذِبونَها لِيُبْعِدوها عَنْهُ ، وَلٰكِنَّها تَشَبَّثَتْ بِهِ بِأَنْ طَوَّقَتْ عُنُقَهُ بِذِراعَيْها ، وَلَفَّتْ ساقَيْها حَوْلَ ساقَيْهِ .

صاحَ رَجُلٌ : « أَنْفِذوا ٱلرُّمْحَ في جَسَدَيِ ٱلرَّجُلِ وَٱلْمَرْأَةِ ، وَعِنْدَئِذٍ سَيَتَّحِدانِ في ٱلْمَوْتِ . »

رَأَيْتُ رَجُلًا في يَدِهِ رُمْحٌ بَسَطَ قامَتَهُ وَرَفَعَ ذِراعَهُ . وَرَأَيْتُ وَهَجَ ٱلنّارِ يَنْعَكِسُ عَلى نَصْلِ ٱلرُّمْحِ ٱللّامِعِ .

أَغْمَضْتُ عَيْنَيَّ ، وَسَمِعْتُ ، وَأَنا مُغْمَضُ ٱلْعَيْنَيْنِ ، صَوْتًا يَصيحُ : « كَفى ! »

اِسْوَدَّتِ ٱلدُّنْيا أَمامَ ناظِرَيَّ ، وَفَقَدْتُ ٱلْوَعْيَ .

الفَصْلُ ٱلثّانِي عَشَرَ
بَعْدَ ٱلمَعْرَكَةِ

فَتَحْتُ عَيْنَيَّ فَوَجَدْتُ نَفْسي راقِدًا عَلى قِطْعَةٍ مِنَ ٱلْجِلْدِ لا تَبْعُدُ كَثيرًا عَنِ ٱلنّارِ . وَكانَ لِيو راقِدًا بِٱلْقُرْبِ مِنّي مُغْمَضَ ٱلْعَيْنَيْنِ ، وَكانَتْ أُوسْتان تَجْلِسُ بِجِوارِهِ تُنَظِّفُ جُرْحًا في جَنْبِهِ . أَمّا جوب فَقَدْ وَقَفَ خَلْفَهُ يَرْتَجِفُ ، وَلَمْ يَكُنْ قَدْ أَصابَهُ أَذًى . وَفي ٱلْجانِبِ ٱلْآخَرِ مِنَ ٱلْمَكانِ كانَتْ جُثَثُ أُولٰئِكَ ٱلَّذينَ قَتَلْناهُمْ خِلالَ ٱلْمَعْرَكَةِ ٱلرَّهيبَةِ ٱلَّتي خُضْناها مِنْ أَجْلِ ٱلْحَياةِ . وَأَحْصَيْتُ عَدَدَ تِلْكَ ٱلْجُثَثِ فَوَجَدْتُها ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ جُثَّةً ، بِٱلْإِضافَةِ إِلى جُثَّةِ ٱلْمَرْأَةِ وَجُثَّةِ مُحَمَّدٍ ٱلْخادِمِ ٱلْمِسْكينِ . وَكانَ عَنْ شِمالِنا عَدَدٌ مِنَ ٱلرِّجالِ يَتَوَلَّوْنَ حِراسَةَ مَنْ ظَلَّ عَلى قَيْدِ ٱلْحَياةِ مِنْ بَيْنِ ٱلَّذينَ هاجَمونا ، وَكانَ بِلالي يُشْرِفُ عَلى عَمَلِيَّةِ تَقْييدِ أَذْرُعِهِمْ خَلْفَ ظُهورِهِمْ ، وَلَمّا شاهَدَني أَنْهَضُ قَدِمَ إِلَيَّ وَقالَ :

« أَرْجو أَنْ تَكونَ أَحْسَنَ حالًا ٱلْآنَ . »

قُلْتُ : « أَشْكُرُكَ أَيُّها ٱلْوالِدُ عَلى إِنْقاذِ حَياتِنا ؛ فَلَوْلاكَ لَقَضى هٰؤُلاءِ

آلشَّياطينُ عَلَيْنا في دَقيقَةٍ واحِدَةٍ كَما قَتَلوا خادِمَنا . »

قالَ : « سَوْفَ يُقْتَصُّ مِنْهُمْ لِقَتْلِهِمْ خادِمَكُمْ . إِنَّهُمْ سَيُؤْخَذونَ إِلى « شِيَ » ، وَعِنْدَئِذٍ سَيَتَمَنَّوْنَ لَوْ أَنَّهُمْ لَمْ يولَدوا أَبَدًا . وَآلآنَ قُصَّ عَلَيَّ ما حَدَثَ . » وَحَكَيْتُ لَهُ كُلَّ شَيْءٍ .

قالَ : « يَجِبُ أَنْ تُدْرِكَ أَنَّ هُناكَ تَقْليدًا يَقْضي بِأَنْ يُقْتَلَ بِآلقِدْرِ كُلُّ غَريبٍ يَفِدُ إِلى هٰذِهِ آلبِلادِ . إِنَّني شَخْصِيًّا أَعْتَقِدُ أَنَّهُ تَقْليدٌ كُلُّهُ شَرٌّ ، وَقَدْ أَصْدَرَتْ « شِيَ آلَّتي يَجِبُ أَنْ تُطاعَ » أَوامِرَها بِعَدَمِ قَتْلِكُمْ . إِنَّ هٰؤُلاءِ آلأَسْرى سَيَتَمَنَّوْنَ لَوْ كانوا قَدْ قُتِلوا في آلمَعْرَكَةِ . آهٍ ! وَلٰكِنَّهُ كانَ قِتالًا رائِعًا . هَلْ تَعْرِفُ أَيُّها آلقِرْدُ آلطَّويلُ آلذِّراعَيْنِ أَنَّكَ حَطَّمْتَ عِظامَ هٰذَيْنِ آلرَّجُلَيْنِ كَما يُحَطِّمُ آلرَّجُلُ مِنّا قِشْرَةَ بَيْضَةٍ ؟! وَهٰذا آلشّابُّ أَيْضًا ؛ هٰذا آلأَسَدُ ، كَمْ كانَ جَميلًا أَنْ تَراهُ صامِدًا وَحْدَهُ أَمامَ آلعَديدِ مِنَ آلمُهاجِمينَ . إِنَّ تِلْكَ آلمَعْرَكَةَ آلَّتي قاتَلْتُما فيها بِبَراعَةٍ أَكْسَبَتْكُما صَداقَتي . »

ثُمَّ سَأَلَني عَنْ مُسَدَّسَيْنا ، وَكَيْفَ قَتَلا آلرِّجالَ مِنْ بَعيدٍ ، وَلٰكِنّي كُنْتُ مُتْعَبًا فَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَشْرَحَ لَهُ .

فَتَحَ لِيو عَيْنَيْهِ ، فَقامَ جُوب ، بِمُساعَدَةِ أُوسْتان ، بِنَقْلِهِ إِلى آلفِراشِ ، وَذَهَبْتُ أَنا إِلى غُرْفَتي آلصَّغيرَةِ . وَفي آلصَّباحِ شَعَرْتُ بِوَعْكَةٍ ، وَلَمْ أَسْتَطِعِ آلنُّهوضَ ، حَتّى إِنَّني تَظاهَرْتُ بِآلنَّوْمِ عِنْدَما

دَخَلَ بِلالي إِلى آلغُرْفَةِ ، فَوَقَفَ يَنْظُرُ إِلَيَّ ، وَسَمِعْتُهُ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ قائِلًا :

« كَمْ أُحِبُّ هٰذا آلقِرْدَ ! وَكَمْ أَتَمَنّى أَلّا تُمارِسَ « شِيَ » سِحْرَها فيهِ ! »

فَتَحْتُ عَيْنَيَّ وَقُلْتُ : « صَباحُ آلخَيْرِ يا والِدي . »

قالَ : « لَقَدْ جِئْتُ لِأُطَمْئِنَّ عَلَيْكَ . لَقَدْ أَمَرَتْ « شِيَ » بِأَنْ آخُذَكَ إِلَيْها عَلى آلفَوْرِ ، وَلٰكِنَّني لا أَعْتَقِدُ أَنَّكَ في حالَةٍ تَسْمَحُ لَكَ بِآلحَرَكَةِ بَعْدُ . »

قُلْتُ : « لَيْسَ بَعْدُ — وَلٰكِنّي أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ أَنْ تَنْقُلَني مِنْ هٰذِهِ آلحُجْرَةِ آلضَّيِّقَةِ إِلى ضَوْءِ آلشَّمْسِ . إِنَّني لا أُحِبُّ هٰذا آلمَكانَ . »

قالَ : « نَعَمْ ، إِنَّهُ مَكانٌ كَئيبٌ . عِنْدَما كُنْتُ صَغيرًا عَثَرْتُ عَلى جُثَّةِ آمْرَأَةٍ جَميلَةٍ في هٰذا آلمَكانِ آلَّذي أَنْتُمْ فيهِ آلآنَ . وَكُنْتُ آتي إِلى هُنا وَأَتَطَلَّعُ إِلَيْها . وَكانَتْ تَبْدو كَما لَوْ كانَتْ عَلى قَيْدِ آلحَياةِ بِآسْتِثْناءِ أَنَّ جَسَدَها كانَ بارِدًا ، وَبَشَرَتَها شاحِبَةً ، وَشَعْرَها أَصْفَرَ طَويلًا يَصِلُ إِلى قَدَمَيْها ، لَقَدْ أَحْبَبْتُها تَقْريبًا . وَذاتَ يَوْمٍ آكْتَشَفَتْ والِدَتي هٰذا آلمَكانَ ، وَأَسْنَدَتْ جُثَّةَ آلمَرْأَةِ إِلى آلحائِطِ ، وَأَتَتْ بِمِشْعَلٍ وَأَضْرَمَتِ آلنّارَ في شَعْرِها ، وَآحْتَرَقَ آلجَسَدُ كُلُّهُ — اِحْتَرَقَ بِتَأَلُّقٍ كَما لَوْ كانَ مَصْنوعًا مِنَ آلشَّمْعِ . إِنَّ أُولٰئِكَ آلَّذينَ تُحْفَظُ أَجْسادُهُمْ مِنَ آلتَّحَلُّلِ يَحْتَرِقونَ بِهٰذِهِ آلصّورَةِ . اُنْظُرْ ها هِيَ ذي آثارُ دُخانِ آلاِحْتِراقِ

بِٱلسَّقْفِ . » وَنَظَرْتُ إلى أَعْلى ، وَرَأَيْتُ آثارًا سَوْداءَ ٱتِّساعُها نِصْفُ مِتْرٍ .

وَواصَلَ حَديثَهُ قائِلًا : « عِنْدَما عُدْتُ إلى هٰذا ٱلمَكانِ كانَتِ ٱلجُثَّةُ قَدِ ٱحْتَرَقَتْ تَمامًا بِٱسْتِثْناءِ قَدَمَيْها ، فَأَخْفَيْتُ إِحْداهُما تَحْتَ ٱلرَّفِّ ٱلصَّخْرِيِّ ، وَلَعَلَّها لا تَزالُ في مَكانِها . » ثُمَّ مَدَّ يَدَهُ تَحْتَ ٱلرَّفِّ ٱلصَّخْرِيِّ حَيْثُ كُنْتُ راقِدًا ، وَقالَ : « ها هِيَ ذي ! » وَوَضَعَ شَيْئًا في يَدي . وَكانَ هٰذا ٱلشَّيْءُ قَدَمًا بَدَتْ أَخَفَّ مِنْ قَدَمِ ٱلإِنْسانِ ٱلحَيِّ ، وَلٰكِنَّها كانَتْ تَحْتَفِظُ بِشَكْلِها وَلَوْنِها .

تُرى في أَيِّ دُروبِ ٱلحَياةِ تَرَدَّدَ وَقْعُ خُطُواتِها ؟ أَيُّ حَظٍّ تَعِسٍ ذٰلِكَ ٱلَّذي أَصابَ تِلْكَ ٱلقَدَمَ ٱلصَّغيرَةَ !

الفَصْلُ ٱلثّالِثَ عَشَرَ
الرِّحْلَةُ إلى خُور

أُحْضِرَتْ خَمْسُ مَحافَّ ، وَوُضِعَتْ أَمامَ مَدْخَلِ ٱلكَهْفِ . وَكانَ ثَمَّةَ خَمْسونَ حارِسًا مُسْتَعِدّونَ لِمُرافَقَتِنا .

سَأَلْتُ بِلالي : « هَلْ سَتَصْحَبُنا أُوسْتان ؟ »

أَجابَ : « إذا شاءَتْ : فَهِيَ زَوْجَتُهُ وَفْقًا لِقَوانينِنا . إِنَّها فَتاةٌ شُجاعَةٌ ، وَتُحِبُّ هٰذا ٱلأَسَدَ . وَقَدْ أَنْقَذَتْ حَياتَهُ ؛ لِذا فَإِنَّ لَها ٱلحَقَّ في أَنْ تُرافِقَهُ أَيْنَما يَذْهَبُ ، ما لَمْ تَعْتَرِضْ « شِي » . »

بَدَأْنا رِحْلَتَنا بِأَنْ نَزَلْنا مِنْ جانِبِ ٱلتَّلِّ ، ثُمَّ صَعِدْنا ٱلجانِبَ ٱلآخَرَ حَيْثُ رَأَيْنا سَهْلًا مُعْشِبًا يَمْتَدُّ مَسافَةً بَعيدَةً ، وَيَنْتَهي إلى أَراضٍ مُنْخَفِضَةٍ .

وَٱجْتَزْنا ذٰلِكَ ٱلسَّهْلَ حَتّى وَصَلْنا إلى حُدودِ أَرْضٍ مُنْخَفِضَةٍ مَليئَةٍ بِٱلمُسْتَنْقَعاتِ . وَهُناكَ ٱسْتَرَحْنا ثُمَّ واصَلْنا رِحْلَتَنا في أَراضٍ أَسْوَأَ مِنْ تِلْكَ ٱلَّتي ٱجْتَزْناها بِٱلقارِبِ . وَكانَتْ رائِحَةُ ٱلعَفَنِ تُحيطُ بِنا مِنْ كُلِّ

جانِبٍ ، وَثعابينُ ٱلماءِ ٱلسَّوْداءُ ٱلسّامَّةُ تَشُقُّ طَريقَها وَسْطَ ٱلمِياهِ في سُرْعَةٍ بالِغَةٍ . وَلَمْ نَكُنْ نَسْمَعُ سِوى نَقيقٍ عالٍ لِضَفادِعَ مِنْ أَضْخَمِ ما رَأَيْتُ في حَياتي ، وَكذا صَيْحاتِ ٱلطُّيورِ فَوْقَ رُؤوسِنا .

وَعِنْدَ ٱلغُروبِ وَصَلْنا إلى أَرْضٍ جافَّةٍ ، وَكَأَنَّها جَزيرَةٌ وَسْطَ هٰذِهِ ٱلأَراضي ٱلمُقْفِرَةِ . وَقَضَيْنا عَلَيْها لَيْلَتَنا جالِسينَ أَوْ راقِدينَ حَوْلَ ٱلنّارِ . وَحالَ نَقيقُ ٱلضَّفادِعِ ٱلمُرْتَفِعُ ، وَلَدَغاتُ ٱلحَشَراتِ بَيْنَنا وَبَيْنَ ٱلنَّوْمِ .

نَظَرْتُ إلى لِيو ٱلرّاقِدِ بِجِواري : كانَتْ عَيْناهُ لامِعَتَيْنِ ، وَوَجْهُهُ أَحْمَرَ وَشَفَتاهُ جافَّتَيْنِ ، فَقَدْ أُصيبَ بِٱلمَلارْيا . وَكانَتْ وَطْأَةُ ٱلمَرَضِ شَديدَةً عَلَيْهِ ، وَجَلَسَتْ أُوسْتان إلى جِوارِهِ قَلِقَةً . أَخيرًا ٱسْتَطَعْتُ ٱلنَّوْمَ قَليلًا ، وَٱسْتَيْقَظْتُ عِنْدَ شُروقِ ٱلشَّمْسِ . وَكانَ لِيو جالِسًا يُمْسِكُ بِرَأْسِهِ بَيْنَ راحَتَيْهِ .

سَأَلْتُهُ : « كَيْفَ حالُكَ ؟ »

أَجابَ : « مَريضٌ جِدًّا ، وَأَشْعُرُ كَأَنَّني مُشْرِفٌ عَلى ٱلمَوْتِ . »

وَكانَ جُوب مَريضًا أَيْضًا ، وَلٰكِنْ لَيْسَ مِثْلَ لِيو .

سَأَلْتُ بِلالي : « هَلْ يَسْتَطيعانِ مُواصَلَةَ ٱلرِّحْلَةِ ؟ »

أَجابَ : « يَجِبُ أَنْ يُواصِلا ٱلرِّحْلَةَ ، فَٱلبَقاءُ هُنا يَعْني ٱلمَوْتَ . »



واصَلْنا ٱلسَّيْرَ حَتّى بَلَغْنا مِنْطَقَةً شَديدَةَ ٱلخُطورَةِ : كانَ ٱلرِّجالُ يَخوضونَ في ٱلماءِ حَتّى رُكَبِهِمْ ، وَسارَ أَمامَهُمْ دَليلانِ يُمْسِكانِ بِعَصَوَيْنِ طَويلَتَيْنِ يَجُسّانِ بِهِما ٱلقاعَ .

فَجْأَةً سَمِعْنا صَرْخَةً أَعْقَبَتْها صَيْحاتٌ عَديدَةٌ . وَتَبَيَّنَ لَنا أَنَّ أَحَدَ ٱلحَمّالينَ ٱلَّذينَ يَحْمِلونَ مِحَفَّةَ بِلالي داسَ بِقَدَمِهِ ثُعْبانًا . وَسَقَطَ ٱلحَمّالُ في ٱلماءِ ، وَسَقَطَ وَراءَهُ بِلالي بِمِحَفَّتِهِ . وَعِنْدَما وَصَلْتُ إلى حافَةِ ٱلماءِ لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَتَبَيَّنَ بِلالي أَوِ ٱلحَمّالَ ٱلمِسْكينَ ٱلَّذي لَمْ يَرَهُ بَعْدَ ذٰلِكَ أَحَدٌ . أَمّا بِلالي فَقَدِ ٱسْتَطَعْتُ أَنْ أُحَدِّدَ مَوْقِعَهُ مِنَ ٱلمِحَفَّةِ ٱلَّتي رَأَيْتُها طافِيَةً فَوْقَ سَطْحِ ٱلماءِ ، وَقَدْ عَلَتْها قِطْعَةُ ٱلقُماشِ ٱلَّتي كانَتْ

تُسْتَخْدَمُ مِظَلَّةً تَقي ٱلجالِسَ تَحْتَها مِنْ حَرارَةِ ٱلشَّمْسِ ، إلّا أَنّني لَمْ أَرَ بِلالي نَفْسَهُ .

وَصاحَ أَحَدُ ٱلرِّجالِ : « ها هُوَ ذا هُناكَ ! هُناكَ ! » وَلَمْ يَفْعَلِ ٱلرَّجُلُ شَيْئًا لِإنْقاذِ بِلالي .

صِحْتُ فيهِمْ : « أَفْسِحوا ٱلطَّريقَ ! » ثُمَّ قَفَزْتُ إلى ٱلماءِ ، وَسَرْعانَ ما وَصَلْتُ إلى ٱلمِظَلَّةِ ٱلَّتي كانَ بِلالي يُجاهِدُ تَحْتَها لِيَنْجُوَ بِحَياتِهِ . وَٱسْتَطَعْتُ أَنْ أُخَلِّصَهُ مِنْها ، ثُمَّ جَذَبْتُهُ إلى ٱليابِسَةِ .

وَقَفَ بِلالي يَصيحُ وَٱلمِياهُ ٱلقَذِرَةُ تَتَساقَطُ مِنْ لِحْيَتِهِ : « أَيُّها ٱلكِلابُ ! لَقَدْ تَرَكْتُموني أَنا والِدَكُمْ ، لِأَغْرَقَ . لَنْ أَغْفِرَ لَكُمْ ذٰلِكَ أَبَدًا . أَمّا أَنْتَ يا وَلَدي ، فَسَأَكونُ صَديقَكَ إلى ٱلأَبَدِ . لَقَدْ أَنْقَذْتَ حَياتي ، وَقَدْ يَأْتي يَوْمٌ أُنْقِذُ فيهِ حَياتَكَ . »

ٱلفَصْلُ ٱلرّابِعَ عَشَرَ

مَوْطِنُ « شي »

خَرَجْنا مِنَ ٱلأَراضي ٱلمُنْخَفِضَةِ ، قَبْلَ ٱلغُروبِ ، إلى سَهْلٍ يَرْتَفِعُ تَدْريجيًّا في شَكْلٍ مُتَمَوِّجٍ ، وَتَوَقَّفْنا لِنَقْضِيَ ٱللَّيْلَ تَحْتَ ٱلأَشْجارِ . وَأَمْضَيْتُ ٱللَّيْلَ أُعاوِنُ أُوسْتان في تَمْريضِ لِيُو ٱلَّذي ساءَتْ حالَتُهُ كَثيرًا . وَفي ٱلصَّباحِ كانَتْ حالَتُهُ قَدْ زادَتْ سوءًا .

وَبَعْدَ شُروقِ ٱلشَّمْسِ بِقَليلٍ كُنّا قَدْ وَصَلْنا إلى قِمَّةِ تَلٍّ مُعْشِبٍ وَرَأَيْنا أَسْفَلَهُ قَرْيَةً غَنِيَّةً بِٱلعُشْبِ وَٱلأَشْجارِ وَٱلأَزْهارِ . وَعَلى مَسافَةٍ بَعيدَةٍ كانَ ثَمَّةَ جَبَلٌ غَريبُ ٱلشَّكْلِ : كانَ مُسْتَديرًا ، يَبْلُغُ مُحيطُهُ حَوالى عَشَرَةِ كيلومِتْراتٍ ، وَلَهُ جَوانِبُ تَرْتَفِعُ في وَسَطِ ٱلسَّهْلِ مُسْتَقيمَةً كالجُدْرانِ . أَمّا قِمَّةُ هٰذا ٱلجَبَلِ فَكانَتْ مُخْتَفِيَةً وَسْطَ سُحُبِ ٱلصَّباحِ ٱلباكِرِ . وَبَيْنَما كُنْتُ جالِسًا عَلى مِحَفَّتي أَنْظُرُ إلَيْها جاءَ بِلالي وَقالَ :

« هٰذا هُوَ ٱلمَنْزِلُ ٱلَّذي تَسْكُنُهُ « شي ٱلَّتي يَجِبُ أَنْ تُطاعَ » . »

قُلْتُ : « إنَّهُ رائِعٌ ، وَلٰكِنَّ تِلْكَ ٱلصُّخورَ مِنَ ٱلصَّعْبِ تَسَلُّقُها . »



قالَ : « أُنظُرْ إلى ذٰلِكَ ٱلممَرِّ تَحْتَنا . »

وَنَظَرْتُ فَشاهَدْتُ ما بَدا مِثْلَ مَجْرى نَهْرٍ جافٍّ ، أَوْ مَجْرًى مائِيٍّ مِنْ صُنْعِ ٱلإِنْسانِ .

وَتَوَلّى بِلالي تَوْضيحَ ذٰلِكَ لي فَقالَ : « كانَتْ ثَمَّةَ بُحَيْرَةٌ وَسْطَ سِلْسِلَةِ هٰذِهِ ٱلصُّخورِ ، وَكانَ قاعُ ٱلبُحَيْرَةِ أَعْلى مِنْ سَطْحِ ٱلسَّهْلِ . وَقامَ ٱلنّاسُ ٱلَّذينَ بَنَوْا مَدينَةَ خور بِشَقِّ طَريقٍ عَبْرَ سَفْحِ ٱلجَبَلِ فَٱنْسابَ فيهِ ٱلماءُ مِنَ ٱلبُحَيْرَةِ ، وَأَحْدَثَ هٰذِهِ ٱلأَراضِيَ ٱلمُنْخَفِضَةَ ٱلخَطيرَةَ ٱلَّتي جِئْنا عَبْرَها . وَعِنْدَما نَضَبَتْ مِياهُ ٱلبُحَيْرَةِ خَلَّفَتْ هٰذا ٱلممَرَّ ٱلَّذي

يَسْلُكُهُ ٱلنّاسُ لِلْوُصولِ إلى ٱلصُّخورِ . وَشَيَّدوا ٱلمَدينَةَ فَوْقَ جُزْءٍ مِنَ ٱلأَرْضِ ٱلَّتي ٱنْحَسَرَتْ عَنْها مِياهُ ٱلبُحَيْرَةِ ، أَمّا بَقِيَّةُ ٱلأَرْضِ فَقَدْ صارَتْ حُقولًا وَمَراعِيَ . »

وَوَصَلْنا في ٱلنِّهايَةِ إلى واجِهَةِ ٱلجِدارِ ٱلصَّخْرِيِّ لِلْجَبَلِ ، وَرَأَيْنا فُتْحَةً مُظْلِمَةً يَجْري في وَسَطِها نَهْرٌ صَغيرٌ ، يَنْحَرِفُ في مَسارِهِ بَعْدَ ٱلصَّخْرَةِ لِيَتَّخِذَ لِنَفْسِهِ مَسارًا جَديدًا بَعيدًا عَنِ ٱلمَجْرى ٱلجافِّ . وَرَأَيْنا أَيْضًا طَريقًا يَرْتَفِعُ عَنْ مُسْتَوى ذٰلِكَ ٱلنَّهْرِ ٱلصَّغيرِ .

وَبَعْدَ أَنْ أَنْزَلَ ٱلحَمّالونَ ٱلمَحافَّ ٱلَّتي كانوا يَحْمِلونَنا عَلَيْها ، أَقْبَلَ بِلالي نَحْوي وَأَبْلَغَني أَنَّهُ يَجِبُ عَصْبُ أَعْيُنِنا حَتّى لا نَعْرِفَ أَسْرارَ ٱلمَدْخَلِ . وَما إِنْ تَمَّ ذٰلِكَ حَتّى واصَلْنا ٱلسَّيْرَ وَقَدْ تَمَلَّكَنا شُعورٌ غَريبٌ وَهُمْ يَحْمِلونَنا في قَلْبِ تِلْكَ ٱلصَّخْرَةِ وَلا نَعْرِفُ شَيْئًا عَنْ وِجْهَتِنا . وَكُنْتُ جالِسًا أُنْصِتُ إلى خُطُواتِ ٱلرِّجالِ وَٱنْدِفاعِ ٱلمِياهِ ، وَسُرْعانَ ما أَخَذَ ٱلرِّجالُ في ٱلغِناءِ بِصَوْتٍ ذي نَغَماتٍ حَزينَةٍ وَغَريبَةٍ كانَتْ تُرَدِّدُها ٱلجُدْرانُ ٱلصَّخْرِيَّةُ . وَواصَلْنا طَريقَنا نَنْحَرِفُ يَمينًا تارَةً وَيَسارًا تارَةً أُخْرى حَتّى لا يَنْطَبِعَ في ذاكِرَتي خَطُّ ٱلسَّيْرِ ٱلَّذي سَلَكْناهُ في رِحْلَتِنا .

وَشَعَرْتُ بَعْدَ نِصْفِ ساعَةٍ أَنَّنا قَدْ خَرَجْنا إلى ٱلخَلاءِ ، وَسَطَعَ ٱلضَّوْءُ فَوْقَ ٱلعِصابَةِ ٱلَّتي عَلى عَيْنَيَّ ، ثُمَّ سَمِعْتُ بِلالي يُصْدِرُ أَوامِرَهُ لِلرِّجالِ بِرَفْعِ ٱلعَصائِبِ عَنْ أَعْيُنِنا .



وَتَبَيَّنْتُ أَنَّنا داخِلَ ٱلجِدارِ ٱلصَّخْرِيِّ ، ولَم يَكُنْ مُرْتَفِعًا مِنَ ٱلدّاخِلِ كَما هُوَ مِنَ ٱلخارِجِ ، وَذٰلِكَ لِأَنَّ قاعَ ٱلبُحَيْرَةِ ٱلجافَّ كانَ أَعْلى مِنْ مُسْتَوى أَرْضِ ٱلسَّهْلِ . وَخُيِّلَ لي أَنَّني رَأَيْتُ في وَسَطِ ٱلسَّهْلِ بَعْضَ ٱلأَطْلالِ ، أَمّا بَقِيَّةُ ٱلسَّهْلِ فَقَدْ كانَ مُقَسَّمًا إلى حُقولٍ وَحَدائِقَ .

وَلَمْ يَتَّسِعِ ٱلوَقْتُ لِأَرى أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ ؛ إِذْ أَحاطَ بِنا بَعْضُ أَفْرادِ شَعْبِ ٱلأَماهاجِر ، وَكانوا يُشْبِهونَ أُولٰئِكَ ٱلَّذينَ رَأَيْناهُمْ قَبْلَ ذٰلِكَ في ٱلكَهْفِ .

عِنْدَئِذٍ أَقْبَلَتْ نَحْوَنا مَجْموعَةٌ مِنَ ٱلرِّجالِ ٱلمُسَلَّحينَ بِصُحْبَةِ قائِدٍ : كانوا حُرّاسَ « شي ».وَٱتَّجَهَ قائِدُهُمْ إلى بِلالي وَحَيّاهُ ، ثُمَّ ٱسْتَدارَتِ

ٱلمَجْموعَةُ وَسارَتْ بِمُحاذاةِ ٱلصَّخْرَةِ يَتْبَعُهُمُ ٱلحَمّالونَ ٱلَّذينَ كانوا يَحْمِلونَنا . وَبَعْدَ أَنْ سِرْنا مَسافَةَ كيلومِتْرٍ تَقْريبًا تَوَقَّفْنا عِنْدَ كَهْفٍ هائِلٍ ، يَبْلُغُ ٱرْتِفاعُ مَدْخَلِهِ حوالَى ثَمانِيَةَ عَشَرَ مِتْرًا ، وَعَرْضُهُ أَرْبَعَةٍ وَعِشْرينَ مِتْرًا . وَهُنا طَلَبَ مِنّا بِلالي أَنْ نَنْزِلَ بِٱسْتِثْناءِ لِيو ٱلَّذي حُمِلَ إلى داخِلِ ٱلكَهْفِ .

كانَ ٱلكَهْفُ مُضاءً بِواسِطَةِ ٱلمَشاعِلِ ، وَكانَتْ جُدْرانُهُ مُغَطّاةً بِبَعْضِ ٱلصُّوَرِ . وَكانَتْ مُعْظَمُها صُوَرَ صَيْدٍ وَرَقْصٍ ، وَكانَ ٱلقَليلُ مِنْها صُوَرَ مَعارِكَ . وَفَهِمْتُ مِنْ ذٰلِكَ أَنَّ هٰذِهِ ٱلمَدينَةَ لَمْ تَتَعَرَّضْ إلّا لِهَجَماتٍ قَليلَةٍ مِنْ جُيوشٍ مُعادِيَةٍ ، إذا كانَ هُناكَ مِثْلُ هٰذِهِ ٱلهَجَماتِ . وَكانَتْ ثَمَّةَ كِتاباتٌ بَيْنَ هٰذِهِ ٱلصُّوَرِ بِحُروفٍ لا أَعْرِفُها ، حُروفٍ صَغيرَةٍ لِلْغايَةِ .

ٱِسْتَقْبَلَنا أَحَدُ ٱلخَدَمِ ، وَكانَ يَرْتَدي مَلابِسَ بَيْضاءَ . وَٱنْحَنى لَنا دونَ أَنْ يَتَكَلَّمَ لِأَنَّهُ — كَما عَرَفْتُ فيما بَعْدُ كانَ أَصَمَّ أَبْكَمَ .

كانَ يَتَفَرَّعُ مِنْ جانِبَيْ ذٰلِكَ ٱلكَهْفِ ٱلهائِلِ مَمَرّانِ مُتَقابِلانِ . وَكانَ يَقِفُ في مَدْخَلِ ٱلمَمَرِّ ٱلأَيْسَرِ مِنْهُما بَعْضُ ٱلحُرّاسِ ، فَٱسْتَنْتَجْتُ أَنَّهُ يُؤَدّي إلى ٱلجَناحِ ٱلَّذي تَسْكُنُهُ « شي » . وَأَشارَ لَنا ٱلخادِمُ أَنْ نَسْلُكَ ٱلمَمَرَّ ٱلأَيْمَنَ ، فَسِرْنا فيهِ حَتّى وَصَلْنا إلى سِتارٍ تَقَعُ خَلْفَهُ حُجْرَةٌ أُضيئَتْ بِنورٍ يَتَسَلَّلُ إِلَيْها مِنْ فُتْحَةٍ لِلتَّهْوِيَةِ نُحِتَتْ في واجِهَةِ ٱلصَّخْرَةِ . وَبَقِيَ لِيو في ٱلحُجْرَةِ وَمَعَهُ أُوسْتان ، ٱلَّتي كانَ ٱلخادِمُ يَنْظُرُ إِلَيْها نَظَراتٍ

غَرِيبَةً . وَقادَنا ٱلخادِمُ إلى حُجْرَةٍ أُخْرى خُصِّصَتْ لِجُوب ، ثُمَّ إلى حُجْرَتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ : إحْداهُما لي وَٱلثّانِيَةُ لِبِلالي .

وَكانَتْ تِلْكَ ٱلحُجُراتُ مُزَوَّدَةً بِقُدورٍ مَمْلوءَةٍ بِٱلماءِ ؛ لِذا ٱغْتَسَلْتُ كَما ٱغْتَسَلَ جُوب ، وَقَدْ أَسْعَدَنا أَنْ نَنْعَمَ بِالنَّظافَةِ أَخيرًا . وَما إِنِ ٱنْتَهَيْنا مِنَ ٱلاغْتِسالِ حَتّى أَقْبَلَتْ صَبِيَّةٌ وَأَشارَتْ إِلَيْنا أَنَّ ٱلطَّعامَ مُعَدٌّ في ٱلحُجْرَةِ ٱلمُجاوِرَةِ ، ٱلَّتي لَمْ نَكُنْ قَدْ دَخَلْناها بَعْدُ . وَكانَتِ ٱلصَّبِيَّةُ أَيْضًا بَكْماءَ .

وَكانَتْ عَلى جَوانِبِ تِلْكَ ٱلحُجْرَةِ مَجْموعَةٌ مِنَ ٱلمَوائِدِ ٱلحَجَرِيَّةِ ٱلغَرِيبَةِ ، وَبِأَعْلى كُلِّ مائِدَةٍ فُتْحَةٌ لِلتَّهْوِيَةِ . وَكانَ بِإِحْدى هٰذِهِ ٱلمَوائِدِ عَدَدٌ مِنَ ٱلمَواضِعِ نُحِتَتْ عَلى شَكْلِ جِسْمِ ٱلإِنْسانِ : فَكانَ ثَمَّةَ مَوْضِعٌ لِلرَّأْسِ ، وَآخَرُ لِلْجِذْعِ ، وَمَوْضِعانِ لِلسّاقَيْنِ وَٱلقَدَمَيْنِ . وَزُيِّنَتْ جُدْرانُ ٱلحُجْرَةِ بِصُوَرٍ غَرِيبَةٍ لِلْغايَةِ ، وَلَمْ يَفْطِنْ جُوب إلى هٰذِهِ ٱلصُّوَرِ .

كانَتِ ٱلصّورَةُ ٱلأُولى تُمَثِّلُ مَوْتَ رَجُلٍ في بَيْتِهِ . أَمّا ٱلصّورَةُ ٱلثّانِيَةُ فَكانَتْ لِلرَّجُلِ نَفْسِهِ مُمَدَّدًا عَلى ٱلمائِدَةِ ٱلَّتي وَصَفْتُها ، وَقَدْ وَقَفَ بِجِوارِهِ ثَلاثَةُ رِجالٍ يَصُبّونَ سائِلًا في فُتْحَةٍ شُقَّتْ في صَدْرِهِ فَوْقَ قَلْبِهِ . وَكانَتْ أُنوفُ هٰؤُلاءِ ٱلرِّجالِ وَأَفْواهُهُمْ مُغَطّاةً كَما لَوْ كانَ ذٰلِكَ لِوِقايَتِهِمْ مِنَ ٱلبُخارِ أَوِ ٱلرّائِحَةِ ٱلمُتَصاعِدَةِ مِنْ ذٰلِكَ ٱلسّائِلِ . وَتُبَيِّنُ

ٱلصّورَةُ ٱلثّالِثَةُ ٱلرَّجُلَ وَهُوَ يُدْفَنُ في مَقْبَرَتِهِ ، وَقَدْ وُضِعَتْ مَشاعِلُ مُتَّقِدَةٌ فَوْقَ رَأْسِهِ وَعِنْدَ قَدَمَيْهِ .

وَكانَ مِنَ ٱلواضِحِ لي أَنَّ هٰذِهِ ٱلحُجْرَةَ هِيَ ٱلَّتي يَجْري فيها حِفْظُ جُثَثِ ٱلمَوْتى بِتِلْكَ ٱلطَّرِيقَةِ ٱلسِّحْرِيَّةِ ٱلَّتي بَيَّنَها لي بِلالي .

وَلَكَ أَنْ تُدْرِكَ مَدى جوعي بَعْدَ طولِ سَفَرِنا عِنْدَما أَقولُ إِنَّني تَناوَلْتُ وَجْبَةً طَيِّبَةً .

الفَصْلُ ٱلخامِسَ عَشَرَ

« شَيْ » تَوَدُّ أَنْ تَراكَ

جَلَسْتُ أَنا وَجُوب مَعَ لِيُو لِمُدَّةِ ساعَةٍ تَقْرِيبًا . وَجاءَ بِلالِي وَقالَ لِي بِجِدٍّ : « إِنَّهُ حَقًّا لَشَرَفٌ لَمْ يَحْظَ بِهِ إِلّا ٱلقَلِيلُونَ : إِنَّ « شَيْ » تَوَدُّ أَنْ تَراكَ . »

وَأَعْتَقِدُ أَنَّهُ دَهِشَ عِنْدَما تَلَقَّيْتُ ٱلنَّبَأَ بِفُتُورٍ . وَنَهَضْتُ لِأَتْبَعَهُ ، وَبَيْنَما كُنْتُ أَنْهَضُ رَأَيْتُ شَيْئًا لامِعًا مُلْقًى عَلَى ٱلأَرْضِ ، فَٱلْتَقَطْتُهُ . وَكانَ ٱلخاتَمَ ٱلَّذِي وُجِدَ بِٱلصُّنْدُوقِ ٱلحَدِيدِيِّ ـــ ذٰلِكَ ٱلخاتَمُ ٱلَّذِي نُقِشَتْ عَلَيْهِ عِبارَةُ « ٱبْنُ ٱلشَّمْسِ » وَأَحْسَبُ أَنَّهُ سَقَطَ مِنْ إِصْبَعِ لِيُو أَثْناءَ مَرَضِهِ ، فَلَبِسْتُهُ فِي إِصْبَعِي حِفاظًا عَلَيْهِ .

وَصَلْنا إِلَى ٱلمَمَرِّ ٱلآخَرِ مارِّينَ بِٱلحُرّاسِ ، ثُمَّ قابَلَنا أَرْبَعَةٌ مِنَ ٱلخَدَمِ : رَجُلَيْنِ وَسَيِّدَتَيْنِ وَٱنْحَنَوْا دُونَ أَنْ يَتَكَلَّموا . ثُمَّ سارَ ٱلرَّجُلانِ أَوَّلًا تَتْبَعُهُما ٱلسَّيِّدَتانِ ، وَمَرَرْنا بِٱلعَدِيدِ مِنَ ٱلمَداخِلِ ذَواتِ ٱلسَّتائِرِ ، وَهِيَ أَبْوابُ حُجُراتِ ٱلخَدَمِ عَلَى ما بَدا ، حَتَّى وَصَلْنا إِلَى مَدْخَلٍ فِي



نِهايَةِ ٱلمَمَرِّ يَقِفُ أَمامَهُ ٱثْنانِ مِنَ ٱلحُرّاسِ . وَٱجْتَزْنا ذٰلِكَ ٱلبابَ إِلَى قاعَةٍ مُتَّسِعَةٍ بِها ثَماني أَوْ عَشْرُ فَتَياتٍ مُعْظَمُهُنَّ فِي مُقْتَبَلِ ٱلعُمْرِ ، جَلَسْنَ يَشْتَغِلْنَ أَشْغالَ ٱلإِبْرَةِ دُونَ أَنْ يَنْطِقْنَ بِكَلِمَةٍ واحِدَةٍ ، فَقَدْ كانَتْ كُلُّ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ صَمّاءَ بَكْماءَ .

كانَ فِي نِهايَةِ ٱلقاعَةِ مَدْخَلٌ مُغَطًّى بِسِتارٍ سَمِيكٍ ، وَقَفَتْ أَمامَهُ فَتاتانِ ، وَقَدْ حَنَتْ كُلٌّ مِنْهُما رَأْسَها ، وَعَقَدَتْ ذِراعَيْها فَوْقَ صَدْرِها . وَعِنْدَما ٱقْتَرَبْنا مِنْهُما ، مَدَّتْ كُلٌّ مِنْهُما ذِراعَها وَأَزاحَتِ ٱلسِّتارَ جانِبًا . وَعِنْدَئِذٍ قامَ بِلالِي بِتَصَرُّفٍ غَرِيبٍ : فَقَدْ خَرَّ عَلَى يَدَيْهِ وَرُكْبَتَيْهِ وَتَقَدَّمَ إِلَى ٱلأَمامِ قَلِيلًا ثُمَّ نَظَرَ إِلَيَّ قائِلًا : « خُرَّ عَلَى يَدَيْكَ وَرُكْبَتَيْكَ ،

يا صَديقي ! إنَّنا في طَريقِنا إلى حَضْرَةِ « شَيْ » . » وَلَمْ أَشَأْ أَنْ أَفْعَلَ ذٰلِكَ ، وَشَعَرْتُ بِٱلْخَوْفِ ، وَلٰكِنِّي تابَعْتُ سَيْري بِبُطْءٍ خَلْفَ بِلالِي . وَوَجَدْتُ مِنَ ٱلسُّخْفِ أَنْ أَدْخُلَ ٱلْحُجْرَةَ عَلى هٰذا ٱلنَّحْوِ ، وَٱنْتابَتْني رَغْبَةٌ في ٱلضَّحِكِ .

وَكانَ في أَقْصى ٱلْحُجْرَةِ مَدْخَلٌ مُغَطًّى بِسِتارٍ رَقيقٍ ، يَنْبَعِثُ مِنْ خَلْفِهِ ضَوْءٌ . وَلَمْ يَكُنْ بِتِلْكَ ٱلْحُجْرَةِ أَحَدٌ سِوانا .

وَعِنْدَما بَلَغْنا ذٰلِكَ ٱلسِّتارَ ٱنْبَطَحَ بِلالِي عَلى ٱلْأَرْضِ . وَشَعَرْتُ وَكَأَنَّ أَحَدًا يُراقِبُنا مِنْ خَلْفِ ٱلسِّتارِ ، فَبَدَأْتُ أَخافُ ، وَلَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ سَبَبًا لِخَوْفي . وَكانَ ٱلصَّمْتُ يُخَيِّمُ عَلى ٱلْمَكانِ ، وَكانَتْ تَنْبَعِثُ مِنْهُ رائِحَةُ زُهورٍ غَريبَةٌ وَنَفاذَةٌ ، وَتَمَلَّكَني إِحْساسٌ بِٱلْوَحْدَةِ ، وَمَضَتْ دَقائِقُ ثُمَّ ٱنْفَرَجَ ٱلسِّتارُ .

الفَصْلُ ٱلسّادِسَ عَشَرَ
وَحْدي مَعَ ٱلمَلِكَةِ

جاءَني صَوْتٌ يَقولُ بِٱلعَرَبِيَّةِ ٱلفُصْحى : « ماذا يُخيفُكَ أَيُّها ٱلغَريبُ ؟ »

كانَ أَجْمَلَ صَوْتٍ سَمِعْتُهُ : كانَ كَهَمْسِ خَريرِ ٱلماءِ في ٱلغَديرِ ؛ أَوْ وَقْعِ قَطَراتِ ٱلمَطَرِ فَوْقَ سَطْحِ ماءٍ ساجٍ ؛ أَوْ تَغْريدِ طائِرٍ عِنْدَ شُروقِ ٱلشَّمْسِ — كانَ مِثْلَ أَعْذَبِ موسيقى تَسْمَعُها ٱلأُذُنُ . وَٱمْتَدَّتْ يَدٌ بَيْضاءُ مِنْ وَراءِ ٱلسِّتارِ وَأَزاحَتْهُ جانِبًا .

كانَ وَجْهُ ٱلمَلِكَةِ مُغَطًّى بِنِقابٍ أَبْيَضَ رَقيقٍ ، وَكانَ جَسَدُها مُغَطًّى كَما لَوْ كانَ مَلْفوفًا بِأَكْفانِهِ . وَمَعَ ذٰلِكَ ٱسْتَطَعْتُ أَنْ أَتَبَيَّنَ أَنَّ صاحِبَةَ هٰذا ٱلقَدِّ ٱلمُقَنَّعِ شابَّةٌ جَميلَةٌ ، تَبْدو رَشاقَتُها كُلَّما حَرَّكَتْ يَدًا أَوْ قَدَمًا .

أَعادَتْ عَلَيَّ سُؤالَها : « ماذا يُخيفُكَ أَيُّها ٱلغَريبُ ؟ » وَرَفَعَتْ



إِحْدى ذِراعَيْها ، فَرَأَيْتُ شَعْرَها مُنْسابًا على رِدائِها ٱلأَبْيَضِ يَكادُ يَبْلُغُ قَدَمَيْها .

أَجَبْتُها : « إِنَّهُ جمالُكِ ، أَيَّتُها ٱلمَلِكَةُ ، ٱلَّذي يَبْعَثُ ٱلخَوْفَ في نَفْسي ! »

وَسَمِعْتُ بِلالِي يَهْمِسُ وَهُوَ ما زالَ مُنْبَطِحًا عَلى ٱلأَرْضِ : « أَحْسَنْتَ يا صَديقي ! أَحْسَنْتَ ! »

قالَتِ ٱلمَلِكَةُ : « إِنَّني أَرى أَنَّ ٱلرِّجالَ لَمْ يَنْسَوْا كَيْفَ يَقولونَ كَلامًا مَعْسولًا . وَٱلآنَ أَخْبِرْني : كَيْفَ جِئْتُمْ إِلى هُنا ؟ ما ٱلَّذي تَوَدّونَ أَنْ تَرَوْهُ هُنا ؟ لِماذا تَسْتَهينونَ بِأَرْواحِكُمْ فَتَضَعوا أَنْفُسَكُمْ تَحْتَ رَحْمَةِ

« شي ٱلَّتي يَجِبُ أَنْ تُطاعَ » ؟ وَكَيْفَ أَتْقَنْتَ ٱلحَديثَ بِلُغَتي إِلى هٰذا ٱلحَدِّ ؟ » ثُمَّ نَظَرَتْ إِلى بِلالِي وَقالَتْ : « آهٍ ! أَنْتَ هُنا أَيُّها ٱلعَجوزُ ! أَخْبِرْني : لِماذا هوجِمَ هٰؤُلاءِ ٱلرِّجالُ وَكادوا يُقْتَلونَ بِٱلقِدْرِ ؟ ما مَعْنى هٰذا ؟ »

أَجابَها دونَ أَنْ يَرْفَعَ رَأْسَهُ : « آهٍ يا « شي » لَقَدْ تَزَعَّمَتْ أُولٰئِكَ ٱلأَشْرارَ ٱمْرَأَةٌ كانَتْ غاضِبَةً مِنْ ذٰلِكَ ٱلرَّجُلِ ٱلَّذي يُطْلِقونَ عَلَيْهِ ٱسْمَ جُوب ، وَلٰكِنَّ هٰذا ٱلرَّجُلَ وَٱلآخَرَ ــ ٱلأَسَدَ ــ قَتَلا تِلْكَ ٱلمَرْأَةَ وَقاتَلا بِشَجاعَةٍ حَتّى أَدْرَكْتُهُمْ وَأَنْقَذْتُهُمْ . وَقَدْ أَتَيْنا بِأُولٰئِكَ ٱلأَشْرارِ إِلى خُور لِتَتِمَّ مُحاكَمَتُهُمْ عَلى يَدَيْكِ . »

قالَتْ : « أَعْرِفُ ذٰلِكَ ، وَسَوْفَ أُحاكِمُهُمْ غَدًا . أَمّا أَنْتَ فَإِنّي أَعْفو عَنْكَ ، وَلٰكِنْ عَلَيْكَ أَنْ تَكونَ أَكْثَرَ حِرْصًا بَعْدَ ذٰلِكَ . »

وَنَهَضَ بِلالِي عَلى رُكْبَتَيْهِ ، وَٱنْحَنى مَرَّتَيْنِ ثُمَّ ٱسْتَدارَ خارِجًا مِنَ ٱلقاعَةِ بِٱلطَّريقَةِ نَفْسِها ٱلَّتي دَخَلَها بِها .

وَصِرْتُ وَحْدي مَعَ تِلْكَ ٱلمَلِكَةِ ٱلعَجيبَةِ وَٱلرَّهيبَةِ .

الفَصْـــلُ ٱلسّابِـــعَ عَشَـــرَ

عائِشَـةُ تَرْفَعُ ٱلنِّقـابَ عَنْ وَجْهِهـا

قالَتِ ٱلمَلِكَةُ : « ها هُوَ ذا ٱلعَجوزُ ذو ٱللِّحْيَةِ ٱلبَيْضاءِ يَنصَرِفُ ! لَقَدْ ضِقْتُ بِٱنْحِناءاتِهِمْ لي ، وَضِقْتُ بِذُعْرِهِمْ مِنّي . وَأَشْعُرُ في بَعْضِ ٱلأَحْيانِ أَنَّني أَوَدُّ أَنْ أَقْتُلَهُمْ جَميعًا بِسِحْري ، لا لِسَبَبٍ إِلّا كَيْ أَرى وُجوهَ ٱلآخَرينَ وَقَدْ شَحَبَتْ مِنَ ٱلرُّعْبِ . » ثُمَّ أَزاحَتِ ٱلسِّتارَ جانِبًا حَتّى أَنْتَقِلَ إِلى ٱلحُجْرَةِ ٱلدّاخِلِيَّةِ .

كانَتْ وَراءَ ٱلسِّتارِ حُجْرَةٌ عَرْضُها حَوالى أَرْبَعَةِ أَمْتارٍ . وَكانَ في أَحَدِ جَوانِبِها مَقْعَدٌ وَمِنْضَدَةٌ عَلَيْها بَعْضُ ٱلفاكِهَةِ وَطاسٌ بِهِ ماءٌ . وَكانَ يُضيءُ ٱلحُجْرَةَ ضَوْءٌ خافِتٌ يَنْبَعِثُ مِنَ ٱلمَشاعِلِ .

قالَتِ ٱلمَلِكَةُ : « اِجْلِسْ ، فَلا مُبَرِّرَ لِلْخَوْفِ مِنّي . وَإِذا كانَ ثَمَّةَ مُبَرِّرٌ لِلْخَوْفِ ، فَإِنَّ خَوْفَكَ لَنْ يَطولَ لِأَنَّني سَوْفَ أَقْتُلُكَ . وَٱلآنَ أَخْبِرْني كَيْفَ تَأَتّى لَكَ أَنْ تُجيدَ ٱلحَديثَ بِلُغَتي ؟ »

فَأَجَبْتُها : « لَقَدْ دَرَسْتُها ، وَٱلنّاسُ يَتَحَدَّثونَ بِها في مِصْرَ . »

قالَتْ : « أَلا تَزالُ مِصْرُ مَوْجودَةً ؟ أَلا يَزالُ ٱلفُرْسُ يَحْكُمونَها ؟ »

أَجَبْتُها : « لا ! لَقَدْ رَحَلَ ٱلفُرْسُ عَنْ مِصْرَ مُنْذُ أَكْثَرَ مِنْ أَلْفَي عامٍ . »

قالَتْ : « وَلٰكِنَّني أَذْكُرُ أَنَّهُمْ كانوا هُناكَ ! »

فَتَمَلَّكَني خَوْفٌ وَدَهْشَةٌ ، وَقُلْتُ : « لَقَدِ ٱنْقَضى ، أَيَّتُها ٱلمَلِكَةُ ، أَكْثَرُ مِنْ أَلْفَي عامٍ . كَيْفَ يُمْكِنُ لِامْرَأَةٍ أَنْ تَعيشَ أَلْفَي عامٍ ؟ »

نَظَرَتْ إِلَيَّ ، وَبَدَتْ عَيْناها وَكَأَنَّهُما تَسْبُرانِ أَغْواري .

قالَتْ : « أَيُّها ٱلغَبِيُّ ، أَلا تَزالُ تَعْتَقِدُ أَنَّ كُلَّ ٱلكائِناتِ تَموتُ ؟ لَيْسَ ثَمَّةَ ما يُسَمّى بِٱلمَوْتِ . إِنَّهُ لَيْسَ سِوى تَغْييرٍ . لَقَدِ ٱنْقَضَتْ سِتَّةُ آلافِ عامٍ مُنْذُ عاشَ ٱلنّاسُ ٱلَّذينَ رَسَموا هٰذِهِ ٱلصُّوَرَ عَلى ٱلجُدْرانِ ، وَقَدْ ماتوا بِسَبَبِ مَرَضٍ خَطيرٍ ، وَمَعَ ذٰلِكَ فَهُمْ لَيْسوا أَمْواتًا ، وَلَعَلَّ أَرْواحَهُمْ تَحومُ حَوْلَنا في هٰذِهِ ٱللَّحْظَةِ . » وَتَلَفَّتَتْ حَوْلَها ثُمَّ قالَتْ : « يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَحْيانًا أَنَّني أَراهُمْ . »

قُلْتُ : « وَلٰكِنَّهُمْ أَمْواتٌ بِٱلنِّسْبَةِ لِلعالَمِ . »

قالَتْ : « إِنَّهُمْ أَمْواتٌ إِلى حينٍ ، وَلٰكِنَّهُمْ يولَدونَ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرى . إِنَّ ٱسْمي عائِشَةُ ، وَأَنا أَنْتَظِرُ مَوْلِدَ إِنْسانٍ أَحْبَبْتُهُ يَوْمًا — إِنَّني أَنْتَظِرُ

أنْ يولَدَ مَرَّةً أُخرى . لَقَدْ ماتَ مُنْذُ ٱلْفَيْ عامٍ . لِماذا تَراني ، أنا بِجَمالي وَسُلْطاني ، أُعيشُ هُنا وَسْطَ قَوْمٍ بُدائِيِّينَ لا يَفْضُلونَ ٱلْبَهائِمَ إلّا قَليلًا ؟ »

قُلْتُ : « لا أَعْرِفُ لِذٰلِكَ سَبَبًا . »

قالَتْ : « ذٰلِكَ لِأَنَّني أَنْتَظِرُ مَنْ أُحِبُّ ، وَلِأَنَّني أَعْرِفُ أَنَّهُ بَعْدَ أَنْ يولَدَ مَرَّةً أُخرى سَوْفَ يَأْتي إلى هُنا . »

فَقُلْتُ : « إذا كُنّا نَحْنُ ٱلْبَشَرَ نولَدُ مَرّاتٍ وَمَرّاتٍ ، فَلِماذا لا يَنْطَبِقُ ذٰلِكَ عَلَيْكِ ؛ فَأَنْتِ تَقولينَ إنَّكِ لَمْ تَموتي مِنْ قَبْلُ ؟ »

أَجابَتْ : « هٰذا صَحيحٌ . إنّي لَمْ أَمُتْ ، لِأَنَّني تَعَلَّمْتُ سِرَّ ٱلْحَياةِ ، وَسِرَّ ٱلْمَوْتِ ، إلى جانِبِ أَسْرارٍ أُخْرى كَثيرَةٍ . أَ تَوَدُّ أَنْ تَعْرِفَ كَيْفَ عَرَفْتُ بِقُدومِكُمْ إلى هٰذِهِ ٱلْبِلادِ ، وَمِنْ ثَمَّ أَنْقَذْتُكُمْ مِنْ شَعْبِ ٱلأَماهاجِرِ ؟ أُنْظُرْ إلى هٰذا ٱلماءِ . »

وَقَفْتُ وَنَظَرْتُ في طاسِ ٱلماءِ ، فَقَتَمَ لَوْنُ ٱلماءِ ثُمَّ صَفا . وَرَأَيْتُ فيهِ قارِبَنا يَرْقُدُ فيهِ لِيُو نائِمًا وَقَدْ غَطّى رَأْسَهُ مِنَ ٱلْحَشَراتِ ، بَيْنَما كُنْتُ أَنا وَجُوب وَمُحَمَّدٌ نَسيرُ عَلى ٱلشّاطِئِ جاذِبينَ ٱلقارِبَ ، فَصِحْتُ مُتَعَجِّبًا : « أَ هٰذا سِحْرٌ ؟ ! »

أَجابَتْ : « لا ، إنَّهُ لَيْسَ بِسِحْرٍ ، وَلٰكِنَّني أَسْتَطيعُ أَنْ أَسْتَرْجِعَ صُوَرَ

ٱلماضي وَتِلْكَ ٱلأَحْداثَ ٱلَّتي لَها عَلاقَةٌ بِبَلَدي . وَلٰكِنَّني لا أَسْتَطيعُ أَنْ أَرى ٱلْمُسْتَقْبَلَ . لَقَدْ رَأَيْتُ هٰذِهِ ٱلصّورَةَ في ٱلطّاسِ ؛ لِذا أَرْسَلْتُ مَنْ أَنْقَذَكُمْ . أَخْبِرْني كَيْفَ حالُ ٱلشّابِّ ٱلَّذي كانَ نائِمًا بِٱلقارِبِ ؟ أَوَدُّ أَنْ أَراهُ ، وَلٰكِنْ قيلَ لي إنَّهُ جَريحٌ وَمَريضٌ . »

قُلْتُ : « إنَّهُ مَريضٌ لِلْغايَةِ . أَلا تَسْتَطيعينَ أَنْ تَفْعَلي شَيْئًا لَهُ ؟ »

قالَتْ : « دَعْهُ يَرْقُدْ يَوْمًا آخَرَ . مِنَ ٱلأَفْضَلِ لَهُ أَنْ يَتَغَلَّبَ عَلى ٱلمَرَضِ بِنَفْسِهِ ٱعْتِمادًا عَلى قُوَّتِهِ . وَلٰكِنْ إنْ لَمْ يُوَفَّقْ فَإنَّني سَوْفَ آتي إلَيْهِ . مَنِ ٱلَّذي يُعْنى بِهِ ؟ »

أَجَبْتُها : « خادِمُنا جُوب ، وَٱمْرَأَةٌ مِنْ شَعْبِكِ ، أَيَّتُها ٱلمَلِكَةُ ، تُدْعى أُوسْتان . »

قالَتْ بِدَهْشَةٍ : « شَعْبي ! إنَّ هٰؤُلاءِ ٱلرَّقيقَ لَيْسوا شَعْبي ، وَلا تُناديني بِلَقَبِ ٱلمَلِكَةِ ؛ فَقَدْ ضِقْتُ بِهٰذا ٱللَّقَبِ . ناديني بِٱسْمِ عائِشَةَ ؛ فَإنَّ هٰذا ٱلاسْمَ يُذَكِّرُني بِٱلماضي . أَمّا بِٱلنِّسْبَةِ لِتِلْكَ ٱلمَرْأَةِ ٱلَّتي تُدعى أُوسْتان ، فَقَدْ قيلَ لي يَوْمًا إنَّ خَطَرًا جَسيمًا سَيَحيقُ بي بِسَبَبِ ٱمْرَأَةٍ . إنَّني أَتَساءَلُ إذا كانَتْ ... » وَتَوَقَّفَتْ عَنِ ٱلكَلامِ ، ثُمَّ قالَتْ : « سَوْفَ أَرى . »

وَنَظَرَتْ في ٱلماءِ مَرَّةً أُخرى ، وَقالَتْ بِلَهْجَةٍ سَريعَةٍ : « أُنْظُرْ ، أَ هٰذِهِ هِيَ ٱلمَرْأَةُ ؟ »

نَظَرْتُ في الماءِ ، فَرَأَيْتُ وَجْهَ أُوسْتان وَهِيَ تَنْحَني فَوْقَ شَخْصٍ وَتَنْظُرُ إِلَيْهِ بِحَنانٍ .

قُلْتُ : « نَعَمْ ، إِنَّها تُراقِبُ لِيُو أَثْناءَ نَوْمِهِ . »

قالَتْ : « لِيُو ــ ٱلأَسَدُ ؟ إِنَّ ذٰلِكَ لَأَمْرٌ بالِغُ ٱلغَرابَةِ ، وَلٰكِنَّهُ مُسْتَحيلٌ ! » ثُمَّ مَرَّتْ بِيَدِها فَوْقَ ٱلماءِ فَتَلاشَتِ ٱلصّورَةُ .

سَأَلَتْني : « هَلْ هُناكَ ما تَوَدُّ أَنْ تَسْأَلَني عَنْهُ ، يا هُولي ، قَبْلَ أَنْ تَنْصَرِفَ ؟ إِنَّ أَفْرادَ شَعْبِ ٱلأَماهاجِرِ هَمَجِيّونَ ، ولا يَعْرِفونَ شَيْئًا ، كَما أَنَّ خَدَمي صُمٌّ وَبُكْمٌ . أَ ثَمَّةَ ما تَوَدُّ أَنْ تَسْأَلَني عَنْهُ ؟ »

قُلْتُ : « نَعَمْ يا عائِشَةُ . أَوَدُّ أَنْ أُشاهِدَ وَجْهَكِ . »

فَضَحِكَتْ وَقالَتْ : « إِنَّ هُناكَ أُسْطورَةً يونانِيَّةً عَنْ رَجُلٍ ماتَ عِنْدَما شاهَدَ جَمالًا فَتّانًا ، وَأَخْشى أَنْ تُضارَ إِنْ أَرَيْتُكَ وَجْهي . »

قُلْتُ : « إِنَّني لا أَخْشى ٱلجَمالَ . »

وَرَفَعَتْ ذِراعَيْها ، وَأَزاحَتِ ٱلنِّقابَ بِبُطْءٍ . يا إِلٰهي ! كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يوجَدَ مِثْلُ هٰذا ٱلجَمالِ ؟! إِنَّني أَعْجِزُ عَنْ وَصْفِهِ . كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَكونَ مِثْلُ هٰذا ٱلجَمالِ شِرّيرًا ؟ وَمَعَ ذٰلِكَ فَهٰذا هُوَ ٱلواقِعُ . وَلَمْ أَسْتَطِعْ لِفَتْرَةٍ أَنْ أُبْعِدَ عَيْنَيَّ عَنْها . ثُمَّ وَضَعْتُ كَفّي أَمامَ عَيْنَيَّ ، وَنَظَرْتُ



إِلَيْها مِنْ بَيْنِ أَصابِعي فَرَأَيْتُ تَغَيُّرًا مُخيفًا طَرَأَ عَلَيْها : تَرَكَّزَتْ عَيْناها عَلى شَيْءٍ ما ، وَكانَ فيهِما نَظْرَةُ رُعْبٍ وَأَمَلٍ .

هَمَسَتْ : « أَيُّها ٱلرَّجُلُ ، مِنْ أَيْنَ حَصَلْتَ عَلى هٰذا ٱلخاتَمِ ؟ تَكَلَّمْ وَإِلّا قَتَلْتُكَ بِسِحْري . عَفْوًا ! لَقَدْ أَخَفْتُكَ . وَلٰكِنَّ هٰذا ٱلخاتَمَ : مِنْ أَيْنَ جِئْتَ بِهِ ؟ »

أَجَبْتُ : « لَقَدِ ٱلْتَقَطْتُهُ مِنَ ٱلأَرْضِ . »

قالَتْ : « هٰذا غَريبٌ ، بَلْ غَريبٌ جِدًّا ! لَقَدْ سَبَقَ أَنْ رَأَيْتُ مِثْلَ هٰذا ٱلحَجَرِ يَوْمًا . كانَ كالِيكْراتِس يَلْبَسُهُ دائِمًا ، وَكانَ يَعْتَزُّ بِهِ كَثيرًا . اِنْصَرِفْ ! اِنْصَرِفِ ٱلآنَ ! »

الفَصلُ آلثّامِنَ عَشَرَ

لَعْنَــــةُ عائِشَــــةَ

أَرِقْتُ تِلْكَ آللَّيْلَةَ بَعْدَ ما حَدَثَ ، فَتَمَدَّدْتُ في سَريري . وَبَعْدَ أَنْ أَدْرَكْتُ أَنَّهُ لا فائِدَةَ مِنْ مُحاوَلَةِ آلنَّوْمِ ، قَرَّرْتُ أَنْ أَنْهَضَ وَأَذْهَبَ لِأَطْمَئِنَّ عَلى لِيُو . وَتَوَجَّهْتُ إِلى حُجْرَتِهِ في هُدوءٍ ، فَوَجَدْتُهُ قَلِقًا ، وَإِلى جِوارِهِ تَجْلِسُ أُوسْتان شِبْهَ نائِمَةٍ . كانَتْ تُمْسِكُ بِيَدِهِ ! يا لَهُ مِنْ مِسْكينٍ ! كانَ وَجْهُهُ شَديدَ آلإِحْمِرارِ ، وَآرْتَسَمَتْ تَحْتَ عَيْنَيْهِ ظِلالٌ سَوْداءُ ، وَأَخَذَ يَتَنَفَّسُ بِصُعوبَةٍ . لَقَدِ آشْتَدَّتْ وَطْأَةُ آلمَرَضِ عَلَيْهِ ، حَتّى إِنَّني خَشيتُ أَنْ يَموتَ .

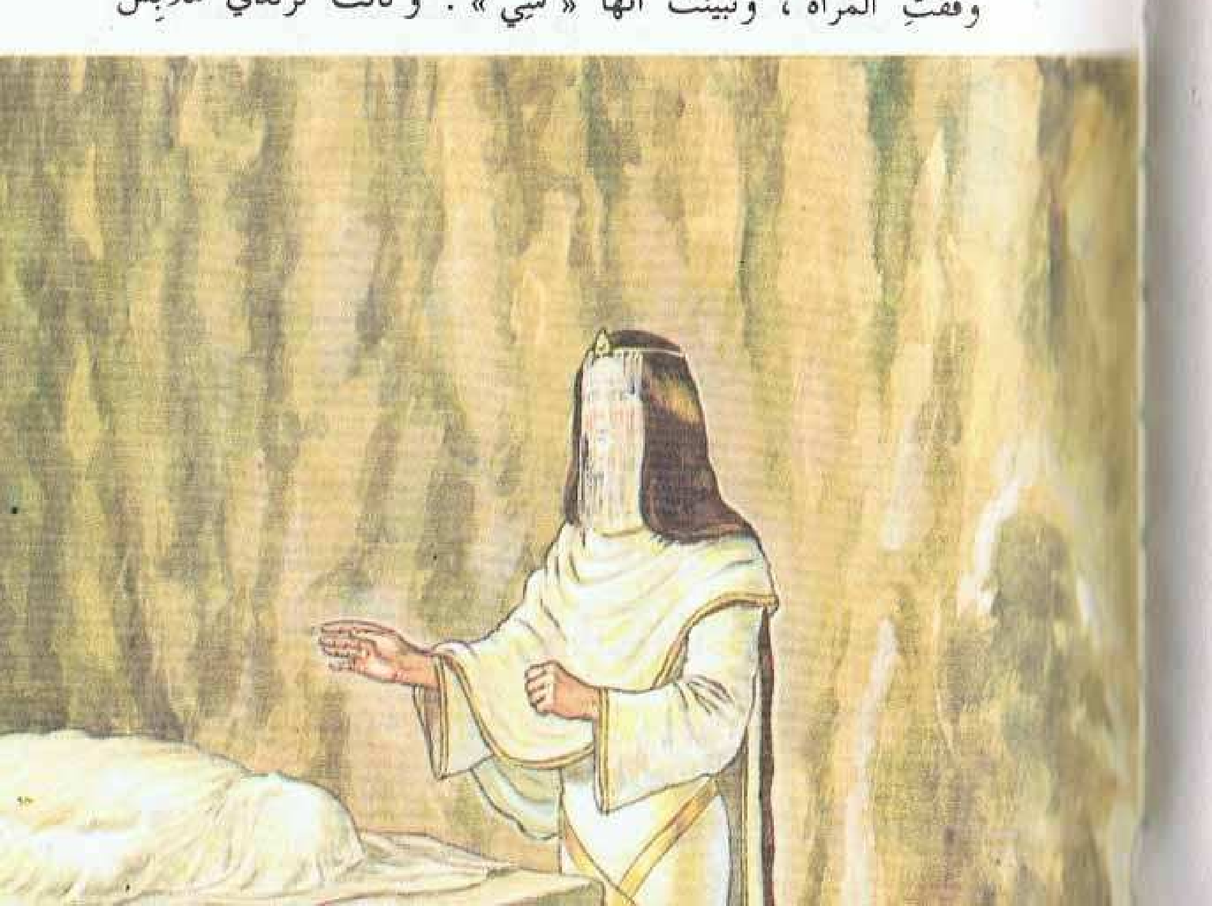
وَعُدْتُ إِلى حُجْرَتي بِهُدوءٍ كَما جِئْتُ ، وَأَنا ما زِلْتُ عاجِزًا عَنِ آلنَّوْمِ . وَفَجْأَةً تَبَيَّنْتُ وُجودَ مَدْخَلٍ ضَيِّقٍ في آلجِدارِ ، فَحَمَلْتُ آلمِشْعَلَ وَآتَّجَهْتُ إِلَيْهِ وَفَحَصْتُهُ ؛ فَلَيْسَ مِنَ آلأَمانِ في بَلَدٍ غَريبٍ أَنْ تَجِدَ مَمَرًّا يُؤَدّي إِلى غُرْفَةِ نَوْمِكَ ، دونَ أَنْ تَعْلَمَ مِنْ أَيْنَ يَأْتي . اِجْتَزْتُ آلمَدْخَلَ ، وَسِرْتُ في آلمَمَرِّ آلَّذي قادَني إِلى سُلَّمٍ عِنْدَ أَسْفَلِهِ مَمَرٌّ أَصْغَرُ نُحِتَ في آلصَّخْرِ . وَخُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّهُ يَقَعُ تَحْتَ مُنْتَصَفِ آلكَهْفِ آلكَبيرِ .

عِنْدَما وَصَلْتُ إِلى مُنْعَطَفٍ هَبَّتْ ريحٌ وَأَطْفَأَتِ آلمِشْعَلَ ، فَعَمَّ

آلظَّلامُ آلمَمَرَّ . وَنَظَرْتُ أَمامي ، فَلَمَحْتُ ضَوْءًا بَعيدًا خافِتًا لِنارٍ مُشْتَعِلَةٍ . وَفَكَّرْتُ في أَنْ أُشْعِلَ مِنْها مِشْعَلي ، فَسِرْتُ بِحِرْصٍ مُسْتَنِدًا إِلى جِدارِ آلمَمَرِّ مُتَلَمِّسًا طَريقي خُطْوَةً خُطْوَةً بِقَدَمَيَّ .

رَأَيْتُ سِتارًا بَدَتْ لي مِنْ خِلالِهِ آلنّارُ تَتَلَأْلَأُ . وَعِنْدَما دَقَّقْتُ آلنَّظَرَ مِنْ خِلالِ آلسِّتارِ تَبَيَّنَ لي بِآلدّاخِلِ كَهْفٌ صَغيرٌ تَتَوَسَّطُهُ نارٌ ذاتُ لَهَبٍ أَبْيَضَ عَديمَةُ آلدُّخانِ . وَكانَ في آلجانِبِ آلأَيْسَرِ مِنَ آلكَهْفِ رَفٌّ حَجَرِيٌّ وُضِعَتْ فَوْقَهُ جُثَّةُ رَجُلٍ مَيِّتٍ ، وَغُطِّيَتْ بِقُماشٍ أَبْيَضَ . وَكانَتْ تَجْلِسُ بِجِوارِ آلنّارِ ، بِمُحاذاتي وَفي مُواجَهَةِ آلمَيِّتِ ، آمْرَأَةٌ .

وَقَفَتِ آلمَرْأَةُ ، وَتَبَيَّنْتُ أَنَّها « شيّ » . وَكانَتْ تَرْتَدي مَلابِسَ



بَيْضاءَ ، وَقَدْ طَرَأَ عَلى مَلامِحِ وَجْهِها تَغَيُّرٌ : كانَتْ عَلاماتُ ٱلْجُنونِ ٱلتّامِّ مُرْتَسِمَةً عَلى وَجْهِها ، وَكَذٰلِكَ غَضَبٌ شَديدٌ ، وَرَأَيْتُ في عَيْنَيْها فَزَعًا وَأَلَمًا لا يَحْتَمِلُهُ إِنْسانٌ . وَرَفَعَتْ ذِراعَيْها ، وَسَمِعْتُها تَهْمِسُ :

« عَلَيْها ٱللَّعْنَةُ ! فَلْتَحُلَّ ٱللَّعْنَةُ عَلى ٱلْمَرْأَةِ ٱلْمِصْرِيَّةِ ، لِأَنَّ سِحْرَها أَنْقَذَها مِنّي ، وَلِأَنَّها مَنَعَتْ عَنّي مَنْ أُحِبُّ . عَلَيْها ٱللَّعْنَةُ في مَوْتِها ، وَعَلَيْها ٱللَّعْنَةُ عِنْدَما تولَدُ مَرَّةً أُخْرى . »

كَرَّرَتْ هٰذا ٱلْكَلامَ عِدَّةَ مَرّاتٍ ، وَبَدَأَتْ تَبْكي ، ثُمَّ جَلَسَتْ بِجِوارِ ٱلنّارِ تَقول وَهِيَ تَنْتَحِبُ :

« أَلْفا عامٍ ! لَقَدِ ٱنْتَظَرْتُ أَلْفَيْ عامٍ ! لَقَدِ ٱنْفَطَرَ قَلْبي أَسًى أَلْفَيْ عامٍ ، وَظَلَّ ٱلشَّرُّ ٱلَّذي ٱقْتَرَفْتُهُ ماثِلًا أَمامي . إِنَّ ٱلزَّمَنَ لا يَجودُ بِٱلنِّسْيانِ . لِماذا لَمْ أَمُتْ ، يا حَبيبي ، عِنْدَما قَتَلْتُكَ ؟ وَلٰكِنْ واحَسْرَتاهُ ! لا أَسْتَطيعُ أَنْ أَموتَ . »

ثُمَّ ٱتَّجَهَتْ إِلى حَيْثُ كانَتِ ٱلْجُثَّةُ مُمَدَّدَةً وصاحَتْ : « أَيْ كاليكْراتِس ، عَلَيَّ أَنْ أُلْقِيَ نَظْرَةً عَلى وَجْهِكَ . »

وَكَشَفَتِ ٱلْغِطاءَ ، وَخَرَّتْ عَلى رُكْبَتَيْها بِجِوارِ ٱلرَّجُلِ ٱلْمَيِّتِ ، وَلَمَسَتْ بِشَفَتَيْها جُثَّتَهُ ، وَبَكَتْ .

لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَتَحَمَّلَ أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ ، فَٱنْصَرَفْتُ عائِدًا إِلى غُرْفَتي بِسَلامٍ ، وَأَلْقَيْتُ بِنَفْسي عَلى ٱلْفِراشِ .

الفَصْلُ ٱلتّاسِعَ عَشَرَ
عائِشَةُ تُصْدِرُ ٱلْحُكْمَ

عِنْدَما فَتَحْتُ عَيْنَيَّ وَجَدْتُ جوب بِٱلْكَهْفِ يُرَتِّبُ مَلابِسي . وَبَعْدَ أَنْ لَبِسْتُ مَلابِسي ، وَتَناوَلْتُ طَعامَ ٱلْإِفْطارِ ذَهَبْتُ لِأَرى لِيو . وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَعْرِفْني ، فَسَأَلْتُ أُوسْتان عَنْ حالِهِ ، فَٱكْتَفَتْ بِأَنْ هَزَّتْ رَأْسَها ، وَأَجْهَشَتْ بِٱلْبُكاءِ .

حَضَرَ بِلالِي أَثْناءَ وُجودي ، وَنَظَرَ إِلى لِيو وَقالَ : « سَوْفَ يَموتُ ٱللَّيْلَةَ . » ثُمَّ ٱسْتَدارَ ناحِيَتي وَقالَ : « إِنَّ « شِيِ ٱلَّتي يَجِبُ أَنْ تُطاعَ » تَأْمُرُكَ بِأَنْ تَذْهَبَ إِلَيْها . » فَتَبِعْتُهُ حَتّى وَصَلْنا إِلى ٱلْكَهْفِ ٱلرَّئيسِيِّ ٱلَّذي كانَ يَمْتَلِئُ بِأَفْرادٍ مِنْ شَعْبِ ٱلْأَماهاجِر . وَمَرَرْنا وَسْطَهُمْ ، وَوَصَلْنا إِلى مَكانٍ مُرْتَفِعٍ في نِهايَةِ ٱلْكَهْفِ تَحُفُّ بِهِ مِنَ ٱلْجانِبَيْنِ مَمَرّاتٌ تُؤَدّي إِلى خارِجِ ٱلْكَهْفِ .

قالَ بِلالِي : « هٰذِهِ ٱلْمَمَرّاتُ تُؤَدّي إِلى كُهوفٍ أُخْرى مَمْلوءَةٍ بِجُثَثِ ٱلْمَوْتى ، وَٱلْجَبَلُ كُلُّهُ في ٱلْواقِعِ مَمْلوءٌ بِٱلْمَوْتى ٱلَّذينَ حُفِظَتْ أَجْسادُهُمْ حِفْظًا مُتْقَنًا . »

أَمَّا الجُزْءُ ٱلمُرْتَفِعُ مِنْ ذٰلِكَ ٱلكَهْفِ فَقَدْ وُضِعَتْ فيهِ مِحَفَّةٌ مِنَ ٱلخَشَبِ ٱلأَسْوَدِ . وَفَجْأَةً سَمِعْتُ هُتافًا بِٱلعَرَبِيَّةِ : « هِي ! هِي ! » وَعِنْدَئِذٍ ٱنْبَطَحَ ٱلجَميعُ عَلى وُجوهِهِمْ ، حَتّى إِنَّني وَجَدْتُ نَفْسي ٱلشَّخْصَ ٱلوَحيدَ ٱلَّذي ظَلَّ واقِفًا عَلى قَدَمَيْهِ . ثُمَّ أَقْبَلَ مِنْ مَمَرٍّ عَلى ٱلجانِبِ ٱلأَيْسَرِ صَفٌّ مِنَ ٱلحُرّاسِ يَتْبَعُهُمْ عِشْرونَ مِنَ ٱلخَدَمِ ٱلذُّكورِ ، وَخَلْفَهُمْ عِشْرونَ مِنَ ٱلنِّساءِ ٱللّاتي كُنَّ يَحْمِلْنَ ٱلمَشاعِلَ . وَأَخيرًا أَقْبَلَتْ عائِشَةُ بِذاتِها وَقَدْ تَدَثَّرَتْ مِنْ رَأْسِها لِأَخْمَصِ قَدَمَيْها وَجَلَسَتْ عَلى ٱلمِحَفَّةِ ، ثُمَّ كَلَّمَتْني بِٱليونانِيَّةِ ، وَلَعَلَّها أَرادَتْ أَلّا يَفْهَمَ ٱلآخَرونَ حَديثَها .

قالَتْ : « تَعالَ إِلى هُنا يا هُولي ، وَٱجْلِسْ عِنْدَ قَدَمَيَّ لِتَرى كَيْفَ أَحْكُمُ عَلى ٱلآثِمينَ . هَلْ نِمْتَ جَيِّدًا يا هُولي ؟ »

أَجَبْتُها : « لا ، لَمْ أَنَمْ جَيِّدًا ! » وَكُنْتُ أَخْشى أَنْ تَكونَ قَدْ عَرَفَتْ كَيْفَ قَضَيْتُ لَيْلَتي .

قالَتْ « شي » : « أَنا أَيْضًا لَمْ أَنَمْ جَيِّدًا ، وَقَدْ حَلَمْتُ بِشَخْصٍ أُحِبُّهُ ، كَما حَلَمْتُ أَيْضًا بِشَخْصٍ أَكْرَهُهُ . أَحْضِروا ٱلرِّجالَ ! »

وَٱقْتيدَ ٱلسُّجَناءُ إِلَيْها فَسَأَلَتْني : « هَلْ تَعْرِفُ هٰؤُلاءِ ٱلرِّجالَ ؟ قُصَّ عَلَيَّ ما حَدَثَ . »

حَكَيْتُ ما حَدَثَ بِإِيجازٍ ، وَسَمِعَ ٱلجَميعُ قِصَّتي في صَمْتٍ تامٍّ .

وَرَوى بِلالِي ٱلقِصَّةَ نَفْسَها مِنْ وُجْهَةِ نَظَرِهِ . وَبَعْدَ ذٰلِكَ قالَتْ « شي » تُخاطِبُ ٱلرِّجالَ بِصَوْتٍ بارِدٍ كَالثَّلْجِ : « لَقَدْ سَمِعْتُمْ ما قالاهُ ، فَما قَوْلُكُمْ ؟ »

لَمْ يُجِبْ أَحَدٌ عَنْ سُؤالِها ، إِلّا أَنَّ واحِدًا مِنَ ٱلسُّجَناءِ ٱلْتَمَسَ مِنْها ٱلرَّحْمَةَ .

وَخَيَّمَ ٱلسُّكونُ عَلى ٱلمَكانِ ، وَوَقَفَ ٱلسُّجَناءُ مُطَأْطِئي ٱلرُّؤوسِ . أَمّا بَقِيَّةُ ٱلنّاسِ فَقَدْ ظَلّوا مُنْبَطِحينَ عَلى ٱلأَرْضِ ، يَنْظُرونَ مِنْ خِلالِ أَصابِعِهِمْ إِلى ٱلمَلِكَةِ ٱلَّتي قالَتْ بَعْدَ ذٰلِكَ : « فَلْيُؤْخَذوا إِلى مَكانِ ٱلمَوْتِ . »

فَٱلْتَمَسْتُ مِنْها أَنْ تَرْحَمَهُمْ ، وَلٰكِنَّها قالَتْ بِٱليونانِيَّةِ : « هٰذا غَيْرُ مُمْكِنٍ . لَوْ أَنَّني أَظْهَرْتُ أَيَّ قَدْرٍ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ؛ فَلَنْ تُكْتَبَ لَكُمُ ٱلسَّلامَةُ لِيَوْمٍ واحِدٍ . »

ثُمَّ ٱسْتَدارَتْ إِلى قائِدِ ٱلحُرّاسِ قائِلَةً : « خُذْهُمْ بَعيدًا ! »

الفَصْــلُ ٱلعِشْــرونَ
كَهْــفُ ٱلمَوْتـــى

اِقْتادَ ٱلحُرّاسُ ٱلسُّجَناءَ بَعيدًا ، وَغادَرَ بَقِيَّةُ ٱلنّاسِ ٱلقاعَةَ وَهُمْ يَسيرونَ عَلى أَيْديهِمْ وَرُكَبِهِمْ ، وَبَقيتُ أَنا وَٱلمَلِكَةُ وَٱثْنانِ فَقَطْ مِنَ ٱلخَدَمِ . وَنَهَضْتُ واقِفًا لِأَنْصَرِفَ ، فَقالَتْ لي : « اِبْقَ يا هُولِي . هَلْ تَوَدُّ أَنْ تَرى بَعْضَ عَجائِبِ هٰذا ٱلمَكانِ ؟ أُنْظُرْ إِلى هٰذا ٱلكَهْفِ ؛ لَقَدِ ٱشْتَغَلَ عَشَراتُ ٱلآلافِ مِنَ ٱلرِّجالِ سَنَواتٍ عَديدَةً في إِنْشائِهِ . وَكانَ شَعْبُ خُور مِثْلَ قُدَماءِ ٱلمِصْرِيِّينَ : فَقَدْ كانوا يُفَكِّرونَ في ٱلمَوْتى أَكْثَرَ مِمّا يُفَكِّرونَ في ٱلأَحْياءِ .» وَأَشارَتْ إِلى بَعْضِ ٱلكِتاباتِ عَلى ٱلحائِطِ ، فَرَفَعَ ٱلخادِمانِ يَدَيْهِما بِٱلمَشاعِلِ ، وَقَرَأَتْ لي :

« في هٰذا ٱلعامِ ، ٱلَّذي يُوافِقُ مُرورَ أَرْبَعَةِ آلافٍ وَمِئَتَيْنِ وَتِسْعٍ وَخَمْسينَ سَنَةً عَلى إِنْشاءِ مَدينَةِ خُور ، تَمَّ في عَهْدِ « تِسْنو » مَلِكِ خُور ، عَمَلُ هٰذا ٱلكَهْفِ لِيَكونَ مَوْضِعَ راحَةٍ لِلْمَوْتى . »

ثُمَّ ٱلْتَفَتَتْ إِلَيَّ قائِلَةً : « أَ تَعْلَمُ ، يا هُولِي ، أَنَّني أَعْرِفُ هٰذا

ٱلكَهْفَ ، كَما هُوَ ٱلآنَ ، مُنْذُ أَلْفَيْ عامٍ ، وَقَدْ بُنِيَتِ ٱلمَدينَةُ قَبْلَهُ بِأَرْبَعَةِ آلافِ عامٍ . وَٱلآنَ ٱتْبَعْني لِتَرى كَيْفَ كانَتِ ٱلنِّهايَةُ . »

وَقادَتْني إِلى مُنْتَصَفِ ٱلكَهْفِ حَيْثُ ثُبِّتَ بِٱلأَرْضِ حَجَرٌ مُسْتَديرٌ ضَخْمٌ ، وَكانَتْ ثَمَّةَ كِتابَةٌ في مُرَبَّعٍ عَلى ٱلحائِطِ ٱلقَريبِ مِنَ ٱلحَجَرِ قَرَأَتْها بِصَوْتٍ عالٍ :

« أَنا « جُنْبُو » ، كاهِنٌ بِمَدينَةِ خُور . أَكْتُبُ هٰذا بَعْدَ مُضِيِّ أَرْبَعَةِ آلافٍ وَثَمانِمِئَةٍ وَثَلاثَةِ أَعْوامٍ عَلى إِنْشاءِ هٰذِهِ ٱلمَدينَةِ . لَقَدْ سَقَطَتْ مَدينَةُ خُور ، وَهٰذِهِ هِيَ مَقْبَرَةُ شَعْبِها : فَقَدْ خَيَّمَتْ مُنْذُ عامَيْنِ سَحابَةٌ كَبيرَةٌ عَلى ٱلمَدينَةِ ، وَٱجْتاحَ شَعْبَها وَباءٌ ، فَٱسْوَدَّ لَوْنُهُمْ ، وَماتوا : ٱلغَنِيُّ مِنْهُمْ وَٱلفَقيرُ ، وَٱلكَبيرُ وَٱلصَّغيرُ . وَكانَ عَدَدُ ٱلمَوْتى كَبيرًا لِدَرَجَةٍ صَعُبَ مَعَها حِفْظُ أَجْسادِهِمْ وَفْقًا لِعاداتِ قَوْمي ؛ لِذا فَقَدْ أُلْقِيَتِ ٱلجُثَثُ في ٱلوَهْدَةِ ٱلعَميقَةِ تَحْتَ ٱلحَجَرِ ٱلمُسْتَديرِ . أَمّا ٱلقَلائِلُ ٱلَّذينَ بَقَوْا أَحْياءً فَقَدْ نَزَحوا إِلى ٱلشّاطِئِ ، وَرَكِبوا سَفينَةً أَبْحَرَتْ بِهِمْ شَمالًا . وَأَنا « جُنْبُو » ، ٱلَّذي يَكْتُبُ هٰذا ، آخِرُ مَنْ بَقِيَ حَيًّا في هٰذِهِ ٱلمَدينَةِ ٱلعَظيمَةِ . »

ثُمَّ سَأَلَتْني : « أَلا تَعْتَقِدُ يا هُولِي أَنَّ أُولٰئِكَ ٱلَّذينَ أَبْحَروا شَمالًا مِنْ شَعْبِ خُور هُمْ أَجْدادُ ٱلمِصْرِيِّينَ ٱلأَوائِلِ ؟ تَعالَ وَسَأُريكَ ٱلوَهْدَةَ ٱلعَميقَةَ ٱلَّتي تُشيرُ إِلَيْها ٱلكِتابَةُ . »

تَبِعْتُها إِلى مَمَرٍّ جانِبِيٍّ ، وَنَزَلْنا دَرَجاتٍ عَديدَةً حَتّى وَصَلْنا إِلى مَمَرٍّ

آخَرَ يُؤَدّي إلى أَسْفَلَ ، وَفَجْأَةً ٱنْتَهى هٰذا ٱلمَمَرُّ . وَرَفَعَ ٱلخادِمانِ يَدَيْهِما بِٱلمِشْعَلَيْنِ فَرَأَيْتُ مَشْهَدًا لَنْ أَرى مَثيلَهُ في حَياتي ، وَلا أَتَمَنّى أَنْ أَرى مَثيلًا لَهُ !

كُنّا نَقِفُ عَلى شَفا هُوَّةٍ عَميقَةٍ في ٱلصَّخْرِ تَبْلُغُ مِنَ ٱلِٱتِّساعِ وَٱلعُمْقِ حَدًّا يَجْعَلُ مِنَ ٱلمُمْكِنِ أَنْ يوضَعَ بِها قَصْرٌ ضَخْمٌ . وَكانَتِ ٱلهُوَّةُ مَمْلوءَةً بِأَكْداسٍ مِنَ ٱلعِظامِ ٱلبَيْضاءِ ، وَآلافِ ٱلجُثَثِ وَٱلهَياكِلِ ٱلعَظْمِيَّةِ .

أَطْلَقْتُ صَيْحَةَ ذُعْرٍ وَدَهْشَةٍ ، فَتَرَدَّدَ صَداها في أَرْجاءِ ذٰلِكَ ٱلمَكانِ ٱلواسِعِ ، حَتّى إِنَّ جُمْجُمَةً كانَتْ مُسْتَقِرَّةً فَوْقَ كَوْمَةِ ٱلعِظامِ مُنْذُ



آلافِ ٱلسِّنينَ ، تَدَحْرَجَتْ وَجَرَفَتْ مَعَها ٱلكَثيرَ مِنَ ٱلعِظامِ وَٱلجَماجِمِ ، وَكَأَنَّ ٱلحَياةَ دَبَّتْ في ٱلمَكانِ مِنْ جَديدٍ .

قُلْتُ : « هَيّا بِنا فَقَدْ رَأَيْتُ ما فيهِ ٱلكِفايَةُ . »

ٱنْعَطَفَتْ « شي » في مَمَرٍّ جانِبِيٍّ يَبْدَأُ مِنَ ٱلطَّريقِ ٱلَّذي جِئْنا مِنْهُ ، وَقالَتْ : « لَقَدْ ظَلَّ شَعْبُ مَدينَةِ خور يَحْفَظُ جُثَثَ ٱلمَوْتى مِنْهُمْ حَتّى ٱلوَقْتِ ٱلَّذي نَزَلَ بِهِمْ ذٰلِكَ ٱلوَباءُ ، وَسَوْفَ تَرى هٰذا بِنَفْسِكَ . »

دَخَلْنا إِلى غُرْفَةٍ صَغيرَةٍ تُماثِلُ تِلْكَ ٱلَّتي قَضَيْتُ فيها لَيْلَتي في أَوَّلِ مَكانٍ تَوَقَّفْنا فيهِ ، وَكانَ بِها رَفّانِ حَجَرِيّانِ . وَكانَتْ فَوْقَ كُلٍّ مِنْهُما جُثَّةٌ مُغَطّاةٌ بِٱلقُماشِ .

قالَتْ : « اِرْفَعِ ٱلقُماشَ يا هولي . » وَلَمّا تَوانَيْتُ أَزاحَتِ ٱلقُماشَ بِنَفْسِها ، فَكَشَفَتْ عَنْ جُثَّةِ ٱمْرَأَةٍ في ٱلخامِسَةِ وَٱلثَّلاثينَ مِنْ عُمْرِها : كانَ وَجْهُها سَليمًا مِثْلَ وُجوهِ ٱلأَحْياءِ ، وَبَدَتْ كَأَنَّها نائِمَةٌ . وَكانَتْ تَحْتَضِنُ بَيْنَ ذِراعَيْها طِفْلًا وَجْهُهُ نَحْوَ صَدْرِها . كانَ مَشْهَدًا حُلْوًا وَمُؤَثِّرًا حَتّى إِنَّني أَسْرَعْتُ بِٱلِٱبْتِعادِ .

وَكانَتْ عَلى ٱلرَّفِّ ٱلحَجَرِيِّ ٱلآخَرِ جُثَّةُ زَوْجِها : وَكانَ رَجُلًا مُسِنًّا أَشْيَبَ ٱللِّحْيَةِ . وَأَعْتَقِدُ أَنَّهُ تُوُفِّيَ بَعْدَها بِسَنَواتٍ عَديدَةٍ وَجيءَ بِهِ إِلى هٰذا ٱلمَكانِ لِيَسْتَقِرَّ بِجِوارِ زَوْجَتِهِ وَطِفْلِهِ .

دَخلْنا مَقابِرَ أُخرى ، وَكانَ حِفْظُ ٱلجُثَثِ في بَعْضِها غَيْرَ مُتْقَنٍ ، لِدَرَجَةِ أَنَّ ٱلجُثَّةَ كانَتْ تَتَحَلَّلُ بِمُجَرَّدِ لَمْسِها . أَمّا مُعْظَمُ ٱلمَقابِرِ فَقَدْ كانَ حِفْظُ ٱلجُثَثِ فيها مُتْقَنًا ، وَبَدا ٱلمَوْتى وَكَأَنَّهُمْ نائِمونَ .

قالَتْ أَخيرًا : « تَعالَ ، سَأُريكَ « تِسْنُو » ٱلمَلِكَ ٱلعَظيمَ . »

قُلْتُ : « لَقَدْ رَأَيْتُ ما فيهِ ٱلكِفايَةُ . فَلْنَبْتَعِدْ عَنْ هٰذا ٱلمَكانِ . »

الفَصْلُ الحادي وَٱلعِشْرونَ

عائِشَــةُ وَلِيُــو

عِنْدَما عُدْنا إلى حُجْرَةِ عائِشَةَ ٱلْتَفَتَتْ إِلَيَّ فَجْأَةً وَقالَتْ : « سَوْفَ آتي مَعَكَ لِأَرى هٰذا ٱلشّابَّ ٱلَّذي تُسَمّونَهُ ٱلأَسَدَ ؟ لا بُدَّ أَنْ يَكونَ ٱلمَرَضُ قَدْ أَخَذَ مَجْراهُ ، وَسَوْفَ أُنْقِذُهُ إذا أَشْرَفَ عَلى ٱلمَوْتِ . اِذْهَبْ إِلَيْهِ ، وَسَأَلْحَقُ بِكَ بَعْدَ أَنْ أَنْتَهِيَ مِنْ تَجْهيزِ ما يَلْزَمُ . »

وَجَدْتُ كُلًّا مِنْ جوب وَأُوسْتان في حالَةِ حُزْنٍ شَديدٍ ، وَقالا لي : « إِنَّ لِيُو يُحْتَضَرُ ، وَقَدْ بَحَثْنا عَنْكَ في كُلِّ مَكانٍ . »

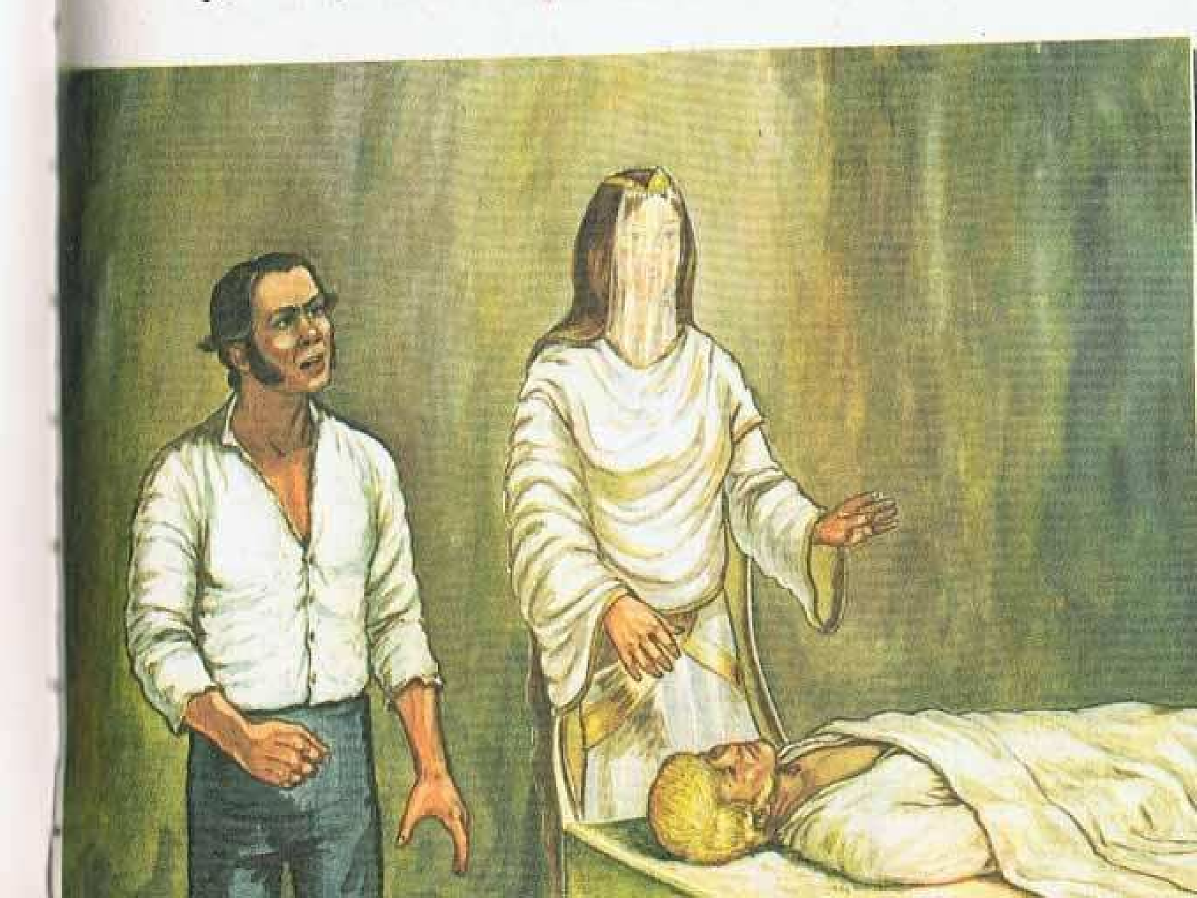
وَتَبَيَّنَ لي أَنَّهُ لَنْ تَنْقَضِيَ ساعَةٌ ، بَلْ لَنْ تَنْقَضِيَ بِضْعُ دَقائِقَ حَتّى يَصِلَ إلى حالَةٍ لا يُجْدي مَعَها ٱلعِلاجُ ، وَلُمْتُ نَفْسي عَلى تَرْكي إِيّاهُ . أَمّا جوب فَقَدْ راحَ يَبْكي بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ ، وَلَمّا نَظَرْتُ إِلَيْهِ غادَرَ ٱلحُجْرَةَ لِيُخْفِيَ حُزْنَهُ . وَبَعْدَ ذٰلِكَ عادَ مُسْرِعًا إلى ٱلغُرْفَةِ وَقَدْ وَقَفَ شَعْرُ رَأْسِهِ فَزَعًا ، وَصاحَ : « فَلْيُساعِدْنا ٱللهُ يا سَيِّدي ! إِنَّ شَخْصًا ما قَدْ أَتى مِنْ قَبْرِهِ ، وَهُوَ في طَريقِهِ إِلَيْنا عَبْرَ هٰذا ٱلمَمَرِّ . »

وَأَدْرَكْتُ أَنَّهُ رَأى عائِشَةَ مُتَّشِحَةً بِغِلالَتِها ٱلشَّبيهَةِ بِكَفَنِ ٱلمَوْتى . وَدَخلَتْ عائِشَةُ ٱلحُجْرَةَ ، فَجَرى جُوب مَذْعورًا نَحْوَ رُكْنٍ مِنْ أَرْكانِها .

قُلْتُ لِعائِشَةَ : « لَقَدْ جِئْتِ في ٱلوَقْتِ ٱلمُناسِبِ يا عائِشَةُ ، فَصَديقي يَرْقُدُ عَلى شَفا ٱلمَوْتِ . »

قالَتْ : « إنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ ماتَ ، فَإِنَّني أَسْتَطيعُ أَنْ أُعيدَ إِلَيْهِ حَيَوِيَّتَهُ . اُطْلُبْ مِنْ هٰذا ٱلرَّجُلِ وَتِلْكَ ٱلفَتاةِ أَنْ يُغادِرا ٱلمَكانَ . »

اِنْصَرَفَ جُوب عَلى ٱلفَوْرِ ، أَمّا أُوسْتان فَبَقِيَتْ . وَهَمَسَتْ وَقَدْ



تَقاسَمَها خَوْفُها مِنَ ٱلمَلِكَةِ وَقَلَقُها عَلى لِيُو : « ماذا تُريدُ « شِيْ » ؟ أَلا يَحِقُّ لِلزَّوْجَةِ أَنْ تَبْقى إلى جِوارِ زَوْجِها ؟ »

قالَتْ « شِيْ » : « اِنْصَرِفي ! » فَخَرَّتْ أُوسْتان عَلى يَدَيْها وَرُكْبَتَيْها وَغادَرَتِ ٱلغُرْفَةَ .

اِتَّجَهَتْ عائِشَةُ إلى ٱلفِراشِ ٱلَّذي كانَ يَرْقُدُ عَلَيْهِ لِيُو ، وَأَزاحَتْ عَنْهُ ٱلغِطاءَ لِتَنْظُرَ إلى وَجْهِهِ . وَسَمِعْتُ صَرْخَةً رَهيبَةً ، وَرَأَيْتُها تَتَراجَعُ وَكَأَنَّ صاعِقَةً أَصابَتْها .

سَأَلْتُها : « ماذا حَدَثَ يا عائِشَةُ ؟ هَلْ ماتَ ؟ »

اِنْدَفَعَتْ نَحْوي كَٱلحَيَوانِ الهائِجِ وَصاحَتْ : « لِماذا أَخْفَيْتَ ذٰلِكَ عَنّي ؟ ها هُوَ ذا حَبيبي كاليكْراتِس ٱلمَفْقودُ قَدْ عادَ إِلَيَّ أَخيرًا ! » ثُمَّ بَدَأَتْ تَضْحَكُ وَتَبْكي كَما تَفْعَلُ أَيَّةُ ٱمْرَأَةٍ في لَحْظَةِ فَرَحٍ غامِرٍ .

قُلْتُ : « إنْ لَمْ تَفْعَلي شَيْئًا لِتُنْقِذي حَبيبَكِ كاليكْراتِس ، فَلَنْ يُجْدِيَ مَعَهُ بَعْدَ ذٰلِكَ أَيُّ عِلاجٍ . »

وَأَخْرَجَتْ مِنْ تَحْتِ ثَوْبِها بَرْطَمانًا صَغيرًا ، وَقالَت : « صُبَّ ما فيهِ في فَمِهِ . أَسْرِعْ ! إنَّهُ يُحْتَضَرُ . »

وَكانَتِ ٱللَّحْظَةُ ٱلمُناسِبَةَ : فَقَدْ رَمِدَ وَجْهُهُ ، وَخَفَتَتْ أَنْفاسُهُ . وَٱنْفَغَرَ فَمُهُ ؛ فَأَمْسَكَتْ عائِشَةُ رَأْسَهُ وَصَبَّتِ ٱلسّائِلَ في فَمِهِ . وَٱعْتَرى

لِيُو تَغَيُّرٌ بَطيءٌ : فَقَدِ ٱزْرَقَّ وَجْهُهُ ، وبَدَتْ ضَرَباتُ قَلْبِهِ وَكَأَنَّها قَدْ تَوَقَّفَتْ ، وَكانَتْ قَدْ ضَعُفَتْ قَبْلَ ذٰلِكَ . وَنَظَرْتُ إلى عائِشَةَ : كانَتْ لا تَزالُ تُمْسِكُ بِرَأْسِ لِيُو وَقَدْ شَحَبَ وَجْهُها ، وَكانَتْ عَيْناها أَشْبَهَ بِبَحْرٍ تَتَلاطَمُ فيهِ أَمْواجُ ٱلحُبِّ وَٱلخَوْفِ . وَبَدا مِنَ ٱلواضِحِ أَنَّها لَمْ تَدْري إنْ كانَ سَيَعيشُ أَمْ سَيَموتُ .

وَٱنْقَضَتْ خَمْسُ دَقائِقَ ، وَرَأَيْتُ أَنَّها بَدَأَتْ تَفْقِدُ ٱلأَمَلَ ، فَسَأَلْتُها : « هَلْ فاتَ ٱلأَوانُ ؟ » فَأَخْفَتْ رَأْسَها بَيْنَ كَفَّيْها ، وَلَمْ تُجِبْ . وَعِنْدَئِذٍ سَمِعْتُ لِيُو يَتَنَفَّسُ نَفَسًا عَميقًا ، فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ وَرَأَيْتُ ٱلحَيَوِيَّةَ تَكْسو وَجْهَهُ بِبُطْءٍ ، ثُمَّ ٱنْقَلَبَ عَلى جانِبِهِ .

هَمَسَتْ « شي » قائِلَةً : « لَقَدْ أُنْقِذَ ! » وَأَخَذَتْ تَبْكي حَتّى كادَ قَلْبُها أَنْ يَنْفَطِرَ .

كَفَّتْ عَنِ ٱلبُكاءِ وَقالَتْ : « سَيَنامُ ٱثْنَتَي عَشْرَةَ ساعَةً ، وَعِنْدَما يَسْتَيْقِظُ مِنْ نَوْمِهِ سَيَكونُ قَدْ شُفِيَ تَمامًا . » ثُمَّ مَسَحَتْ بِيَدِها بِرِفْقٍ عَلى شَعْرِهِ ٱلذَّهَبِيِّ ، وَقَبَّلَتْهُ وَهَبَّتْ واقِفَةً .

الفَصْلُ ٱلثّاني وَالعِشْرونَ
ٱنْصَرِفي أَيَّتُها ٱلمَرْأَةُ !

وَقَفَتْ عائِشَةُ لَحْظَةً ، ثُمَّ خَطَرَ بِبالِها شَيْءٌ ، فَقالَتْ : « لَقَدْ كِدْتُ أَنْسى تِلْكَ ٱلمَرْأَةَ أُوسْتان ، ما هِيَ صِلَتُها بِكاليكْراتِس ؟ هَلْ هِيَ خادِمَتُهُ ؟ »

قُلْتُ : « إِنَّني أَفْهَمُ أَنَّها زَوْجَتُهُ وَفْقًا لِتَقاليدِ شَعْبِ ٱلأَماهاجِر ، وَلٰكِنَّني لا أَعْرِفُ مَدى صِحَّةِ ذٰلِكَ . »

فَٱرْبَدَّ وَجْهُها ، وَقالَتْ : « إِذًا يَجِبُ أَنْ تَموتَ . »

صِحْتُ مُتَسائِلًا : « لِماذا ؟ لِماذا ؟ ماذا جَنَتْ ؟ هَلْ سَتُظْهِرينَ سَعادَتَكِ بِعَوْدَةِ كاليكْراتِس إِلَيْكِ بِأَنْ تَقْتُلي شَخْصًا يُحِبُّهُ ؟ لَقَدْ قُلْتِ إِنَّكِ ٱرْتَكَبْتِ فيما مَضى خَطَأً شَنيعًا ضِدَّ هٰذا ٱلرَّجُلِ بِأَنْ قَتَلْتِهِ بِيَدَيْكِ ، لِأَنَّ أَمينارْتاس ٱلمِصْرِيَّةَ ٱلَّتي أَحَبَّها ... »

فَقاطَعَتْني مُتَسائِلَةً : « كَيْفَ عَرَفْتَ ذٰلِكَ ؟ إِنَّني لَمْ أُخْبِرْكَ بِهٰذا قَطُّ ! »

لَقَدْ فاجَأَتْني بِسُؤالِها ، وَلَمْ أَكُنْ قَدْ ذَكَرْتُ شَيْئًا لِأَحَدٍ عَنِ ٱلصُّنْدوقِ ٱلحَديدِيِّ وَما كانَ يَحْتَويهِ .

قُلْتُ : « لَعَلَّني ... لَعَلَّني كُنْتُ أَحْلُمُ . »

وَلٰكِنَّ عائِشَةَ لَمْ تَكُنْ تُنْصِتُ لِما أَقولُ ؛ فَقَدْ وَقَفَتْ صامِتَةً لَحْظَةً ، ثُمَّ بَدَتْ وَكَأَنَّها تُفَكِّرُ بِصَوْتٍ عالٍ .

قالَتْ : « سَوْفَ أَتَصَرَّفُ بِرَحْمَةٍ . لَسْتُ قاسِيَةً ، وَلا أُحِبُّ أَنْ أَرى أَحَدًا يَتَعَذَّبُ ، أَوْ أَنْ أَتَسَبَّبَ في عَذابِ أَحَدٍ . » ثُمَّ ٱسْتَدارَتْ إِلَيَّ قائِلَةً : « إِسْتَدْعِها بِسُرْعَةٍ قَبْلَ أَنْ أُغَيِّرَ رَأْيِي . »

خَرَجْتُ إِلى ٱلمَمَرِّ وَنادَيْتُ أُوسْتان ، فَأَقْبَلَتْ نَحْوي وَسَأَلَتْني : « هَلْ ماتَ سَيِّدي ؟ لا تَقُلْ إِنَّهُ ماتَ . »

قُلْتُ : « إِنَّهُ حَيٌّ ، فَقَدْ أَنْقَذَتْ « شي » حَياتَهُ . »

وَخَرَّتْ أُوسْتان راكِعَةً عَلى رُكْبَتَيْها وَيَدَيْها عِنْدَما كانَتْ في حَضْرَةِ عائِشَةَ ٱلَّتي قالَتْ بِصَوْتٍ مُفْعَمٍ بِٱلبُرودِ : « إِنْهَضي ! تَعالَيْ إِلى هُنا ! مَنْ هٰذا ٱلرَّجُلُ ؟ »

أَجابَتْ أُوسْتان : « إِنَّهُ زَوْجي ؛ وَقَدْ تَزَوَّجْتُهُ يا مَوْلاتي وَفْقًا لِتَقاليدِ بِلادِنا . »

قالَتْ عائِشَةُ : « لَقَدِ ٱرْتَكَبْتِ إِثْمًا بِزَواجِكِ بِهٰذا ٱلرَّجُلِ ٱلغَريبِ .

إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ قَوْمِكِ ، وَلا تَسْري ٱلتَّقاليدُ عَلَيْهِ . عودي إِلى مَوْطِنِكِ ، وَإِيّاكِ أَنْ تَتَحَدَّثي إِلَيْهِ ، أَوْ أَنْ تُقابِليهِ مَرَّةً أُخْرى . إِنْصَرِفي ! »

وَلٰكِنَّ أُوسْتان لَمْ تَتَحَرَّكْ ، فَصاحَتْ بِها عائِشَةُ : « إِنْصَرِفي أَيَّتُها ٱلمَرْأَةُ ! »

فَنَظَرَتْ إِلَيْها أُوسْتان وَقالَتْ : « لا ، لَنْ أَنْصَرِفَ . إِنَّهُ زَوْجي وَأَنا أُحِبُّهُ ، وَلَنْ أَتْرُكَهُ . وَلَيْسَ مِنْ حَقِّكِ أَنْ تَأْمُريني بِتَرْكِ زَوْجي . »

قُلْتُ : « الرَّحْمَةَ يا عائِشَةُ ! كوني رَحيمَةً ! »

فَقالَتْ بِبُرودٍ : « لَوْ لَمْ أَكُنْ رَحيمَةً لَكانَتِ ٱلآنَ في عِدادِ ٱلأَمْواتِ . إِنْصَرِفي أَيَّتُها المَرْأَةُ قَبْلَ أَنْ أَفْتِكَ بِكِ . »

قالَتْ أُوسْتان : « لَنْ أَنْصَرِفَ ! إِنَّهُ لي ، إِنَّهُ لي . لَقَدْ أَنْقَذْتُ حَياتَهُ ، وَلَنْ أَتْرُكَهُ أَبَدًا ! »

وَأَتَتْ عائِشَةُ بِحَرَكَةٍ خاطِفَةٍ لَمْ أَتَبَيَّنْها لِفَرْطِ سُرْعَتِها . وَيَبْدو أَنَّها ضَرَبَتْ أُوسْتان بِيَدِها بِخِفَّةٍ فَوْقَ رَأْسِها ، فَوَضَعَتِ ٱلفَتاةُ يَدَيْها عَلى رَأْسِها وَسَقَطَتْ عَلى ظَهْرِها . فَنَظَرْتُ إِلَيْها وَصَرَخْتُ إِذْ رَأَيْتُ عَلى شَعْرِ أُوسْتان ٱلدّاكِنِ آثارًا لِأَصابِعَ ثَلاثَةٍ لَوْنُها أَبْيَضُ مِثْلُ ٱلثَّلْجِ .

ضَحِكَتْ عائِشَةُ وَقالَتْ : « أَتَظُنِّينَ أَيَّتُها ٱلغَبِيَّةُ أَنَّني لا أَسْتَطيعُ أَنْ أَقْتُلَ ؟ أُنْظُري في هٰذِهِ ٱلمِرْآةِ — وَٱلآنَ ٱنْصَرِفي قَبْلَ أَنْ أَضْرِبَكِ ثانِيَةً . »



وَنَظَرَتْ أُوسْتان في مِرْآةِ لِيُو ٱلْمُعَلَّقَةِ عَلى ٱلحائِطِ ، فَقالَتْ لَها عائِشَةُ : « إِنَّني لَوْ رَأَيْتُكِ مَرَّةً أُخرى لَسَحَقْتُ عِظامَكِ وَجَعَلْتُها مَسْحوقًا أَشَدَّ بَياضًا مِنْ تِلْكَ ٱلعَلاماتِ ٱلَّتي تَرَكْتُها عَلى شَعْرِكِ . »

وَجَرَتِ ٱلفَتاةُ مِنَ ٱلحُجْرَةِ ، وَٱسْتَدارَتْ عائِشَةُ نَحْوي قائِلَةً : « سَآمُرُ خَدَمي بِأَنْ يَحْمِلوا سَيِّدي كاليكْراتِس إِلى حُجْرَةٍ قَريبَةٍ مِنْ حُجْرَتي ، حَتّى يَتَسَنّى لي أَنْ أَسْهَرَ عَلَيْهِ وَأَكونَ مُسْتَعِدَّةً عِنْدَما يَسْتَيْقِظُ . وَسَوْفَ تَأْتي أَنْتَ وَخادِمُكَ أَيْضًا . وَنَظَرًا لِأَنَّكَ حَريصٌ عَلى حَياتِكَ ، فَلا تَقُلْ شَيْئًا لِكاليكْراتِس عَنْ كَيْفِيَّةِ ذَهابِ هٰذِهِ ٱلْمَرْأَةِ ؛

وَلا تُكْثِرْ مِنَ ٱلحَديثِ عَنّي . »

وَخَرَجْتُ ، وَجاءَ ٱلخَدَمُ بَعْدَ قَليلٍ لِيَنْقُلوا أَشْياءَنا .

الفَصْلُ ٱلثّالِثُ وَٱلعِشْرونَ

الرَّقْصَـــــــــــــــــــــةُ

حانَ وَقْتُ ٱسْتيقاظِ لِيُو وَفْقًا لِتَقْديرِ عائِشَةَ ٱلَّتي دَخَلَتِ ٱلحُجْرَةَ قَبْلَ أَنْ يَسْتَيْقِظَ ، وَقالَتْ : « سَتَرى ، يا هُولي ، عِنْدَما يَسْتَيْقِظُ ، كَيْفَ زالَ عَنْهُ ٱلمَرَضُ . »

وَما إِنْ قالَتْ ذٰلِكَ حَتّى تَقَلَّبَ لِيُو في فِراشِهِ ، وَفَتَحَ عَيْنَيْهِ . وَلَمّا رَأى عائِشَةَ قالَ لَها : « أَهْلًا يا أُوسْتان ! لِماذا تُغَطّينَ رَأْسَكِ هٰكَذا ؟ أَهْلًا يا جُوب ! كَيْفَ حالَتي ٱلآنَ ؟ »

أَجابَهُ جُوب : « لا أَعْرِفُ في ٱلواقِعِ يا سَيِّدي ! سَأَذْهَبُ لِأُحْضِرَ لَكَ بَعْضَ ٱللَّبَنِ . »

وَنَظَرَ لِيُو إِلى عائِشَةَ ثانِيَةً ثُمَّ قالَ : « هٰذِهِ لَيْسَتْ أُوسْتان . أَيْنَ أُوسْتان ؟ »

أَجابَتْهُ عائِشَةُ : « لَقَدِ ٱنْصَرَفَتْ ، وَحَلَلْتُ أَنا مَحَلَّها . »

وَٱسْتَغْرَقَ لِيُو في ٱلنَّوْمِ مَرَّةً أُخْرى .

وَفي ٱليَوْمِ ٱلتّالي كانَ قَدِ ٱسْتَرَدَّ عافِيَتَهُ تَقْريبًا وَٱلْتَأَمَتْ جِراحُهُ . وَٱسْتَمَرَّتْ عائِشَةُ تَقومُ عَلى خِدْمَتِهِ ، إِلّا أَنَّهُ لَمْ يَكُفَّ عَنِ ٱلسُّؤالِ عَنْ أُوسْتان . وَتَمَلَّكَهُ فُضولٌ شَديدٌ إِزاءَ عائِشَةَ ، وَطَلَبَ مَرّاتٍ عَديدَةً أَنْ يَرى وَجْهَها . وَرَغْمَ أَنَّني لَمْ أَقُلْ لَهُ شَيْئًا عَنْها إِلّا أَنَّهُ كانَ يَعْتَقِدُ أَنَّها ٱلمَرْأَةُ ٱلَّتي وَرَدَ ذِكْرُها مَكْتوبًا عَلى شَقَفَةِ ٱلجَرَّةِ .

وَفي ٱليَوْمِ ٱلثّالِثِ ، وَبَعْدَ أَنْ فَرَغْنا مِنْ تَناوُلِ طَعامِ ٱلإِفْطارِ ، تَوَجَّهْنا إِلى غُرْفَةِ عائِشَةَ . وَكانَ لِيُو يَرْغَبُ في أَنْ يَشْكُرَها عَلى ما فَعَلَتْهُ مِنْ أَجْلِهِ ، وَيَسْأَلَها عَنْ أُوسْتان .

قالَتْ لَهُ عائِشَةُ : « لَكَ تَحِيّاتي ، وَيَسُرُّني أَنْ أَراكَ وَقَدِ ٱسْتَرْدَدْتَ عافِيَتَكَ . »

ٱنْحَنى لِيُو لَها ، وَشَكَرَها عَلى ما فَعَلَتْهُ مِنْ أَجْلِهِ بِأَحْسَنِ ما يَعْرِفُهُ مِنْ عِباراتٍ بِٱلعَرَبِيَّةِ . فَأَجابَتْهُ عائِشَةُ بِقَوْلِها : « أَرْجو أَنْ يَكونَ خَدَمي قَدْ أَحْسَنوا رِعايَتَكَ . هَلْ مِنْ خِدْمَةٍ أُؤَدّيها لَكَ ؟ »

فَأَجابَها لِيُو : « نَعَمْ . أَوَدُّ أَنْ أَعْرِفَ أَيْنَ تِلْكَ ٱلمَرْأَةُ أُوسْتان ٱلَّتي كانَتْ مَعي . »

أَجابَتْ عائِشَةُ : « آهٍ ، نَعَمْ ! الفَتاةُ ! نَعَمْ ، لَقَدْ قالَتْ إِنَّها

سَتَنْصَرِفُ — لَقَدْ أَعْدَدْتُ حَفْلًا راقِصًا سَيُقامُ ٱللَّيْلَةَ ، فَلَعَلَّكَ تَوَدُّ أَنْ تَحْضُرَهُ . وَلٰكِنْ دَعْني أُريكَ أَوَّلًا بَعْضَ عَجائِبِ هٰذا ٱلكَهْفِ . »

لَمْ يَتَمَكَّنْ لِيُو مِنْ أَنْ يَطْرَحَ أَيَّةَ أَسْئِلَةٍ أُخرى ، فَقَدْ أَمَرَتْ عائِشَةُ ٱثْنَيْنِ مِنْ خَدَمِها أَنْ يُحْضِرا ٱلمَشاعِلَ وَسارَتْ أَمامَنا . وأَرَتْنا كِتاباتِ ٱلكَهْفِ ٱلكَبيرِ ، وَٱلحَجَرَ ٱلمُسْتَديرَ ، وَٱلوَهْدَةَ ٱلعَميقَةَ ، وَكَثيرًا مِنْ جُثَثِ ٱلمَوْتى ٱلمَحْفوظَةِ في ٱلمَقابِرِ .

وَكانَ لِيُو ، بِطَبيعَةِ ٱلحالِ ، شَديدَ ٱلِاهْتِمامِ بِكُلِّ ما رَآهُ ، أَمّا جوب فَقَدْ كانَ مَرْعوبًا .

تَناوَلْنا غَداءَنا وَٱسْتَرَحْنا ، وَعُدْنا في ٱلسّاعَةِ ٱلسّادِسَةِ إِلى حُجْرَةِ عائِشَةَ ، حَيْثُ ٱزْدادَ جوب رُعْبًا عِنْدَما أُتيحَتْ لَهُ فُرْصَةُ مُشاهَدَةِ ٱلصُّوَرِ في ٱلماءِ . وَجاءَ بَعْدَ ذٰلِكَ بِلالي لِيُبْلِغَنا أَنَّ ٱلحَفْلَ ٱلرّاقِصَ مُهَيَّأٌ لِأَنْ يَبْدَأَ .

كانَ مِنَ ٱلمُقَرَّرِ أَنْ يَبْدَأَ ٱلحَفْلُ في ٱلهَواءِ ٱلطَّلْقِ في تِلْكَ ٱلمِساحَةِ ٱلواسِعَةِ وَٱلمَكْشوفَةِ أَمامَ ٱلكَهْفِ ٱلكَبيرِ . وَكانَتِ ٱلمَحافُّ قَدْ صُفَّتْ مِنْ أَجْلِنا في مَدْخَلِ ٱلكَهْفِ .

كانَ ٱلمَكانُ مُظْلِمًا ، فَتَساءَلْتُ كَيْفَ سَيَتَسَنّى لَنا أَنْ نُشاهِدَ ٱلرَّقْصَ ؟ وَفَجْأَةً شاهَدْنا عَدَدًا مِنَ ٱلرِّجالِ قادِمينَ مِنْ كُلِّ رُكْنٍ يَحْمِلونَ

أَشْياءَ مُشْتَعِلَةً بِنارٍ ساطِعَةٍ عَلى أَكْتافِهِم ، ثُمَّ أَلْقَوْها في شَكْلِ كَوْمَةٍ في مُنْتَصَفِ ٱلأَرْضِ ٱلمَكْشوفَةِ . وَكانَ لِيُو أَوَّلَ مَنِ ٱكْتَشَفَ كُنْهَ تِلْكَ ٱلأَشْياءِ ٱلَّتي كانوا يَحْمِلونَها ، إِذْ صاحَ قائِلًا :

« يا لَلْعَجَبِ ! إِنَّ هٰذِهِ ٱلأَشْياءَ ٱلمُشْتَعِلَةَ إِنْ هِيَ إِلّا جُثَثُ ٱلمَوْتى ! إِنَّها ٱلجُثَثُ ٱلمَحْفوظَةُ ٱلَّتي رَأَيْناها ، وَهِيَ تَحْتَرِقُ ٱلآنَ كَٱلشَّمْعِ . »

بَعْدَ أَنْ تَوَفَّرَتِ ٱلإِضاءَةُ جاءَ ٱلرّاقِصونَ : كانَ ثَمَّةَ مِئَةُ رَجُلٍ تَقْريبًا وَمِئَةُ ٱمْرَأَةٍ ، قَدِموا في صَمْتٍ في صَفَّيْنِ ، وَأَدَّوْا ٱلرَّقْصَةَ في صَمْتٍ تامٍّ . وَبَدا أَنَّ ٱلرَّقْصَةَ كانَتْ تَحْكي قِصَّةَ قَتْلٍ مُخيفَةً ، وَلٰكِنَّني لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَفْهَمَها جَيِّدًا وَلٰكِنَّها كانَتْ في مُجْمَلِها شَيْئًا بَغيضًا لِلْغايَةِ .

وَرَأَيْتُ ما بَدا لي كَأَنَّهُ قِرْدٌ يَمْشي حَوْلَ ٱلنّارِ ، ثُمَّ جاءَ أَسَدٌ وَبَقَرٌ وَظِباءُ ٱلماءِ ، وَحَيَواناتٌ أُخرى ، وَحَيَّةٌ ضَخْمَةٌ .

وَلَمْ تَكُنْ تِلْكَ ٱلحَيَواناتُ سِوى أَشْخاصٍ لَبِسوا جُلودَ تِلْكَ ٱلحَيَواناتِ ، وَلَمّا تَجَمَّعوا كُلُّهُمْ أَخَذوا يَرْقُصونَ ، وَكُلٌّ مِنْهُمْ يُصْدِرُ صَوْتَ ٱلحَيَوانِ ٱلَّذي يَلْبَسُ جِلْدَهُ .

سَأَلْتُ عائِشَةَ إِنْ كانَ مِنَ ٱلمُمْكِنِ لي أَنا وَلِيُو أَنْ نُغَيِّرَ مَكانَنا حَتّى نَرى تِلْكَ ٱلحَيَواناتِ عَنْ كَثَبٍ . وَٱنْتَقَلْنا إِلى مَكانٍ ناحِيَةَ ٱلشَّمالِ ، فَلاحَظْتُ أَنَّ إِحْدى ٱلرّاقِصاتِ كانَتْ تَلْبَسُ جِلْدَ لَبُؤَةٍ ، وَكانَتْ تَرْقُصُ بِنَشاطٍ زائِدٍ ، وَقَدِ ٱنْفَصَلَتْ عَنْ بَقِيَّةِ ٱلرّاقِصينَ . وَفَجْأَةً جَرَتْ مارَّةً



بنا وَآختَفتْ خَلفَنا وَسْطَ آلظِّلالِ، وَسَمِعْناها تقولُ وَهِيَ تَمُرُّ بنا : « اِتْبعاني ! » وَعَرفْنا مِنْ صَوْتِها أَنَّها أُوسْتان .

وَآستَدارَ لِيُو في آلحالِ وَتَبِعَها ، وَتَبِعْتُهُ أَنا أَيْضًا وَآلخَوفُ مِنْ مَغَبَّة

هٰذا آللِّقاءِ يَكادُ يُصيبُني بِآلغَشَيانِ .

وَسَمِعْتُها تَهْمِسُ : « إِسْتَمِعْ لي يا سَيِّدي ! إِنَّ حَياتي في خَطَرٍ ، وَمَصْدَرُهُ « شيْ آلَّتي يَجِبُ أَنْ تُطاعَ » . أَ لَمْ يُخْبِرْكَ صَديقُكَ كَيْفَ أَبْعَدَتْني ؟ لَقَدْ أَنْقَذْتُ حَياتَكَ ، وَمِنَ آلمُؤَكَّدِ أَنَّكَ لَنْ تَتَخَلّى عَنّي آلآنَ . »

أَجابَها لِيُو : « لَنْ أَتَخَلّى عَنْكِ بِطَبيعَةِ آلحالِ . »

قالَتْ : « لَيْسَ أَمامَنا سِوى شَيْءٍ واحِدٍ عَلَيْنا أَنْ نَفْعَلَهُ ، وَهُوَ أَنْ نَهْرُبَ عَلى وَجْهِ آلسُّرْعَةِ عَبْرَ آلأَراضي آلواطِئَةِ ، وَلَعَلَّها تَسْمَعُنا آلآنَ . »

وَآرْتَمَتْ أُوسْتان بَيْنَ ذِراعَيْهِ ، وَما إِنْ فَعَلَتْ ذٰلِكَ حَتّى رَأَيْتُ رَأْسَ آللَّبُوَةِ يَميلُ لِلْوَراءِ ، وَرَأَيْتُ آثارَ آلأَصابِعِ آلثَّلاثَةِ آلبَيْضاءِ تَلْمَعُ في ضَوْءِ آلنّارِ . ثُمَّ سَمِعْتُ ضَحْكَةً قَصيرَةً خَلْفَنا . وَكانَتْ ضَحْكَةَ « شِيْ » آلَّتي جاءَتْ وَمَعَها بِلالِي وَآثْنانِ مِنَ آلخَدَمِ .

الفَصْلُ ٱلرّابِعُ وَٱلعِشْرونَ

السِّحْـــــــــرُ

سادَ ٱلمَكانَ صَمْتٌ رَهيبٌ كَسَرَتْهُ عائِشَةُ حينَ قالَتْ : « أُوسْتان ! إنَّني ما كُنْتُ أَسْتَطيعُ أَنْ أَتَعَرَّفَ عَلَيْكِ بَيْنَ ٱلآخَرينَ لَوْ لَمْ أَرَ تِلْكَ ٱلعَلاماتِ ٱلبَيْضاءَ عَلى شَعْرِكِ . » وَأَشارَتْ بِيَدِها ، فَتَقَدَّمَ ٱلخادِمانِ وَأَمْسَكا ٱلفَتاةَ مِنْ ذِراعَيْها ، فَوَثَبَ لِيو إلى ٱلأَمامِ ، وَطَرَحَ أَحَدَهُما أَرْضًا .

فَقالَتْ عائِشَةُ : « لَقَدْ أَحْسَنْتَ طَرْحَ ٱلرَّجُلِ أَرْضًا ، وَلٰكِنْ دَعْهُ يُنَفِّذْ ما أَمَرْتُهُ بِهِ ، وَلَنْ يُؤْذِيَ ٱلفَتاةَ . إنَّ هَواءَ ٱللَّيْلِ بارِدٌ ، وَلَنْ يَفْعَلَ ٱلرَّجُلُ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يَأْتِيَ بِها إلى حُجْرَتي . »

وَبَلَغْنا حُجْرَةَ عائِشَةَ ، فَأَمَرَتْ جُوب وَبِلالي بِٱلاِنْصِرافِ ، وَٱلْتَفَتَتْ نَحْوي قائِلَةً : « هَلْ كانَ هٰذا مِنْ تَدْبيرِكَ ؟ »

أَجَبْتُها : « لا ! »

قالَتْ : « إذًا فَهٰذا خَطَأُها . هَلْ لَدَيْكِ ما تَقولينَهُ يا فَتاةُ ؟ »

فَأَجابَتْ أُوسْتان بِصَوْتٍ واضِحٍ وَعَميقٍ : « إنَّني لَسْتُ مَلِكَةً ،

وَلا قِبَلَ لي بِأَعْمالِ ٱلسِّحْرِ ، وَلٰكِنَّ قَلْبَ ٱلمَرْأَةِ ٱلحَقيقِيَّةِ يُدْرِكُ ٱلحَقيقَةَ ، وَثَمَّةَ نورٌ يَسْطَعُ داخِلي ، وَبِهٰذا ٱلنّورِ أَرى ٱلحَقيقَةَ . إنَّني عِنْدَما ٱلْتَقَيْتُ بِسَيِّدي لِأَوَّلِ مَرَّةٍ كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّني سَأَدْفَعُ حَياتي ثَمَنًا لِحُبّي لَهُ ، وَلٰكِنَّ حُبّي كانَ أَقْوى مِنَ ٱلمَوْتِ . وَأَعْرِفُ ٱلآنَ أَيْضًا ، وَأَنا عَلى شَفا ٱلمَوْتِ ، أَنَّكِ لَنْ تَجْني شَيْئًا بِقَتْلي . إنَّه لي ، وَسَيَظَلُّ لي دائِمًا . وَلَنْ يَنْظُرَ يَوْمًا في عَيْنَيْكِ وَيَدْعوكِ زَوْجَتَهُ . إنَّ نِهايَتَكِ قَدْ دَنَتْ وَأَرى ... »

وَدَوَّتْ صَرْخَةُ غَضَبٍ ، فَقَدْ نَهَضَتْ عائِشَةُ واقِفَةً ، وَمَدَّتْ ذِراعَها نَحْوَ أُوسْتان وَنَظَرَتْ إلَيْها نَظَراتٍ أَشْبَهَ بِالنّارِ ، حَتّى إنَّ أُوسْتان رَفَعَتْ يَدَيْها إلى رَأْسِها ، وَأَطْلَقَتْ صَرْخَةً واحِدَةً ، ثُمَّ سَقَطَتْ عَلى ظَهْرِها ؛ فَٱنْدَفَعْتُ أَنا وَلِيو نَحْوَها ، وَلٰكِنَّ ٱلحَياةَ كانَتْ قَدْ فارَقَتْها .

هَبَّ لِيو واقِفًا وَٱسْتَدارَ نَحْوَ عائِشَةَ وَكانَتْ قَدْ كَشَفَتِ ٱلنِّقابَ عَنْ وَجْهِها ، وَثَبَّتَتْ عَيْنَيْها ٱلبَرّاقَتَيْنِ عَلَيْهِ ، فَزالَتْ كُلُّ عَلاماتِ ٱلغَضَبِ مِنْ وَجْهِهِ ، وَظَلَّ واقِفًا مَكانَهُ وَكَأَنَّهُ تَحَوَّلَ إلى حَجَرٍ . وَأَدْرَكْتُ أَنَّ قُوَّتَها ٱلسِّحْرِيَّةَ قَدْ سَيْطَرَتْ عَلى عَقْلِهِ ، وَسَلَبَ جَمالُها لُبَّهُ . ثُمَّ رَأَيْتُهُ يُقاوِمُ وَيَدورُ في مُحاوَلَةٍ مِنْهُ لِلْهَرَبِ مِنْ تَأْثيرِها ، وَلٰكِنَّ عَيْنَيْها مَنَعَتاهُ .

وَشَرَعَتْ تُغَنّي بِصَوْتٍ مُنْخَفِضٍ .

وَجاءَ خادِمانِ بِسُرْعَةٍ إلى ٱلحُجْرَةِ وَحَمَلا جُثَّةَ أُوسْتان وَٱنْصَرَفا .

الفَصْلُ ٱلخامِسُ وَٱلعِشْرونَ

لِقــاءُ ٱلمَـيِّتِ وَٱلحَــيِّ

كُنْتُ أَشْبَهَ بِمَنْ يَحْلُمُ ، وَأَفَقْتُ مِنَ ٱلحُلْمِ عِنْدَما كَفَّتْ عائِشَةُ عَنِ ٱلغِناءِ . وَأَعْطَتْ لِيُو مِشْعَلًا ، وَدَعَتْنا أَنْ نَتْبَعَها ، فَسِرْنا وَراءَها ، وَهَبَطْنا سُلَّمًا تآكَلَتْ دَرَجاتُهُ .

قالَتْ : « لَقَدْ أَبْلَتْ خُطُواتِي ٱلصَّخْرَ عَلى مَدى أَلْفَيْ عامٍ . »

وَسِرْنا في مَمَرٍّ حَتّى بَلَغْنا سِتارًا كُنْتُ قَدْ رَأَيْتُهُ مِنْ قَبْلُ ، فَقالَتْ : « كُنْتُ أَرْقُدُ هُنا كُلَّ لَيْلَةٍ مُنْذُ ذٰلِكَ ٱليَوْمِ — هُنا حَيْثُ يَرْقُدُ . تَعالَ يا فَتايَ لِتُشاهِدَ مَنْظَرًا رائِعًا : لِتُشاهِدَ نَفْسَكَ يا كاليكْراتِس مِثْلَما كُنْتُ أُشاهِدُكَ طَوالَ هٰذِهِ ٱلسِّنينَ . »

وَأَزاحَتِ ٱلغِطاءَ عَنِ ٱلجُثَّةِ ٱلمُمَدَّدَةِ فَوْقَ ٱلصَّخْرَةِ ٱلبارِدَةِ قائِلَةً : « أُنْظُرْ كَيْفَ يَلْتَقي ٱلحَيُّ بِٱلمَيِّتِ ! »

رَأَيْنا أَمامَنا جُثَّةً مُمَدَّدَةً مَلْفوفَةً بِرِداءٍ أَبْيَضَ ، وَقَدْ حُفِظَتْ بِعِنايَةٍ فائِقَةٍ ، وَكانَتْ أَشْبَهَ بِجِسْمِ لِيُو فِنْسِي ، وَنَظَرْتُ إِلى لِيُو ٱلواقِفِ حَيًّا

أَمامي ، وَإِلى لِيُو ٱلرّاقِدِ مَيِّتًا ، فَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَتَبَيَّنَ فَرْقًا بَيْنَهُما .

وَوَقَفَ لِيُو يَنْظُرُ إِلى ٱلجُثَّةِ ٱلَّتي أَمامَهُ دونَ أَنْ يَقولَ شَيْئًا . وَبَعْدَ لَحْظَةٍ هَمَسَ قائِلًا : « غَطِّها . »

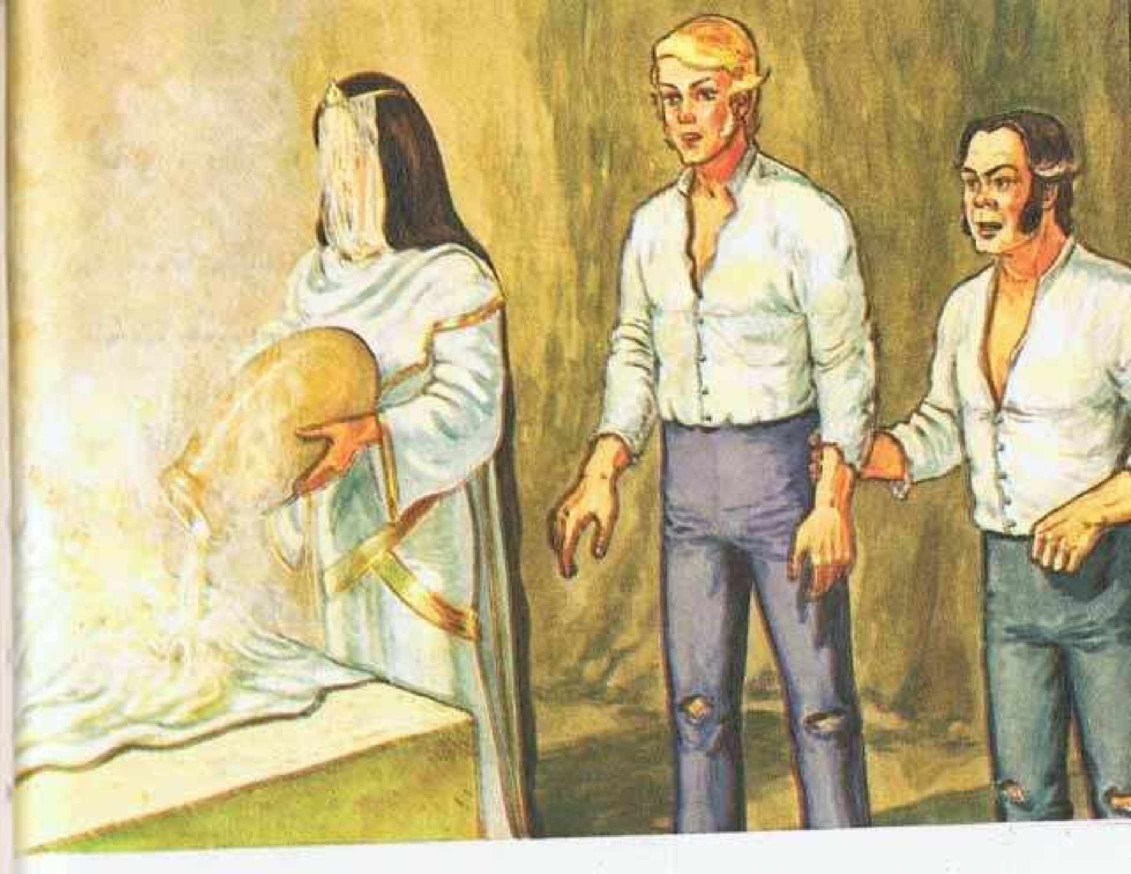
قالَتْ : « اِنْتَظِرْ ! يَنْبَغي أَلّا تَخْفى عَنْكُما شُروري . اِفْتَحِ ٱلغِطاءَ مِنْ فَوْقِ ٱلصَّدْرِ يا هُولِي . »

وَأَزَحْتُ ٱلغِطاءَ جانِبًا ، فَإِذا بِجُرْحٍ فَوْقَ ٱلقَلْبِ مِنْ جَرّاءِ طَعْنَةِ رُمْحٍ . قالَتْ لِلِيُو : « لَقَدْ قَتَلْتُكَ في قَصْرِ ٱلحَياةِ بِسَبَبِ أَمِينارْتاس ٱلمَرْأَةِ ٱلمِصْرِيَّةِ — أَمّا ٱلآنَ فَهٰذِهِ ٱلجُثَّةُ ٱلبارِدَةُ لَمْ تَعُدْ سِوى ذِكْرى ؛ لَقَدِ ٱنْتَهى ٱلغَرَضُ مِنْها . »

وَأَنْزَلَتْ مِنْ فَوْقِ رَفٍّ عالٍ جَرَّةً ضَخْمَةً ، وَأَزاحَتْ عَنْها غِطاءَها ، وَطَبَعَتْ قُبْلَةً رَقيقَةً فَوْقَ وَجْهِ ٱلجُثَّةِ ٱلبارِدَةِ . ثُمَّ سَكَبَتِ ٱلسّائِلَ ٱلَّذي في ٱلجَرَّةِ فَوْقَ ٱلجُثَّةِ ، فَتَصاعَدَ دُخانٌ كَثيفٌ مَلَأَ ٱلكَهْفَ كُلَّهُ ، وَحَجَبَ ٱلرُّؤْيَةَ عَنْ أَعْيُنِنا . وَعِنْدَما ٱنْقَشَعَتْ سُحُبُ ٱلدُّخانِ عَنِ ٱلجُثَّةِ ، لَمْ نَرَ سِوى كَوْمَةٍ مِنْ مَسْحوقٍ أَبْيَضَ يَتَصاعَدُ مِنْهُ دُخانٌ .

قالَتْ : « اِنْصَرِفا ٱلآنَ لِتَناما ؛ إِذْ عَلَيْنا أَنْ نَقومَ بِرِحْلَةٍ طَويلَةٍ غَدًا مَساءً . »

لا أَدْري كَيْفَ وَصَلْنا إِلى حُجْرَتِنا : فَقَدِ ٱقْتَدْتُ لِيُو مِنْ يَدِهِ ،



وَعِنْدَما عُدْنا إلى ٱلحُجْرَةِ سَقَطَ عَلى فِراشِهِ يَكادُ يَبْكي ، وَأَخَذَ يَصيحُ :
« لَمْ أَسْتَطِعِ ٱلإِفلاتَ ، لَمْ أَسْتَطِعْ ٱلإِبْتِعادَ عَنْها : فَقَدْ عَجَزَتْ قَدَمايَ عَنْ حَمْلي . وَكانَ ذِهْني صافِيًا ، وَإِنّي لَأَشْعُرُ في داخِلي بِكَراهِيَةٍ نَحْوَها ، أَوْ عَلى ٱلأَقَلِّ أَعْتَقِدُ ذٰلِكَ . وَلٰكِنّي أَعْرِفُ أَنَّني تَحْتَ سَيْطَرَتِها وَبِصِفَةٍ دائِمَةٍ ، وَسَوْفَ أَعْجِزُ أَمامَها مَرَّةً أُخْرى غَدًا . »

كُنْتُ أَنا أَيْضًا قَدْ رَأَيْتُ عائِشَةَ بِدونِ نِقابٍ ، وَلَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ بِماذا أُجيبُهُ ؛ كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّ ما قالَهُ صَحيحٌ .

الفَصْلُ ٱلسّادِسُ وَٱلعِشْرونَ
خُطَّـــــةُ عائِشَـــــةَ

خَرَجْتُ في ٱليَوْمِ ٱلتّالي مَعَ لِيو في نُزْهَةٍ طَويلَةٍ سَيْرًا عَلى ٱلأَقْدامِ ، شاهَدْنا خِلالَها أَفْرادًا مِنْ شَعْبِ ٱلأَماهاجِر وَهُمْ يَعْمَلونَ في ٱلحُقولِ . وَكانَ ٱلبَعْضُ مِنْهُمْ يَبْذُرُ ٱلحَبَّ مِنْ أَكْياسٍ عُلِّقَتْ حَوْلَ أَكْتافِهِمْ ، كَما كانَ يَفْعَلُ مُزارِعونا مُنْذُ مِئاتِ ٱلسِّنينَ . وَكَمْ كانَ مُريحًا أَنْ نَرى أُناسًا بُسَطاءَ يُؤَدّونَ أَعْمالًا بَسيطَةً . وَلَمْ نَتَحَدَّثْ في هٰذِهِ ٱلنُّزْهَةِ سِوى قَليلٍ .

وَبَعْدَ أَنْ تَناوَلْنا غَداءَنا تَمَشَّيْنا ثانِيَةً ، وَعِنْدَما عُدْنا قابَلَنا بِلالِي وَأَمَرَنا أَنْ نَذْهَبَ لِمُقابَلَةِ « شِيْ » .

وَما إِنِ ٱنْصَرَفَ ٱلخَدَمُ حَتّى طَلَبَتْ مِنّا عائِشَةُ أَنْ نَجْلِسَ ، ثُمَّ قالَتْ : « يَنْبَغي يا كاليكْراتِس ، قَبْلَ أَنْ نَتَزَوَّجَ ، أَنْ تُصْبِحَ خالِدًا مِثْلي . » وَتَساءَلْتُ عَمّا قَدْ تَصيرُ إِلَيْهِ ٱلأُمورُ بَعْدَ ذٰلِكَ .

« سَوْفَ نَبْدَأُ رِحْلَتَنا ٱللَّيْلَةَ قَبْلَ ٱلغُروبِ ، وَسَوْفَ نَصِلُ قَصْرَ ٱلحَياةِ غَدًا مَساءً . وَهُناكَ سَتَسْتَحِمُّ في ٱلنّارِ ، وَسَتَخْرُجُ مِنْها إِنْسانًا لَمْ يَكُنْ مِثْلَكَ مِنْ قَبْلُ . »

وَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَسْمَعَ ما قالَهُ لِيو رَدًّا عَلى هٰذِهِ ٱلخُطَّةِ ٱلمُذْهِلَةِ . وَواصَلَتْ حَديثَها قائِلَةً : « أَمّا أَنْتَ يا هُولِي فَإِنَّكَ قَدْ أَدْخَلْتَ ٱلسُّرورَ إِلى نَفْسي ، لِذا فَإِنَّكَ سَوْفَ تَأْتي مَعَنا . »

وَلَمْ أَكُنْ أَرْغَبُ في أَنْ أَعيشَ أَطْوَلَ مِمّا هُوَ مُقَدَّرٌ لي ، وَلٰكِنّي لَمْ أَقُلْ شَيْئًا . وَسادَ ٱلمَكانَ صَمْتٌ ، ثُمَّ سَأَلَتْ :

« أَخْبِرْني يا كاليكْراتِس ، كَيْفَ حَدَثَ أَنَّكَ جِئْتَ تَبْحَثُ عَنّي ؟ » فَأَخْبَرَها بِقِصَّةِ ٱلصُّنْدوقِ ٱلحَديدِيِّ وَما بِهِ مِنْ كِتاباتٍ .

وَما إِنِ ٱنْتَهى مِنْ سَرْدِ ٱلقِصَّةِ حَتّى قالَتْ : « إِذًا هٰذِهِ ٱلمَدْعُوَّةُ أَمِينارْتاس ، ٱلَّتي كانَتْ تَكْرَهُني ، هِيَ في ٱلنِّهايَةِ ٱلسَّبَبُ في مَجيئِكَ ! وَٱلآنَ حَدِّثْني عَنْ بَلَدِكَ . إِنَّكَ تَوَدُّ أَنْ تَعودَ إِلَيْها ، أَنا لا أَعْني أَنَّهُ يَنْبَغي أَنْ تَعيشَ في كُهوفِ خُور إِلى ٱلأَبَدِ ، فَكَمْ يُسْعِدُني أَنْ أَتْرُكَها . فَإِنَّكَ سَوْفَ تَحْكُمُ إِنْجِلْترا ... »

قاطَعَها لِيو قائِلًا « لٰكِنْ عِنْدَنا بِٱلفِعْلِ مَلِكٌ وَمَلِكَةٌ . »

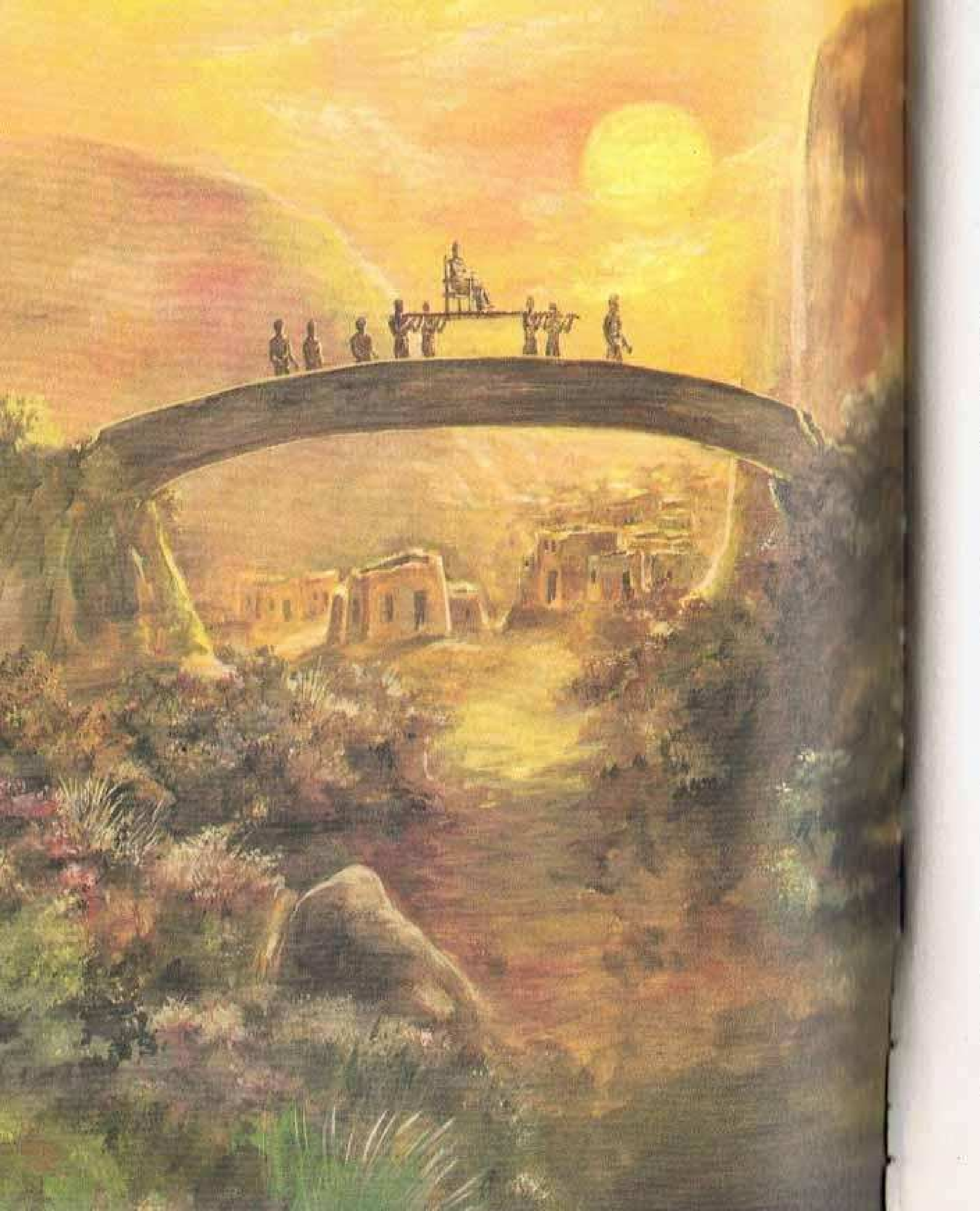
قالَتْ عائِشَةُ : « إِنَّ هٰذا لا يُهِمُّ ؛ إِذْ مِنَ ٱلمُمْكِنِ إِبْعادُهُما أَوِ ٱلقَضاءُ عَلَيْهِما . » وَحاوَلْنا أَنْ نُبَيِّنَ لَها أَنَّنا نُحِبُّ مَلِكَنا وَمَلِكَتَنا ، وَأَنَّنا لا نَرْغَبُ فِي ٱلقَضاءِ عَلَيْهِما ، وَلٰكِنْ دونَ جَدْوى .

قالَتْ : « إِنَّ هٰذا لَأَمْرٌ غَريبٌ حَقًّا ! مَلِكٌ وَمَلِكَةٌ يَتَمَتَّعانِ بِحُبِّ

ٱلشَّعْبِ ! إِنَّ ٱلعالَمَ قَدْ تَغَيَّرَ كَثيرًا مُنْذُ أَنْ جِئْتُ إِلى خُور ، إِنَّني لا أَفْهَمُ شَيْئًا مِمّا تَقولونَ . »

وَحاوَلْنا أَنْ نُوَضِّحَ لَها أَنَّ بِلادَنا لَها حُكومَةٌ ، وَأَنَّ لَها قَوانينَ مَوْضوعَةً . فَضَحِكَتْ قائِلَةً : « ٱلقانونُ ! إِنَّني فَوْقَ ٱلقانونِ . وَٱلآنَ ٱتْرُكاني وَٱسْتَعِدّا لِلرِّحْلَةِ . »

كانَ هٰذا ٱللِّقاءُ أَشْبَهَ بِحُلْمٍ سَخيفٍ . وَبَيْنَما كُنّا عائِدَيْنِ إِلى غُرْفَتِنا ، تَساءَلْتُ : « كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ تَكونَ ٱلحالُ إِذا تَوَلّى مَلِكٌ حُكْمَ دَوْلَةٍ إِلى ٱلأَبَدِ دونَ أَنْ يَنالَ مِنْهُ ٱلمَوْتُ ؟! » وَأَعْتَقِدُ أَنَّ ٱلأَمْرَ في مِثْلِ تِلْكَ ٱلحالِ يَتَوَقَّفُ عَلى ما يَتَّصِفُ بِهِ ٱلمَلِكُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ .



الفَصْلُ ٱلسّابِعُ وَٱلعِشْرون

أَطْـــلالُ مَدينَـــةِ خُـــور

كانَ مِنَ ٱلمُقَدَّرِ لِرِحْلَتِنا أَلّا تَسْتَغْرِقَ أَكْثَرَ مِنْ ثَلاثَةِ أَيّامٍ ، لِذا لَمْ نَحْمِلْ مَعَنا سِوى غِيارٍ مِنَ ٱلمَلابِسِ ، وَبَنادِقِنا وَعِنْدَ ٱلغُروبِ تَوَجَّهْنا إلى غُرْفَةِ عائِشَةَ ، وَوَجَدْناها مُسْتَعِدَّةً لِلرَّحيلِ . وَكانَ ثَمَّةَ مِحَفَّةٌ عِنْدَ مَدْخَلِ ٱلكَهْفِ وَسِتَّةُ رِجالٍ وَبلالِي في ٱنْتِظارِ عائِشَةَ .

وَكانَ عَلَيْنا أَنْ نَقْطَعَ ٱلرِّحْلَةَ سَيْرًا عَلى ٱلأَقْدامِ . وَلَمْ يَشْهَدْ رَحيلَنا أَحَدٌ ، وَسَبَبُ ذٰلِكَ ، في ٱعْتِقادي ، أَنَّ ٱلأَهالِي تَلَقَّوْا أَمْرًا بِأَنْ يَبْتَعِدوا عَنِ ٱلمَكانِ ، حَتّى لا يَعْرِفَ أَحَدٌ أَنَّنا رَحَلْنا .

بَدَأَتْ مَسيرَتُنا عَبْرَ ٱلسَّهْلِ ٱلواسِعِ ٱلَّذي كانَ يَوْمًا ما قاعًا لِبُحَيْرَةٍ . وَبَعْدَ أَنْ سِرْنا قُرابَةَ نِصْفِ ٱلسّاعَةِ ٱقْتَرَبْنا مِنْ أَطْلالِ مَدينَةِ خُور ٱلقَديمَةِ .

كانَتِ ٱلشَّمْسُ تَميلُ نَحْوَ ٱلمَغيبِ عِنْدَ بُلوغِنا ذٰلِكَ ٱلمَكانَ . وَعَبَرْنا جِسْرًا هائِلًا يُؤَدّي إلى ٱلمَدينَةِ . وَأُتيحَ لي وَأَنا أَعْبُرُ ٱلجِسْرَ أَنْ أَرى تَحْتَهُ ، وَعَلى ٱمْتِدادِ كيلومِتْراتٍ عَديدَةٍ ، أَطْلالَ ٱلمَدينَةِ . وَكانَ مِنْ بَيْنِها قُصورُ ٱلأَغْنِياءِ ٱلفَخْمَةُ ، وَبُيوتُ ٱلفُقَراءِ ٱلمُتَواضِعَةُ ، وَٱلحَدائِقُ

ٱلَّتي ٱكْتَسَتْ أَرْضُها ٱلآنَ بِٱلأَعْشابِ ، وَٱلشَّوارِعُ وَٱلمَيادينُ ، وَكانَتْ أَسْقُفُ ٱلمَباني كُلُّها مُتَداعِيَةً ، وَنَمَتْ وَسْطَ كُتَلِ ٱلحِجارَةِ ٱلمُلْقاةِ في ٱلشَّوارِعِ أَشْجارٌ وَحَشائِشُ ، وَمَعَ ذٰلِكَ كانَ في ٱسْتِطاعَةِ ٱلمَرْءِ أَنْ يَرى في ضَوْءِ ٱلغُروبِ ٱلضّارِبِ إِلى ٱلاِحْمِرارِ ، ما كانَتْ عَلَيْهِ ٱلمَدينَةُ ذاتَ يَوْمٍ .

كانَ في وَسَطِ ٱلمَدينَةِ مَبْنًى ضَخْمٌ لِلْغايَةِ تُحيطُ بِهِ عِدَّةُ ساحاتٍ ، كُلُّ ساحَةٍ داخِلَ ٱلأُخْرى . وَكانَ أَهْلُ خور يَتَعَبَّدونَ في هٰذا ٱلمَبْنى .

وَوَقَفَ خَدَمُ عائِشَةَ أَمامَ بَوّابَةِ هٰذا ٱلمَبْنى ، فَقالَتْ : « ثَمَّةَ مَوْضِعٌ يُمْكِنُنا أَنْ نَقْضِيَ فيهِ لَيْلَتَنا . وَقَدْ جِئْتُ إِلى هُنا أَنا وَكاليكْراتِس وَٱلمَرْأَةُ ٱلمِصْرِيَّةُ مُنْذُ أَلْفَيْ عامٍ . وَلَعَلَّ ٱلبَيْتَ ٱلَّذي نَزَلْنا بِهِ تَهَدَّمَ مُنْذُ ذٰلِكَ ٱلحينِ . »

وَصَعِدَتْ بِضْعَ دَرَجاتٍ إِلى ٱلسّاحَةِ ٱلخارِجِيَّةِ وَتَلَفَّتَتْ حَوْلَها ثُمَّ قالَتْ : « إِنَّهُ هُنا . »

كانَ ثَمَّةَ غُرْفَةٌ مَنْحوتَةٌ في ٱلجِدارِ ، وَلَعَلَّها كانَتْ يَوْمًا ما مَسْكَنَ حارِسِ ٱلبَوّابَةِ . وَدَخَلْنا ، وَتَناوَلْتُ مَعَ لِيو وَجُوب غَداءَنا ، عَلى حينَ أَكَلَتْ عائِشَةُ بَعْضَ ٱلفاكِهَةِ .

قالَتْ : « لَقَدْ جِئْتُ بِكُمْ إِلى هُنا لِتُشاهِدوا ضَوْءَ ٱلقَمَرِ يَسْطَعُ فَوْقَ أَطْلالِ خور . وَعِنْدَما تَسْتَعِدّونَ سَنَخْرُجُ لِنُشاهِدَ هٰذا ٱلمَكانَ ، وَلِنَرى

مَعْبودَ أَهْلِ خور . »

وَٱجْتَزْنا ساحَةً إِثْرَ ساحَةٍ . وَكُنّا نَتَهامَسُ في ذٰلِكَ ٱلصَّمْتِ ٱلمُطْبِقِ ، وَنَحْنُ نَسيرُ في أَرْوِقَةٍ غَيْرِ مَسْقوفَةٍ ، مارّينَ بِنَوافِذَ عالِيَةٍ يَتَسَلَّلُ مِنْها ضَوْءُ ٱلقَمَرِ ، وَلَمْ يَكُنْ يَقْطَعُ ذٰلِكَ ٱلصَّمْتَ سِوى وَقْعِ خُطُواتِنا . وَكانَتْ ظِلالُنا ٱلمُنْعَكِسَةُ أَمامَنا تَتَحَرَّكُ بِهُدوءٍ عَبْرَ ٱلسّاحاتِ ٱلمَكْسُوَّةِ بِٱلأَعْشابِ .

وَبَعْدَ لَحْظَةٍ قالَتْ عائِشَةُ : « هَلُمّوا لِأُرِيَكُمْ أَعْجَبَ ٱلعَجائِبِ . سَأُريكُم ٱلمَعْبودَةَ ٱلَّتي كانَ هٰذا ٱلشَّعْبُ ٱلعَظيمُ يَتَقَرَّبُ إِلَيْها . »

وَدَخَلْنا ٱلسّاحَةَ ٱلدّاخِلِيَّةَ ، وَكانَتْ تَتَوَسَّطُها صَخْرَةٌ ضَخْمَةٌ مُرَبَّعَةُ ٱلشَّكْلِ ، تَعْلوها كُرَةٌ صَخْرِيَّةٌ داكِنَةٌ قُطْرُها حَوالى سَبْعَةِ أَمْتارٍ . وَكانَ يَنْتَصِبُ فَوْقَ ٱلكُرَةِ تِمْثالٌ مِنَ ٱلحَجَرِ ٱلأَبْيَضِ ٱلنَّقِيِّ لِٱمْرَأَةٍ لَها جَناحانِ مُنْبَسِطانِ . وَكانَتْ ذِراعاها مَمْدودَتَيْنِ ، وَعَيْناها مُغَطّاتَيْنِ بِنِقابٍ .

سَأَلْتُ : « مَنْ تَكونُ ٱلمَرْأَةُ ؟ »

أَجابَتْني عائِشَةُ : « أَلا يُمْكِنُكَ أَنْ تُخَمِّنَ ؟ » ثُمَّ سارَتْ أَمامَنا حَتّى وَصَلَتْ إِلى أَسْفَلِ ٱلتِّمْثالِ ، وَقَرَأَتِ ٱلكِتابَةَ ٱلمَنْحوتَةَ في ٱلصَّخْرَةِ :

« اِرْفَعِ ٱلنِّقابَ وَٱنْظُرْ إِلى « ٱلحَقيقَةِ » وَجْهًا لِوَجْهٍ . وَلٰكِنْ لا يَقْدِرُ عَلى رَفْعِ ٱلنِّقابِ سِوى ٱلمَوْتِ . »

وَقالَتْ عائِشَةُ : « لَقَدْ كانَتِ « ٱلحَقيقَةُ » مَعْبودَةَ شَعْبِ خور . »

الفَصْلُ ٱلثّامِنُ وَٱلعِشْرون
داخِلَ جَبَلِ ٱلنّارِ

أيقظَنا ٱلخَدَمُ في ٱليَوْمِ ٱلتّالي قَبْلَ شُروقِ ٱلشَّمْسِ ، فَوَجَدْنا عائِشَةَ تَنْتَظِرُنا في ٱلخارِجِ مُتَدَثِّرَةً بِعَباءَةٍ سَوْداءَ . وَلاحَظْتُ عَلَيْها بَعْضَ عَلاماتِ ٱلحُزْنِ أَوِ ٱلقَلَقِ .

سَأَلَها لِيُو : « هَلْ نَعِمْتِ بِنَوْمٍ هادِئٍ ؟ »

أَجابَتْهُ : « كَلّا يا كالِيكْراتِس ؛ فَقَدِ ٱنْتابَتْني أَحْلامٌ مُفْزِعَةٌ ، وَلا أَدْري لَها تَفْسيرًا . وَمَعَ ذٰلِكَ كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يُصيبَني شَرٌّ ؟ إِنَّني أَتَساءَلُ : إِذا أَصابَني شَيْءٌ ، فَهَلْ سَتَذْكُرُني بِٱلخَيْرِ ؟ »

وَلَمْ تَنْتَظِرْ عائِشَةُ لِتَسْمَعَ رَدًّا . وَسُرْعانَ ما رَحَلْنا تارِكينَ وَراءَنا أَطْلالَ ٱلمَدينَةِ .

وَتَوَقَّفْنا في ٱلظُّهْرِ لِنَنالَ قِسْطًا مِنَ ٱلرّاحَةِ ، وَلِنَتَناوَلَ ٱلغَداءَ . وَفي ٱلسّاعَةِ ٱلثّانِيَةِ كُنّا قَدْ بَلَغْنا سَفْحَ جِدارٍ صَخْرِيٍّ ٱرْتِفاعُهُ حَوالى خَمْسِمِئَةِ مِتْرٍ .

قالَتْ عائِشَةُ : « يُطْلِقُ ٱلأَهالي عَلى هٰذا ٱلمَكانِ ٱسْمَ جَبَلِ ٱلنّارِ . وَلَمْ يَجْرُؤْ أَحَدٌ قَطُّ عَلى ٱلاِقْتِرابِ مِنْهُ . سَنَتْرُكُ ٱلخَدَمَ هُنا ، وَأَنْتَ يا بِلالِي ٱبْقَ مَعَهُمْ . وَيُمْكِنُكَ ٱلاِنْتِظارُ تَحْتَ تِلْكَ ٱلأَشْجارِ هُناكَ . وَسَوْفَ نَعودُ إِلى هُنا غَدًا ظُهْرًا . وَإِذا لَمْ نَعُدْ في هٰذا ٱلمَوْعِدِ فَٱبْقَ في ٱنْتِظارِنا . أَمّا هٰذا ٱلرَّجُلُ جُوب ، فَمِنَ ٱلأَفْضَلِ لَهُ أَنْ يَنْتَظِرَ هُنا ، ما لَمْ يَكُنْ عَلى قَدْرٍ كَبيرٍ مِنَ ٱلشَّجاعَةِ ؛ لِأَنَّ أَسْرارَ ٱلمَكانِ ٱلَّذي نَقْصِدُهُ لا تَحْتَمِلُ عَيْنا ٱلشَّخْصِ ٱلعادِيِّ أَنْ تَرَياها . »

فَقالَ جُوب : « لا أَعْتَقِدُ أَنَّ ثَمَّةَ ما هُوَ أَسْوَأُ مِمّا رَأَيْتُهُ حَتّى ٱلآنَ . وَلا أَوَدُّ أَنْ أَبْقى مَعَ هٰؤُلاءِ ٱلقَوْمِ ٱلَّذينَ لا يَسْتَطيعونَ أَنْ يَنْطِقوا كَلِمَةً ، وَقَدْ يَضَعونَ قِدْرًا فَوْقَ رَأْسي . إِنَّني أُفَضِّلُ أَنْ آتِيَ مَعَكُم . »

أَخْبَرْتُ عائِشَةَ بِرَدِّ جُوب ، فَقالَتْ : « حَسَنٌ ، دَعْهُ يَأْتِ ، وَلْيَحْمِلِ ٱللَّوْحَ . » وَأَشارَتْ إِلى لَوْحٍ خَشَبِيٍّ طولُهُ حَوالى خَمْسَةِ أَمْتارٍ مُثَبَّتٍ في ٱلمِحَفَّةِ ٱلَّتي كانَتْ تَجْلِسُ عَلَيْها . وَحَمَلَ لِيُو ٱلماءَ وَٱلطَّعامَ ، وَحَمَلْتُ أَنا مِصْباحَيْنِ وَوِعاءَ زَيْتٍ لَهُما . أَمّا بِلالِي وَٱلخَدَمُ فَقَدِ ٱنْصَرَفوا . وَٱسْتَدارَتْ عائِشَةُ وَنَظَرَتْ إِلى ٱلهَضْبَةِ ، فَصِحْتُ :

« يا إِلٰهي ! هَلْ سَنَتَسَلَّقُها ؟ »

وَتَقَدَّمَتْنا عائِشَةُ تَثِبُ مِنْ صَخْرَةٍ إِلى صَخْرَةٍ بِخِفَّةٍ وَرَشاقَةٍ تُثيرانِ ٱلدَّهْشَةَ ؛ وَكانَ عَلَيْنا بِطَبيعَةِ ٱلحالِ أَنْ نَتْبَعَها ، وَنُساعِدَ جُوب عَلى

حَمْلِ ٱللَّوْحِ ٱلخَشَبِيِّ .

وَسُرْعانَ ما بَلَغْنا حافَةَ صَخْرَةٍ ضَيِّقَةٍ ، أَخَذَتْ تَزْدادُ ٱتِّساعًا ، وَيَزْدادُ حَدُّها ٱلخارِجِيُّ ٱرْتِفاعًا ، فَوَجَدْنا أَنْفُسَنا نَمْشي في مَمَرٍّ بَيْنَ جِدارَيْنِ صَخْرِيَّيْنِ . وَفَجْأَةً ٱنْتَهى بِنا ٱلمَمَرُّ إِلى كَهْفٍ في ٱلجانِبِ ٱلأَيْمَنِ . وَكانَ كَهْفًا طَبيعِيًّا تَكَوَّنَ بِفِعْلِ ٱنْفِجارٍ غازِيٍّ .

أَمَرَتْني عائِشَةُ بِأَنْ أُشْعِلَ ٱلمِصْباحَيْنِ ، وَأَنْ أُعْطِيَها واحِدًا . وَمَشَتْ أَمامَنا في ٱلكَهْفِ ، وَكانَتْ تَتَلَمَّسُ مَواضِعَ خُطاها بِحَذَرٍ بالِغٍ وَسْطَ حِجارَةٍ ضَخْمَةٍ وَحُفَرٍ يُمْكِنُ أَنْ تَتَسَبَّبَ في كَسْرِ ساقِ مَنْ يَمْشي بِغَيْرِ حَذَرٍ .

سِرْنا في هٰذا ٱلطَّريقِ قُرابَةَ عِشْرينَ دَقيقَةً وَتَوَقَّفْنا . وَبَيْنَما كُنْتُ أَتَلَمَّسُ طَريقي في ٱلظَّلامِ هَبَّتْ ريحٌ قَوِيَّةٌ أَطْفَأَتِ ٱلمِصْباحَيْنِ .

نادَتْنا عائِشَةُ ، فَتَقَدَّمْنا نَتَحَسَّسُ طَريقَنا . وَأَبْصَرْنا أَمامَنا شَقًّا هائِلًا في ٱلصَّخْرَةِ ٱلَّتي كانَ يُنيرُها ضَوْءُ ٱلنَّهارِ ٱلخافِتُ ٱلمُتَسَلِّلُ مِنْ فَوْقُ . وَكانَتْ تُحيطُ بِٱلصَّخْرَةِ هُوَّةٌ سَحيقَةٌ شَديدَةُ ٱلظَّلامِ . وَلَمْ نَسْتَطِعْ أَنْ نَتَبَيَّنَ نِهايَةَ ٱلشَّقِّ ، إِلّا أَنَّ ٱلصَّخْرَةَ ٱلَّتي كُنّا نَقِفُ عَلَيْها كانَتْ تَمْتَدُّ أَمامَنا وَتَزْدادُ ضيقًا حَتّى أَصْبَحَ طَرَفُها مُدَبَّبًا مِثْلَ قَلَمِ ٱلرَّصاصِ .

قالَتْ عائِشَةُ : « اِحْرِصوا عَلى أَلّا تَنْظُروا تَحْتَكُمْ ، وَإِلّا قَذَفَتْ بِكُمُ ٱلرّيحُ في تِلْكَ ٱلهُوَّةِ ٱلَّتي لا قَرارَ لَها . »

أَخَذَتْ تَتَّجِهُ نَحْوَ ٱلطَّرَفِ ٱلمُدَبَّبِ وَنَحْنُ نَتْبَعُها : كُنْتُ أَنا في ٱلمُقَدِّمَةِ ، وَتَبِعَني جوب يَجُرُّ وَراءَهُ ٱللَّوْحَ ٱلخَشَبِيَّ ، وَسارَ بَعْدَهُ ليو . وَتَبَيَّنَ لي ، بَعْدَ أَنْ سِرْتُ بِضْعَ خُطُواتٍ ، أَنَّهُ مِنَ ٱلأَفْضَلِ أَنْ أَمْشِيَ عَلى يَدَيَّ وَرُكْبَتَيَّ ؛ وَسُرْعانَ ما فَعَلَ مِثْلي زَميلايَ . وَكانَ ليو يُساعِدُ



جُوب في جَرِّ ٱللَّوْحِ ، عَلى حينَ وَقَفَتْ عائِشَةُ تَدْفَعُ بِصَدْرِها نَحْوَ ٱلرّيحِ ، وَبَدَتْ لا تَخْشى شَيْئًا .

سِرْنا نَحْوَ عِشْرينَ مِتْرًا فَوْقَ هٰذا ٱلجِسْرِ ٱلرَّهيبِ ، وَفَجْأَةً هَبَّتْ ريحٌ عاصِفَةٌ ، وَٱنْدَفَعَتْ في ٱلكَهْفِ . وَرَأَيْتُ عائِشَةَ تَقِفُ ثابِتَةً في مُواجَهَتِها . إِلّا أَنَّ ٱلرّيحَ ٱنْتَشَرَتْ تَحْتَ عَباءَتِها وَٱنْتَزَعَتْها مِنْ عَلَيْها ، وَطارَتْ في ٱلهَواءِ مِثْلَ طائِرٍ ضَخْمٍ عاجِزٍ . وَتَشَبَّثْتُ بِٱلصَّخْرَةِ ، وَقَدْ بَدَتْ لي تَهْتَزُّ تَحْتي . وَرَكَعْنا كُلُّنا عَلى ٱلصَّخْرَةِ ، مُعَلَّقينَ بَيْنَ ٱلسَّماءِ وَٱلأَرْضِ ، لا شَيْءَ تَحْتَنا سِوى فَراغٍ ، عَلى حينَ ٱنْدَفَعَتِ ٱلرّيحُ فَوْقَنا تَسوقُ أَمامَها سُحُبًا مِنَ ٱلبُخارِ . إِنَّ هٰذا ٱلمَشْهَدَ يُراوِدُني ، حَتّى ٱلآنَ ، في أَحْلامي فَأَهُبُّ مِنْ نَوْمي مَذْعورًا .

وَنَهَضَتْ عائِشَةُ ، وَبَدَتْ أَمامَنا مِثْلَ شَبَحٍ أَبْيَضَ ، وَصاحَتْ : « تَقَدَّموا ! تَقَدَّموا حَتّى لا تَسْقُطوا فَتَتَبَعْثَرَ أَشْلاؤُكُمْ . ثَبِّتوا أَعْيُنَكُمْ عَلى أَرْضِيَّةِ ٱلصَّخْرَةِ ، وَتَشَبَّثوا بِها بِقُوَّةٍ . »

الفَصْلُ ٱلتاسِعُ وَٱلعِشْرونَ
الحَجَرُ ٱلمُتَأَرْجِحُ

سِرْنا مَسافَةً لا أَدْري مِقْدارَها حَتّى وَصَلْنا أَقْصى طَرَفِ ٱلصَّخْرَةِ . وَهُناكَ رَقَدْنا وَتَشَبَّثْنا بِٱلأَرْضِ بِأَصابِعِنا ، عَلى حينَ وَقَفَتْ عائِشَةُ وَشَعْرُها يَتَطايَرُ في ٱلهَواءِ . وَأَدْرَكْتُ آنَذاكَ لِماذا أَحْضَرْنا مَعَنا ٱللَّوْحَ ٱلخَشَبِيَّ : كانَتْ ثَمَّةَ فَجْوَةٌ أَمامَنا ، وَعَلى ٱلجانِبِ ٱلآخَرِ شَيْءٌ لَمْ أَتَبَيَّنْ كُنْهَهُ .

قالَتْ عائِشَةُ : « عَلَيْنا أَنْ نَنْتَظِرَ ؛ فَسُرْعانَ ما سَيَسْطَعُ ٱلنّورُ . » وَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أُدْرِكَ قَصْدَها ، فَرُحْتُ أُفَكِّرُ : كَيْفَ يَسْطَعُ نورٌ في مِثْلِ هٰذا ٱلمَكانِ ٱلمُظْلِمِ تَحْتَ ٱلأَرْضِ ؟! وَفَجْأَةً وَمَضَ شُعاعٌ مِنَ ٱلشَّمْسِ ٱلغارِبَةِ مِثْلُ سَيْفٍ نارِيٍّ ، وَشَقَّ ٱلظَّلامَ نَحْوَ طَرَفِ ٱلصَّخْرَةِ ؛ وَإِذا بِٱلنّورِ يُحيطُ بِعائِشَةَ ، فَوَقَفَتْ في رَوْعَةٍ وَبَهاءٍ يَتَأَلَّقُ عَلَيْها ٱلنّورُ ٱلمُشْرَبُ بِصُفْرَةِ ٱلذَّهَبِ وَحُمْرَةِ ٱلدَّمِ .

مِنْ أَجْلِ شُعاعِ ٱلنّورِ هٰذا كانَ ٱنْتِظارُ عائِشَةَ ، وَقَدْ رَتَّبَتْ وُصولَنا

بحَيْثُ يَجيءُ في ٱلوَقْتِ ٱلمُناسِبِ لَهُ . وَرَأَيْتُ عَلى بُعْدِ حَوالى ثَلاثَةِ أَمْتارٍ وَنِصْفِ ٱلمِتْرِ مِنْ حافَةِ ٱلصَّخْرَةِ ، وَعَلى الجانِبِ ٱلآخَرِ ، حَجَرًا ضَخْمًا بَيْضَوِيَّ ٱلشَّكْلِ ، تَراوَحَ طولُهُ بَيْنَ سِتَّةِ أَمْتارٍ وَتِسْعَةٍ . وَكانَ مُرْتَكِزًا عَلى مِسَلَّةٍ صَخْرِيَّةٍ تَرْتَفِعُ وَسْطَ ٱلظَّلامِ ، وَرَأَيْتُ ٱلحَجَرَ يَتَأَرْجَحُ ذَهابًا وَإِيابًا كُلَّما هَبَّتِ ٱلرّيحُ ، حَتّى إِنَّني خَشيتُ أَنْ يَشْتَدَّ هُبوبُ ٱلرّيحِ مَرَّةً فَتُطَوِّحَهُ .

صاحَتْ عائِشَةُ : « أَسْرِعوا بِإِحْضارِ ٱللَّوْحِ ٱلخَشَبِيِّ ؛ إِذْ عَلَيْنا أَنْ نَعْبُرَ أَثْناءَ سُطوعِ ٱلنورِ . »

قالَ جُوب وَهُوَ يَدْفَعُ ٱللَّوْحَ ٱلخَشَبِيَّ إِلى ٱلأَمامِ : « يا إِلٰهي ! هَلْ تُريدُنا حَقًّا أَنْ نَعْبُرَ إِلى الجانِبِ ٱلآخَرِ فَوْقَ هٰذا ٱللَّوْحِ ؟! »

وَمَدَّتْ عائِشَةُ ٱللَّوْحَ حَتّى ٱسْتَقَرَّ طَرَفُهُ فَوْقَ ٱلحَجَرِ ٱلبَيْضَوِيِّ ٱلشَّكْلِ ، وَٱسْتَقَرَّ ٱلطَّرَفُ ٱلآخَرُ فَوْقَ حافَةِ ٱلصَّخْرَةِ . وَقالَتْ :

« إِنَّ هٰذا ٱلحَجَرَ لَيْسَ ثابِتًا كَما كانَ مُنْذُ أَنْ جِئْتُ إِلى هُنا آخِرَ مَرَّةٍ ؛ لِذا فَإِنَّني لَسْتُ واثِقَةً بِأَنَّهُ سَيَتَحَمَّلُ ثِقْلَنا . وَعَلَيْهِ سَأَعْبُرُ أَنا أَوَّلًا . »

وَجَرَتْ بِخِفَّةٍ فَوْقَ ٱلمَعْبَرِ ، وَقالَتْ مِنَ الجانِبِ ٱلآخَرِ : « إِنَّهُ آمِنٌ ، وَسَوْفَ أَقِفُ في أَقْصى حافَةِ ٱلحَجَرِ حَتّى لا يَتَزَحْزَحَ مِنْ جَرّاءِ ثِقْلِكُمْ . وَٱلآنَ تَقَدَّمْ يا هُولِي ؛ فَسُرْعانَ ما سَيَخْبو ٱلنورُ . »



اِرْتَكَزْتُ عَلى رُكْبَتَيَّ وَيَدَيَّ ، فَقالَتْ : « لا أَعْتَقِدُ أَنَّكَ خائِفٌ ، وَإِلّا فَأَفْسِحْ مَكانًا لِكالِيكْراتِس . »

قُلْتُ لِنَفْسي : « أَفْضَلُ لي أَنْ أَسْقُطَ مِنْ هُنا عَنْ أَنْ تَهْزَأَ بي عائِشَةُ . »

وَشَعَرْتُ بِٱللَّوْحِ ٱلْخَشَبِيِّ يَميدُ تَحْتي مِنْ وَطْأَةِ وَزْني . وَلَمّا كُنْتُ بِطَبْعي أَكْرَهُ ٱلْأَماكِنَ ٱلْمُرْتَفِعَةَ ، فَقَدْ شَعَرْتُ بِأَنَّ ٱلدُّنْيا قَدْ أَظْلَمَتْ أَمامَ عَيْنَيَّ ، وَصارَ جَسَدي بارِدًا ، وَفَقَدْتُ ٱلسَّيْطَرَةَ عَلى يَدَيَّ وَرِجْلَيَّ . وَوَجَدْتُ نَفْسي في ٱلنِّهايَةِ راقِدًا عَلى ٱلْحَجَرِ ٱلَّذي كانَ يَتَأَرْجَحُ تَحْتي مِثْلَ زَوْرَقٍ في بَحْرٍ هائِجٍ .

اِنْدَفَعَ لِيُو وَعَبَرَ فَوْقَ ٱللَّوْحِ ٱلْخَشَبِيِّ جَرْيًا ، وَكانَ يَبْدو مِثْلَ أَحَدِ لاعِبي ٱلسِّيرْكِ ٱلَّذينَ يَسيرونَ فَوْقَ ٱلْحِبالِ . وَمَدَّتْ عائِشَةُ لَهُ يَدَها قائِلَةً : « يا لَكَ مِنْ شُجاعٍ ! »

وَكانَ جُوب راكِعًا في ٱلْجانِبِ ٱلْآخَرِ عَلى رِجْلَيْهِ وَيَدَيْهِ . قالَ : « لا أَسْتَطيعُ أَنْ أَعْبُرَ ! »

صِحْتُ بِهِ : « أَقْدِمْ يا جُوب ! إِذا بَقيتَ مَكانَكَ لَقيتَ حَتْفَكَ ؛ فَٱلنّورُ يَضْمَحِلُّ . »

قالَ لِيُو : « أَقْدِمْ يا جُوب ، إِنَّ ٱلْأَمْرَ في غايَةِ ٱلسُّهولَةِ . »

تَقَدَّمَ جُوب بِيَدَيْهِ ، عَلى حينَ تَدَلَّتْ ساقاهُ عَلى جانِبَيِ ٱللَّوْحِ ٱلْخَشَبِيِّ . وَعِنْدَما بَلَغَ مُنْتَصَفَهُ ٱخْتَفى ٱلنّورُ .

صِحْتُ بِهِ : « أَقْدِمْ يا جُوب . » وَٱزْدادَ تَأَرْجُحُ ٱلْحَجَرِ ٱلَّذي كُنْتُ راقِدًا فَوْقَهُ ، حَتّى أَصْبَحَ مِنَ ٱلْمُتَعَذِّرِ أَنْ أَتَشَبَّثَ بِهِ .

صَرَخَ جُوب ٱلْمِسْكينُ وَسْطَ ٱلظَّلامِ : « فَلْيَرْحَمْني ٱللهُ ! إِنَّ ٱللَّوْحَ ٱلْخَشَبِيَّ يَنْزَلِقُ ! »

وَفي تِلْكَ ٱللَّحْظَةِ لَمَسَتْ يَدُهُ يَدي في ٱلظَّلامِ ، فَجَذَبْتُهُ بِكُلِّ قُوَّتي ؛ وَأَصْبَحَ جُوب بِجِواري فَوْقَ ٱلْحَجَرِ .

وَفي ٱللَّحْظَةِ نَفْسِها سَمِعْتُ صَوْتَ سُقوطِ ٱللَّوْحِ وَٱرْتِطامِهِ بِجَوانِبِ ٱلصَّخْرَةِ وَهُوَ في طَريقِهِ إِلى أَسْفَلَ .

تَساءَلْتُ : « كَيْفَ سَنَعودُ ؟ »

أَجابَني لِيُو وَسْطَ ٱلظَّلامِ : « لا أَعْرِفُ ؛ وَأَحْمَدُ ٱللهَ — عَلى كُلِّ حالٍ — أَنَّنا هُنا مَعًا . »

الفَصْلُ الثّلاثُــونَ
نـــارُ الحَيـــاةِ

سَأَلَتْني عائِشَةُ أَنْ أُمْسِكَ يَدَها . وَشَعَرْتُ بَعْدَ ذٰلِكَ أَنَّها تُوَجِّهُني في سَيْري إِلى آمْتِدادِ حافَةِ الحَجَرِ . وَبَعْدَ أَنْ تَقَدَّمْتُ قَليلًا شَعَرْتُ بِفَراغٍ تَحْتَ قَدَمَيَّ ، وَسَمِعْتُ عائِشَةَ تَقولُ لي : « اُتْرُكْ نَفْسَكَ تَهْوي . »

لَمْ يَرُقْني أَنْ أَهْوِيَ ، وَلٰكِنَّ قَدَمَيَّ آصْطَدَمَتا بِسَطْحٍ صَخْرِيٍّ . وَكُنْتُ أَسْمَعُ آلرّيحَ تَعْصِفُ فَوْقي ، وَسَرْعانَ ما وَجَدْتُ نَفْسي في مَوْضِعٍ ، آلهَواءُ فيهِ ساكِنٌ ، فَحَمِدْتُ آللهَ . وَسَرْعانَ ما وَجَدْتُ لِيُو بِجِواري ، وَجاءَ بَعْدَهُ جُوب .

قالَتْ عائِشَةُ : « أَشْعِلوا آلمِصْباحَيْنِ . »

وَتَبَيَّنَ لي أَنَّنا في كَهْفٍ صَغيرٍ لا يَزيدُ عَرْضُهُ عَلى مِتْرٍ وَنِصْفِ المِتْرِ ؛ وَكانَ سَقْفُهُ هُوَ آلحَجَرَ آلمُتَأَرْجِحَ . وَرَأَيْتُ لِيُو جالِسًا عَلى آلأَرْضِ ، وَجُوب جالِسًا بِجِوارِهِ مَذْعورًا ، أَمّا عائِشَةُ فَكانَتْ تَقِفُ بِهُدوءٍ في آنْتِظارِ أَنْ يَتَأَلَّقَ آلمِصْباحانِ .

قالَتْ : « يُمْكِنُكُمُ آلآنَ أَنْ تَنالوا قِسْطًا مِنَ آلرّاحَةِ في هٰذا آلمَكانِ ، آلَّذي كانَ يَوْمًا ما بَيْتَ حَكيمٍ يُدْعى نُوت ، عاشَ هُنا وَحْدَهُ ، وَكانَ عالِمًا بِأَسْرارِ آلطَّبيعَةِ ، وَقَدِ آكْتَشَفَ نارَ آلحَياةِ آلَّتي سَأُريها لَكُمْ . إِنَّ عِظامَ هٰذا آلحَكيمِ تَرْقُدُ هُنا . وَقَدْ رَفَضَ أَنْ يَدْخُلَ نارَ آلحَياةِ ، لِأَنَّهُ قالَ : ' يُولَدُ آلإِنْسانُ لِيَموتَ . ' وَقَدْ جِئْتُ إِلى هٰذِهِ آلبَلْدَةِ مِنْ وَقْتٍ لَيْسَ بِآلبَعيدِ ، وَأَسَرَّ إِلَيَّ بِسِرِّ نارِ آلحَياةِ . وَلَقيتُ كاليكْراتِس في ذٰلِكَ آلوَقْتِ ، وَأَحْبَبْتُهُ ، وَعَزَمْتُ عَلى أَنْ آتِيَ مَعَهُ إِلى هُنا لِنَنالَ نِعْمَةَ آلحَياةِ آلخالِدَةِ . وَعِنْدَما أَتَيْنا رَأَيْتُ آلعَجوزَ نُوت راقِدًا وَقَدْ فارَقَتْهُ آلحَياةُ . »

وَضَعْتُ يَدَيَّ عَلى آلأَرْضِ ، فَلَمَسَتْ أَصابِعي شَيْئًا تَبَيَّنْتُ أَنَّهُ ضِرْسٌ آدَمِيٌّ ؛ وَرَأَيْتُ عَنْ شِمالي جُمْجُمَةً مُلْقاةً .

قالَتْ عائِشَةُ : « نَعَمْ ، هٰذا هُوَ كُلُّ ما تَبَقّى مِنْ حِكْمَةِ نُوت . وَعِنْدَما رَفَضْتَ ، يا كاليكْراتِس ، أَنْ تَتْبَعَني إِلى داخِلِ نارِ آلحَياةِ ، تَناوَلْتُ آلرُّمْحَ آلَّذي كُنْتَ تَحْمِلُهُ وَقَتَلْتُكَ بِهِ . وَأَخَذْتُ أَبْكي ، لِأَنَّني أَصْبَحْتُ خالِدَةً لا يَنالُ مِنّي آلمَوْتُ ، عَلى حينِ كُنْتَ أَنْتَ مَيِّتًا . هٰذِهِ هِيَ آلحَقيقَةُ ، وَلَمْ أُخْفِ عَنْكَ شَيْئًا . وَآلآنَ قُلْ لي إِنَّكَ قَدْ غَفَرْتَ لي فَعْلَتي هٰذِهِ ، وَقَتْلي تِلْكَ آلفَتاةَ أُوسْتان ، آلَّتي أَحَبَّتْكَ ، لِأَنَّها عَصَتْ أَوامِري . »

واصَلَتْ عائِشَةُ حَديثَها بِصَوْتٍ هامِسٍ تَشوبُهُ رِقَّةٌ بالِغَةٌ ، فَقالَتْ :

« إرْفَعْ عَنْ وَجْهِي ٱلنِّقابَ دونَ أَنْ يَنْتابَكَ أَدْنى شعورٍ بِٱلْخَوْفِ ، وَكَأَنِّي فَتاةٌ رِيفِيَّةٌ ، وَلَسْتُ أَكْثَرَ نِساءِ ٱلعالَمِ حِكْمَةً وَجَمالًا . »

تَأَثَّرَ لِيُو بِشِدَّةٍ ، وَزالَ عَنْهُ سِحْرُ ٱلمَلِكَةِ ٱلغَرِيبَةِ ؛ وَكانَ حَتّى تِلْكَ ٱللَّحْظَةِ وَاقِعًا تَحْتَ سَيْطَرَتِها مِثْلَ طائِرٍ واقِعٍ تَحْتَ سَيْطَرَةِ نَظَراتِ ثُعْبانٍ ؛ وَلٰكِنَّ ٱلحالَ تَغَيَّرَ ، وَأَدْرَكَ أَنَّهُ في ٱلحَقِيقَةِ يُحِبُّ تِلْكَ ٱلمَرْأَةَ ٱلرّائِعَةَ وَٱلفاتِنَةَ . وَرَأَيْتُ عَيْنَيْهِ مُغْرَوْرِقَتَيْنِ بِٱلدُّموعِ . وَتَناوَلَ يَدَها ، وَأَزاحَ ٱلنِّقابَ عَنْ وَجْهِها ، وَنَظَرَ إلى عَيْنَيْها ٱلغامِضَتَيْنِ قائِلًا : « إِنَّني أُحِبُّكِ يا عائِشَةُ ، وَقَدْ غَفَرْتُ لَكِ ما فَعَلْتِهِ . »

وَرَكَعَتْ عَلى رُكْبَتَيْها ، وَأَمْسَكَتْ يَدَهُ وَضَمَّتْها إِلَيْها قائِلَةً : « أَعِدُكَ ، في أُولى ساعاتِ حُبِّنا وَأَجْمَلِها ، أَنْ أَتَخَلّى عَنِ ٱلشَّرِّ ، وَأَنْ أَسْعى إلى كُلِّ ما هُوَ خَيْرٌ . سَوْفَ يَهْدِيني صَوْتُكَ إلى طَرِيقِ ٱلواجِبِ . لَنْ أَسْعى وَراءَ مَجْدٍ ، وَلٰكِنّي سَأَعْمَلُ فَقَطْ عَلى أَنْ أُحِبَّكَ وَأَرْعاكَ أَنْتَ يا مَنْ عُدْتَ لي أَخيرًا . »

وَنَهَضَتْ وَتَناوَلَتْ مِصْباحًا ، وَسِرْنا صَوْبَ آخِرِ ٱلكَهْفِ . وَرَأَيْنا هُناكَ سُلَّمًا لَمْ يَصْنَعْهُ إِنْسانٌ ، وَإِنَّما كانَ مَجْموعَةً مِنَ ٱلصُّخورِ مَرْصوصَةً بِشَكْلٍ جَعَلَها تَبْدو مِثْلَ دَرَجٍ بُدائِيٍّ ، وَكانَ يُفْضي إلى مَمَرٍّ شَديدِ ٱلإِنْحِدارِ . وَسِرْنا فيهِ أَكْثَرَ مِنْ نِصْفِ ٱلسّاعَةِ، حَتّى وَصَلْنا إلى مَكانٍ بالِغِ ٱلضِّيقِ لِدَرَجَةِ أَنَّنا ٱضْطُرِرْنا إلى أَنْ نَسِيرَ فيهِ ٱلواحِدَ إِثْرَ

ٱلآخَرِ . وَأَدّى بِنا في ٱلنِّهايَةِ إلى كَهْفٍ بالِغِ ٱلاتِّساعِ لِدَرَجَةِ أَنَّنا لَمْ نَسْتَطِعْ أَنْ نَرى سَقْفَهُ أَوْ جُدْرانَهُ . والشَّيْءُ ٱلوَحيدُ ٱلَّذي جَعَلَنا نُدْرِكُ أَنَّهُ كَهْفٌ هُوَ صَدى وَقْعِ خُطُواتِنا ، وَٱلهَواءُ ٱلسّاكِنُ تَمامًا .

واصَلْنا سَيْرَنا صامِتِينَ تَتَقَدَّمُنا عائِشَةُ تَقودُ خُطُواتِنا . وَبَلَغْنا كَهْفًا أَصْغَرَ مِنَ ٱلكَهْفِ ٱلأَوَّلِ ، وَيَنْتَهي بِمَمَرٍّ يومِضُ فيهِ نورٌ خافِتٌ .

أَبْدَتْ عائِشَةُ ٱسْتِحْسانَها لِهٰذا ٱلمَشْهَدِ ، وَجَدَّتْ في سَيْرِها . وَأَخَذَ ٱلنّورُ يَشْتَدُّ ثُمَّ يَخْبو ، وَيَعودُ يَشْتَدُّ ثُمَّ يَخْبو مِثْلَ أَشِعَّةِ نورِ ٱلمَنارِ ٱلَّتي تَشُقُّ ٱلظَّلامَ في ٱلبَحْرِ لِتَهْدِيَ ٱلسُّفُنَ . وَكانَ يُصاحِبُ كُلَّ وَمْضَةِ شُعاعٍ صَوْتٌ عَميقٌ كَصَوْتِ ٱرْتِطامِ ٱلأَمْواجِ ٱلصّاخِبَةِ بِٱلصُّخورِ .

وَٱنْعَطَفَ بِنا ٱلمَمَرُّ لِنَرى عَجَبًا .

رَأَيْنا كَهْفًا ثالِثًا طولُهُ حَوالى خَمْسَةَ عَشَرَ مِتْرًا ، وَعَرْضُهُ حَوالى عَشَرَةِ أَمْتارٍ ، وَتُغَطّي أَرْضِيَّتَهُ رِمالٌ بَيْضاءُ . وَلَمْ يَكُنِ ٱلكَهْفُ مُظْلِمًا مِثْلَ ٱلكَهْفَيْنِ ٱلآخَرَيْنِ ، بَلْ كانَ يَغْمُرُهُ ضَوْءٌ هادِئٌ وَرْدِيٌّ . وَبَيْنَما كُنّا نَتَأَمَّلُهُ وَنَتَساءَلُ عَنْ مَصْدَرِ ٱلضَّوْءِ ، حَدَثَ شَيْءٌ رَهيبٌ وَجَميلٌ في نَفْسِ ٱلوَقْتِ . فَقَدْ ظَهَرَ في نِهايَةِ ٱلكَهْفِ جِدارٌ هائِلٌ مِنْ نيرانٍ ذاتِ أَلْوانٍ عَديدَةٍ وَبَريقٍ يَفوقُ ٱلخَيالَ ، وَصاحَبَ ظُهورَها أَجيجٌ شَديدٌ كادَ يَهُزُّ ٱلأَرْضَ . وَظَلَّتِ ٱلنِّيرانُ ساطِعَةً حَوالى نِصْفِ دَقيقَةٍ ٱهْتَزَّ مَعَها ٱلكَهْفُ ، ثُمَّ خَبَتْ تارِكَةً ٱلضَّوْءَ ٱلوَرْدِيَّ ٱلَّذي رَأَيْناهُ أَوَّلًا .



صاحَتْ عائِشَةُ : « اِقْتَرِبوا ! هٰذا هُوَ قَلْبُ ٱلحَياةِ عِنْدَما يَدُقُّ في صَدْرِ ٱلعالَمِ . »

وَتَبِعْناها عَبْرَ ٱلضَّوْءِ ٱلوَرْدِيِّ حَتّى وَقَفْنا قَبْلَ ٱلمَوْضِعِ حَيْثُ دَقَّ قَلْبُ ٱلعالَمِ ٱلعَظيمُ ، وَحَيْثُ مَرَّ جِدارُ ٱلنّيرانِ . وَعِنْدَما سِرْنا شَعَرْنا بِقُوَّةٍ عاتِيَةٍ وَرائِعَةٍ تَغْمُرُنا ، وَبِإِحْساسٍ بِقُدْرَتِنا عَلى أَنْ نَعْمَلَ كُلَّ شَيْءٍ ، وَبِأَنَّ في داخِلِنا فَرَحًا أَسْمى وَنُفوسًا أَنْبَلَ مِمّا كُنّا نَعْرِفُ مِنْ قَبْلُ .

وَعادَ أَجيجُ النّيرانِ ، وَأَخَذَ يَدورُ كَعاصِفَةٍ . ثُمَّ ٱنْدَلَعَتِ ٱلنّيرانُ ذاتُ ٱلأَلْوانِ ٱلعَديدَةِ ، فَخَرَرْنا أَمامَها عَلى رُكَبِنا وَأَخْفَيْنا وُجوهَنا ، عَلى حينِ وَقَفَتْ عائِشَةُ مادَّةً ذِراعَيْها نَحْوَ ٱلضَّوْءِ . وَقالَتْ بَعْدَ خُفوتِهِ : « يَنْبَغي

عَلَيْكَ يا كاليكْراتِس ، عِنْدَما تَعودُ ٱلنّيرانُ مَرَّةً أُخرى أَنْ تَقِفَ وَسْطَها . »

رَدَّ لِيو قائِلًا : « إِنَّني مُصْغٍ إِلَيْكِ يا عائِشَةُ . وَلٰكِنْ أَلَنْ تَقْضي عَلَيَّ ٱلنّيرانُ ، فَأَهْلِكَ وَتَهْلِكي أَنْتِ أَيْضًا ؟ وَمَعَ ذٰلِكَ سَأَفْعَلُ ما تُريدينَ . »

اِسْتَغْرَقَتْ عائِشَةُ في ٱلتَّفْكيرِ لَحْظَةً ، ثُمَّ قالَتْ : « لا يُدْهِشُني أَنْ أَراكَ خائِفًا ، وَلٰكِنْ هَبْ أَنَّكَ رَأَيْتَني أَقِفُ وَسْطَ ٱلنّيرانِ ثُمَّ أَخْرُجُ مِنْها سالِمَةً ، فَهَلْ تَدْخُلُها أَنْتَ أَيْضًا ؟ سَوْفَ أَغْتَسِلُ في حَمّامِ ٱلحَياةِ هٰذا مَرَّةً أُخْرى . إِنَّهُ لَنْ يُطيلَ مِنْ أَيّامِ عُمْري ، وَلَنْ يَزيدَ مِنْ جَمالي ؛ وَلٰكِنْ لِأَنَّني عِنْدَما دَخَلْتُ ٱلنّيرانَ أَوَّلَ مَرَّةٍ كانَ قَلْبي مَليئًا بِٱلكَراهِيَةِ لِلْمَرْأَةِ المِصْرِيَّةِ أَمينارْتاس . أَمّا ٱلآنَ فَٱلأَمْرُ مُخْتَلِفٌ ؛ فَقَلْبي مَليءٌ بِٱلسَّعادَةِ وَٱلحُبِّ . وَلَعَلَّ ٱلنّيرانَ تَغْسِلُني وَتُطَهِّرُني وَتُنَقّيني وَتَجْعَلُني أَكْثَرَ صَلاحِيَةً لَكَ . »

وَسَمِعْنا أَجيجَ ٱلنّيرانِ ٱلعائِدَةِ مِنْ بَعيدٍ فَصاحَتْ : « اِسْتَعِدَّ ! اِسْتَعِدَّ ! »

الفَصْلُ ٱلحادي وَٱلثّلاثونَ

عائِشَــةُ وَسْــطَ ٱلنّيــرانِ

أزاحَتْ عائِشَةُ ٱلنِّقابَ عَنْ وَجْهِها فَتطايَرَ شَعْرُها ، في ٱلوَقْتِ ٱلّذي ٱزْدادَ فيهِ أجيجُ ٱلنّيرانِ ٱقْتِرابًا . وَأحاطَتْ رَقَبَةَ لِيو بِذِراعِها هامِسَةً : « تُرى أتَعْرِفُ يا عَزيزي كَمْ أُحِبُّكَ ؟ »

كانَ أجيجُ ٱلنّيرانِ أشْبَهَ بِريحٍ عاصِفَةٍ تَخْتَرِقُ غابَةً وَتُطَوِّحُ بِأشْجارِها . وَأخَذَ هٰذا ٱلأجيجُ يَزْدادُ ٱقْتِرابًا ، وَٱنْطَلَقَتْ ألْسِنَةُ ٱلنّيرانِ في ٱلجَوِّ ٱلوَرْدِيِّ ٱللَّوْنِ ، ثُمَّ ظَهَرَتْ حافَةُ ٱلنّيرانِ ، فَٱلْتَفَتَتْ عائِشَةُ نَحْوَها . وَٱسْتَمَرَّ تَقَدُّمُ ٱلنّيرانِ ، حَتّى أحاطَتْ بِعائِشَةَ وَغَطَّتْها تَمامًا . وَبَدَتْ عائِشَةُ وَكَأنَّها تَغْتَرِفُ مِنْها بِيَدَيْها وَتَسْكُبُها فَوْقَ رَأسِها كَما تَسْكُبُ ٱلماءَ . وَرَأيْتُها تَفْتَحُ فَمَها وَتَسْتَنْشِقُها ، ثُمَّ وَقَفَتْ ساكِنَةً مادَّةً ذِراعَيْها وَكَأنَّها روحُ ٱلنّيرانِ . وَأخَذَتِ ٱلنّيرانُ تَتَلاعَبُ فَوْقَ شَعْرِها ، وَتَتَراقَصُ حَوْلَ رَقَبَتِها ، وَبَدَتْ وَكَأنَّها وَجَدَتْ مُسْتَقَرًّا لَها في عَيْنَيْها .

إنَّني لَمْ أرَ في حَياتي مِثْلَ هٰذا ٱلجَمالِ .

وَفَجْأةً طَرَأ تَغَيُّرٌ عَلى وَجْهِ عائِشَةَ ؛ إذِ ٱخْتَفَتِ ٱلإبْتِسامَةُ مِنْ عَلى شَفَتَيْها ، وَحَلَّ مَحَلَّها تَعْبيرٌ جافٌّ قاسٍ . وَٱرْتَسَمَتْ عَلى وَجْهِها ٱلمُسْتَديرِ عَلاماتُ حِدَّةٍ وَقَلَقٍ ، وَفَقَدَتْ عَيْناها بَريقَهُما ، وَبَدَتْ قامَتُها أقَلَّ ٱنْتِصابًا .

فَرَكْتُ عَيْنَيَّ ظانًّا أنَّ ٱلضَّوْءَ ٱلمُبْهِرَ جَعَلَني أُخْطِئُ فيما أرى . وَكانَتِ ٱلنّيرانُ في ذٰلِكَ ٱلوَقْتِ قَدْ مَرَّتْ تارِكَةً عائِشَةَ واقِفَةً . وَلٰكِنَّها خَطَتْ ناحِيَةَ لِيو وَمَدَّتْ لَهُ إحْدى ذِراعَيْها ، وَكانَتْ ذِراعًا نَحيفَةً ناتِئَةَ ٱلعِظامِ . أمّا وَجْهُها فَقَدْ كَسَتْهُ أمامَ ناظِرَيَّ تَجاعيدُ ٱلشَّيْخوخَةِ . وَقَدْ رَأى لِيو أيْضًا ما رَأيْتُهُ . وَسَمِعْناها تَقولُ :

« ما هٰذا يا كاليكْراتِس ؟ إنَّ ٱلنّيرانَ تَبْدو مُخْتَلِفَةً نَوْعًا ما .. إنَّني لا أسْتَطيعُ أنْ أرى بِوُضوحٍ . » وَرَفَعَتْ يَدَها وَلَمَسَتْ شَعْرَها ، وَسُرْعانَ ما سَقَطَ شَعْرُها كُلُّهُ عَلى ٱلأرْضِ ، فَصاحَ جوب :

« يا لَلْهَوْلِ ! أُنْظُرْ ! أُنْظُرْ ! إنَّ وَجْهَها يَتَجَعَّدُ ! إنَّها تَتَحَوَّلُ إلى ٱمْرَأةٍ عَجوزٍ ! » ثُمَّ سَقَطَ عَلى ٱلأرْضِ فاقِدًا ٱلوَعْيَ .

كانَ قَوْلُ جوب صَحيحًا ، فَقَدْ رَأيْتُ لَوْنَ جِلْدِها يَتَغَيَّرُ إلى ٱللَّوْنِ ٱلأصْفَرِ ثُمَّ يُصْبِحُ بُنِّيًّا ، وَقَدْ تَقاطَعَتْ فَوْقَهُ آلافُ ٱلتَّجاعيدِ . وَبَدا وَجْهُها صَغيرًا غَيْرَ مُحَدَّدِ ٱلمَعالِمِ . وَرَقَدَتْ فَوْقَ ٱلأرْضِ تَتَحَرَّكُ



بِوَهَنٍ ، وَهِيَ ٱلَّتي كانَتْ قَبْلَ دَقيقَتَيْنِ أَجْمَلَ ٱمْرَأَةٍ رَآها ٱلعالَمُ .

كانَتْ تُحْتَضَرُ أَمامَ أَعْيُنِنا ، فَحَمِدْنا ٱللهَ عَلى ذٰلِكَ ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كانَتِ ٱلحَياةُ قَدِ ٱمْتَدَّتْ بِها ، فَما ٱلَّذي كانَتْ سَتَفْعَلُهُ ؟! وَرَفَعَتْ نَفْسَها عَلى يَدَيْها ٱللَّتَيْنِ نَتَأَتْ مِنْهُما ٱلعِظامُ ، وَتَلَفَّتَتْ حَوْلَها بِعَيْنَيْنِ لا تُبْصِرانِ ، وَقالَتْ بِصَوْتٍ واهِنٍ مُرْتَعِشٍ : « لا تَنْسَني يا كاليكْراتِس ! اِرْثِ لِحالي . وَسَوْفَ أَعودُ مَرَّةً أُخْرى وَأَكونُ جَميلَةً . »

وَسَقَطَتْ عائِشَةُ مَيْتَةً في ٱلمَكانِ ٱلَّذي قَتَلَتْ فيهِ كاليكْراتِس مُنْذُ أَلْفَيْ سَنَةٍ مَضَتْ .

وَسَقَطْتُ أَنا عَلى ٱلأَرْضِ ٱلرَّمْلِيَّةِ في ٱلمَوْضِعِ نَفْسِهِ فاقِدًا ٱلوَعْيَ .

الفَصْلُ ٱلثّاني وَٱلثّلاثونَ
قَفْزَةٌ مِنْ أَجْلِ ٱلحَياةِ

لا أَدْري كَمْ مَضى عَلَيَّ مِنَ ٱلوَقْتِ ، وَأَنا راقِدٌ عَلى ٱلأَرْضِ ، وَلَعَلَّهُ بِضْعُ ساعاتٍ . وَعِنْدَما فَتَحْتُ عَيْنَيَّ وَجَدْتُ صَديقَيَّ راقِدَيْنِ بِجِواري .

نَهَضْتُ ، وَٱلْتَقَطْتُ ٱلنِّقابَ ٱلمُلْقى ، وَبَسَطْتُهُ فَوْقَ مَنْ كانَتْ تُسَمّى عائِشَةَ ، ثُمَّ ٱتَّجَهْتُ إلى جُوب ٱلَّذي كانَ مُنْكَفِئًا عَلى وَجْهِهِ ، فَعَدَلْتُهُ فَمالَ رَأْسُهُ إلى ٱلخَلْفِ بِصورَةٍ غَيْرِ طَبيعِيَّةٍ وَدَقَّقْتُ فيهِ ٱلنَّظَرَ فَوَجَدْتُهُ مَيِّتًا .

وَأَخيرًا أَفاقَ لِيُو ، وَلٰكِنَّني رَأَيْتُ شَيْئًا آخَرَ رَهيبًا : رَأَيْتُ شَعْرَ رَأْسِهِ وَقَدِ ٱبْيَضَّ مِثْلَ ٱلثَّلْجِ ، وَبَدا وَكَأَنَّ ٱلعُمْرَ قَدْ تَقَدَّمَ بِهِ عِشْرينَ عامًا .

قُلْتُ لَهُ : « لَقَدْ ماتَ جُوب . »

قالَ : « آهٍ ! » وَكانَ جَلِيًّا أَنَّ عَقْلَهُ لَمْ يَسْتَوْعِبْ ما رَآهُ . وَعَمَدْتُ

إلى ٱلمِصْباحَيْنِ فَمَلأْتُهُما بِٱلزَّيْتِ مِنْ وِعاءِ ٱلزَّيْتِ ٱلَّذي أَحْضَرْناهُ مَعَنا .

أَخيرًا نَهَضَ لِيُو ، وَذَهَبَ إلى جُوب وَجَسَّ يَدَهُ . وَٱلْتَقَطَ خُصْلَةً مِنْ شَعْرِ عائِشَةَ ، وَضَغَطَ بِها عَلى شَفَتَيْهِ ، وَقالَ هامِسًا :

« لَقَدْ طَلَبَتْ مِنّي أَلّا أَنْساها ، وَلَنْ أَنْساها . وَسَوْفَ أَنْتَظِرُها — مِثْلَما ٱنْتَظَرَتْني . »

وَلَمْ نَجِدْ صُعوبَةً في أَنْ نَعْرِفَ طَريقَ ٱلعَوْدَةِ عَبْرَ ٱلكُهوفِ ، لِأَنَّني حَرَصْتُ عَلى أَنْ أَعِيَ ٱلطَّريقَ جَيِّدًا . وَلَمْ يَتَبادَلْ أَيُّنا ٱلحَديثَ مَعَ صَديقِهِ .

وَأَخيرًا بَلَغْنا ٱلصَّخْرَةَ ٱلمُتَأَرْجِحَةَ . وَلَمْ يَكُنْ عَلَيْها ٱللَّوْحُ ٱلخَشَبِيُّ ؛ وَلَمْ يَكُنْ أَمامَنا سَبيلٌ لِنَعْبُرَ سِوى أَنْ نَقْفِزَ .

وَلَمْ أَكُنْ أَدْري في أَيَّةِ ساعَةٍ كُنّا ؛ فَقَدْ تَوَقَّفَتْ ساعَتي ، وَتَمَنَّيْتُ أَنْ يَكونَ ٱلوَقْتُ قُرْبَ ٱلمَغيبِ ، حَتّى يَسْطَعَ ٱلنّورُ مَرَّةً أُخْرى . وَجَلَسْنا نَنْتَظِرُ ، لا نَدْري ما إذا كانَ سَيَسْطَعُ ، وَلا مَتى سَيَسْطَعُ !

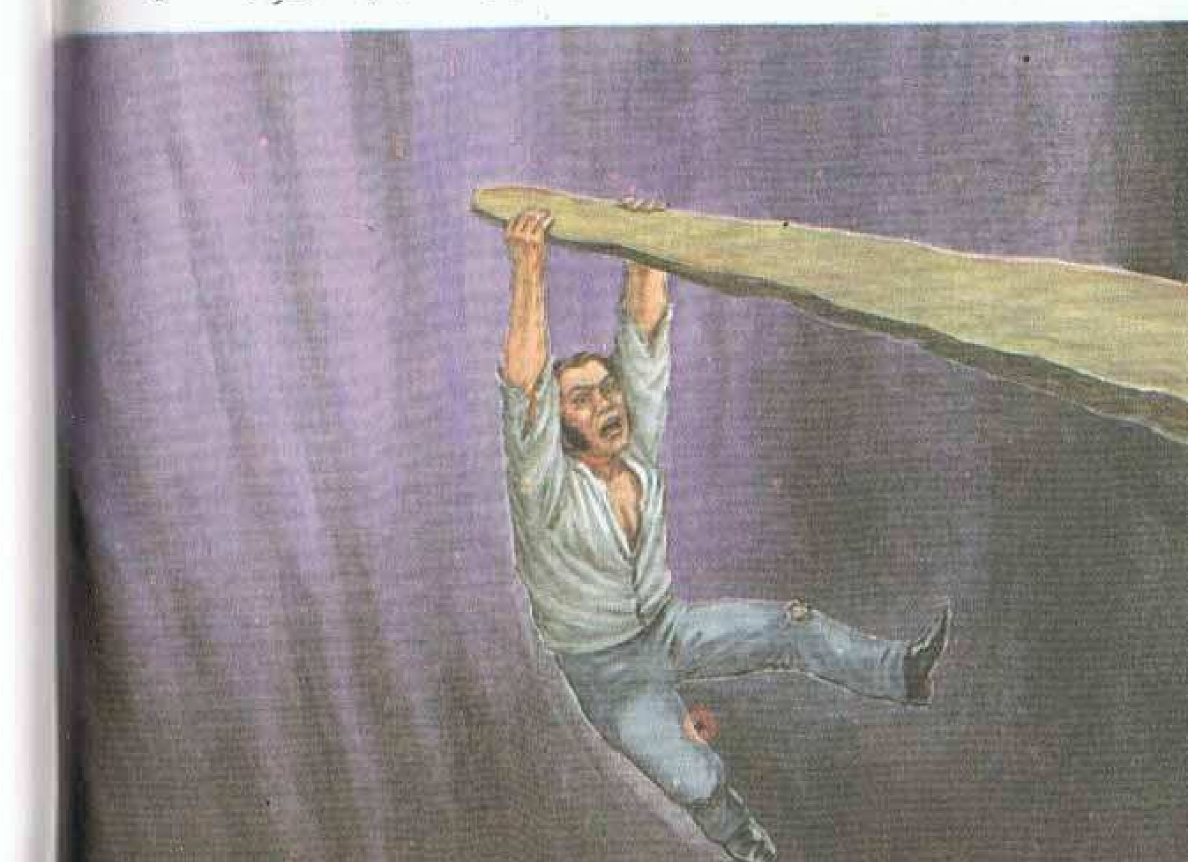
وَبَعْدَ مُرورِ بِضْعِ ساعاتٍ ٱخْتَرَقَ ٱلظَّلامَ ، كَالرُّمْحِ ، شُعاعٌ مِنَ ٱلنّورِ ٱلأَحْمَرِ ، فَقُلْتُ لِلِيُو : « سَوْفَ أَعْبُرُ أَنا أَوَّلًا ، وَٱجْلِسْ أَنْتَ عَلى طَرَفِ ٱلصَّخْرَةِ ٱلآخَرِ لِتُثَبِّتَها . » ثُمَّ قُمْتُ بِعَمَلٍ لَمْ أَقُمْ بِهِ مُنْذُ كانَ لِيُو صَبِيًّا : فَقَدْ ضَمَمْتُهُ إلى صَدْري وَقَبَّلْتُهُ قائِلًا : « مَعَ ٱلسَّلامَةِ ! وَآمُلُ

أَنْ نَلْتَقِيَ مَرَّةً أُخْرى . »

ثُمَّ تَراجَعْتُ إلى ٱلخَلْفِ بِقَدْرِ ما ٱسْتَطَعْتُ حَتّى أَتَمَكَّنَ مِنَ ٱلعَدْوِ أَطْوَلَ مَسافَةٍ مُتاحَةٍ . وَٱنْتَظَرْتُ هَبَّةَ ريحٍ تَأْتي مِنْ وَرائي : فَقَدْ كانَ أَمَلِي ٱلوَحيدُ في ٱلعُبورِ أَنْ تُساعِدَني ٱلرّيحُ بِٱنْدِفاعَتِها .

وَبَعْدَ أَنْ قَفَزْتُ أَدْرَكْتُ وَأَنا في ٱلهَواءِ أَنَّ قَفْزَتي جاءَتْ أَقْصَرَ مِمّا يَجِبُ : فَلَمْ يَبْلُغِ ٱلجانِبَ ٱلآخَرَ سِوى يَدَيَّ وَجِسْمِي ، أَمّا ساقايَ فَبَقِيَتا مُعَلَّقَتَيْنِ في ٱلفَراغِ تَحْتي

وَعِنْدَئِذٍ سَمِعْتُ صَرْخَةً ، وَأَبْصَرْتُ لِيُو وَقَدْ طارَ في ٱلهَواءِ وَتَخَطّاني



بِقَفْزَةٍ رائِعَةٍ ، دَفَعَهُ إِلَيْها ٱلذُّعْرُ وَمُحاوَلَتي ٱليائِسَةُ . وَأَلْقى بِنَفْسِهِ فَوْقَ ٱلصَّخْرَةِ ، وَمَدَّ يَدَيْهِ وَأَمْسَكَني . وَسَمِعْتُ طَقْطَقَةَ ساعِدَيْهِ وَهُوَ يَبْذُلُ مِنْ قُوَّتِهِ ٱلفَتِيَّةِ ٱلمُدْهِشَةِ وَيَرْفَعُني لِأَتَمَكَّنَ مِنَ ٱلصُّعودِ فَوْقَ ٱلصَّخْرَةِ آمِنًا .

وَكانَ عَلَيْنا أَنْ نَتَحَسَّسَ طَريقَنا ، لِأَنَّنا خَلَّفْنا وَراءَنا ٱلمِصْباحَيْنِ . وَبَقينا بِلا طَعامٍ وَبِلا ماءٍ ساعاتٍ عَديدَةً حَتّى دَبَّ ٱلوَهَنُ في كِلَيْنا ، فَٱسْتَلْقَيْنا عَلى ٱلأَرْضِ وَنِمْنا . لا أَدْري كَمْ مَضى عَلَيْنا مِنَ ٱلوَقْتِ وَنَحْنُ نائِمانِ . وَعاوَدْنا سَيْرَنا مُتَلَمِّسَيْنِ ٱلطَّريقَ خُطْوَةً وَراءَ خُطْوَةٍ .

أَخيرًا ، وَبَعْدَ أَنْ كِدْنا نَفْقِدُ ٱلأَمَلَ ، أَبْصَرْنا ضَوْءًا خافِتًا أَمامَنا .

وَكانَ ٱلوَقْتُ فَجْرًا عِنْدَما خَرَجْنا مِنَ ٱلكَهْفِ فَقُلْتُ لِلِيُو : « واصِلِ ٱلسَّيْرَ يا لِيُو ! إِنَّ أَمَلَنا مَعْقودٌ عَلى أَلّا يَكونَ بِلالِي قَدْ ذَهَبَ . »

وَبَيْنَما كُنّا نَسْلُكُ طَريقَنا عَلى أَيْدينا وَرُكَبِنا مِنْ فَرْطِ ضَعْفِنا ، إِذا بِواحِدٍ مِنَ ٱلخَدَمِ يَلْمَحُنا وَيَجْري عائِدًا إِلى مِنْطَقَةِ ٱلأَشْجارِ .

وَرَأَيْتُ بِلالِي يُسْرِعُ نَحْوَنا صائِحًا : « إِنَّهُ وَلَدي .. وَمَعَهُ ٱلأَسَدُ ! لَقَدِ ٱبْيَضَّ شَعْرُ رَأْسِهِ ! وَلٰكِنْ أَيْنَ جوب ؟ وَأَيْنَ « شِيُّ ٱلَّتي يَجِبُ أَنْ تُطاعَ » ؟ »

أَجَبْتُهُ : « لَقَدْ ماتَ ٱلاثْنانِ . »

الفَصْلُ ٱلثَّالِثُ وَٱلثَّلاثُونَ
رِحْلَةُ ٱلعَوْدَةِ

عِنْدَما ٱسْتَيْقَظْتُ مِنْ نَوْمي ، رَأَيْتُ بِلالِي جالِسًا بِجوارِ فِراشي . وَتَبيَّنْتُ أَنَّني في كوخٍ بُدائِيٍّ صَنَعَهُ خَدَمُ عائِشَةَ مِنْ فُروعِ ٱلشَّجَرِ . وَرَأَيْتُ لِيُو في ٱلجانِبِ ٱلآخَرِ مِنَ ٱلكوخِ ، وَكانَ لا يَزالُ نائِمًا ، وَقَدِ ٱبيَضَّ شَعْرُ رَأْسِهِ تَمامًا ، وَٱمْتَلَأَتْ ذِراعاهُ وَوَجْهُهُ بِجُروحٍ أَحْدَثَتْها ٱلصُّخورُ وَتَجَمَّدَ فَوْقَها ٱلدَّمُ .

أَغْمَضْتُ عَيْنَيَّ ، فَسَمِعْتُ بِلالِي يَقولُ : « لَقَدْ نِمْتَ فَتْرَةً طَوِيلَةً . »

سَأَلْتُهُ : « كَمْ مِنَ ٱلوَقْتِ مَضى عَلَيَّ وَأَنا نائِمٌ ؟ »

أَجابَني : « يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ . أَخْبِرْني بِما حَدَثَ . »

لَمْ أَحْكِ لِبِلالِي كُلَّ شَيْءٍ ، وَإِنَّما ٱكْتَفَيْتُ بِأَهَمِّ ٱلأَحْداثِ ، وَتَبَيَّنْتُ أَنَّهُ لَمْ يُصَدِّقْ أَنَّ « شي » قَدْ ماتَتْ .

قالَ : « لَقَدْ عَزَمَتْ بِحِكْمَتِها عَلى أَنْ تَتْرُكَنا لِفَتْرَةٍ . فَقَدْ تَغَيَّبَتْ مَرَّةً في عَهْدِ والِدي لِمُدَّةِ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً . وَيُقالُ إِنَّها تَغَيَّبَتْ مُنْذُ زَمَنٍ بَعيدٍ لِمُدَّةِ أَرْبَعينَ سَنَةً ، وَعادَتْ وَفَتَكَتْ بِٱمْرَأَةٍ ٱحْتَلَّتْ مَكانَها كَمَلِكَةٍ . »

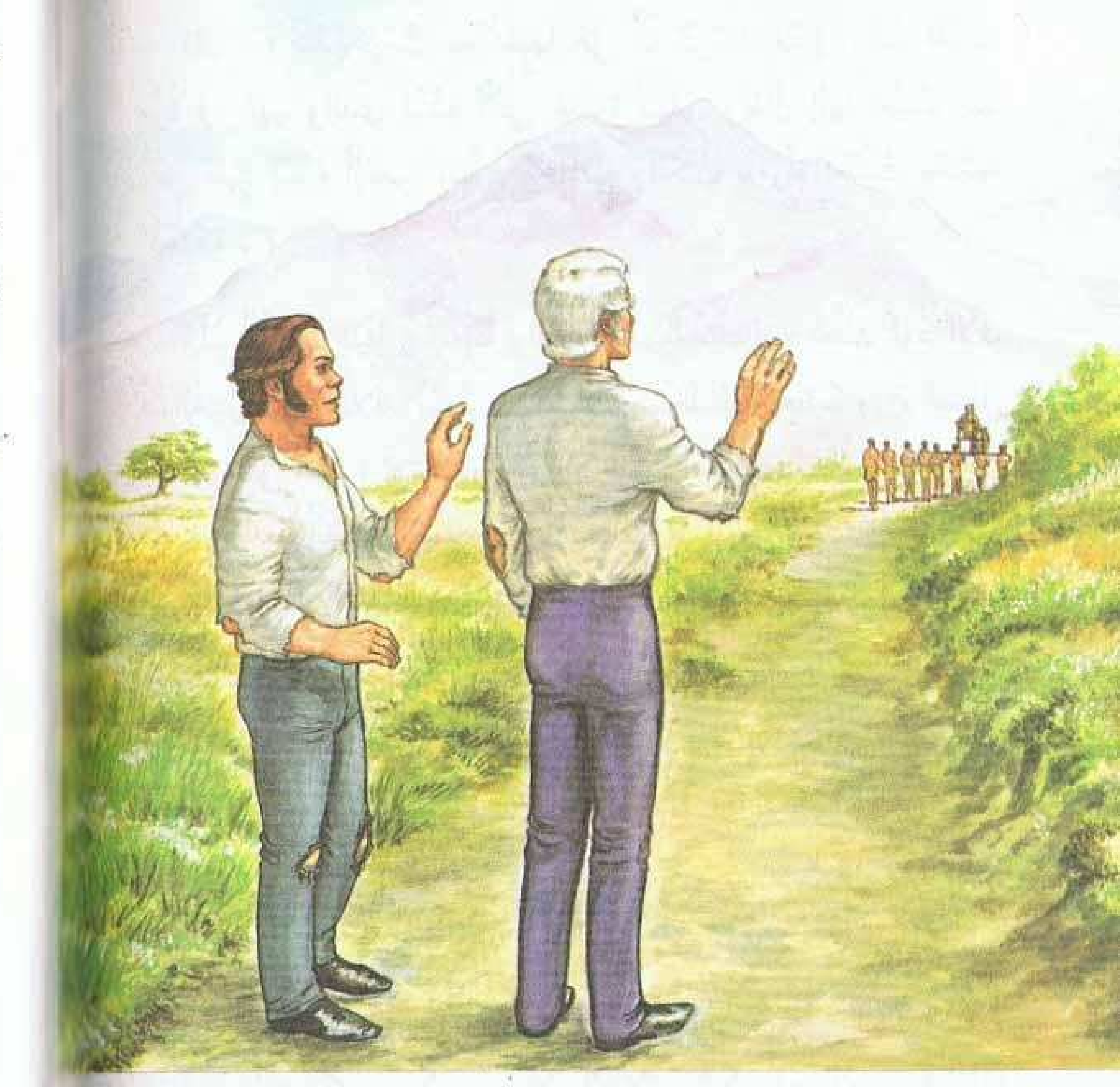
وَلَمْ أَقُلْ لَهُ شَيْئًا ، وَلٰكِنَّهُ واصَلَ حَديثَهُ قائِلًا : « لَعَلَّكَ تَوَدُّ ٱلآنَ أَنْ تُغادِرَ هٰذِهِ ٱلبِلادَ ؟ وَقَدْ سَمِعْتُ أَنَّهُ يوجَدُ نَهْرٌ عَظيمٌ وَراءَ ٱلسَّهْلِ ٱلعَظيمِ عَلى مَسيرَةِ ثَلاثَةِ أَيّامٍ عَبْرَ ٱلأَراضي ٱلمُنْخَفِضَةِ ، ثُمَّ سَبْعَةِ أَيّامٍ أُخْرى . لَقَدْ أَنْقَذْتَ حَياتي عِنْدَما سَقَطْتُ في ٱلماءِ ، وَبِٱسْتِطاعَتي ٱليَوْمَ أَنْ أَمُدَّ لَكَ يَدَ ٱلمُساعَدَةِ . وَلٰكِنِ ٱنْظُرْ : إِنَّ ٱلأَسَدَ يَسْتَيْقِظُ ، وَعَلَيْكُما أَنْ تَتَناوَلا ٱلطَّعامَ ٱلَّذي أَعْدَدْتُهُ لَكُما . »

وَغابَ بِلالِي عَنّا طَوالَ ٱليَوْمِ ٱلتّالي لِيُعِدَّ ٱلرِّجالَ لِيَحْمِلونا وَٱلمُرْشِدينَ لِيُرْشِدونا إِلى ٱلطَّريقِ .

قالَ : « سَوْفَ أَصْطَحِبُكُما لِأَنَّني لا أَثِقُ بِهٰؤُلاءِ ٱلقَوْمِ . »

لَنْ أَحْكِيَ تَفاصيلَ هٰذِهِ ٱلرِّحْلَةِ . فَقَدِ ٱجْتَزْنا ٱلأَراضِيَ ٱلمُنْخَفِضَةَ ، وَبَلَغْنا سَهْلًا مَكْشوفًا لَيْسَ بِهِ أَشْجارٌ وَلا آثارُ بُيوتِ بَشَرٍ . وَفي هٰذا ٱلمَوْضِعِ كانَ عَلى بِلالِي أَنْ يَتْرُكَنا .

قالَ : « وَداعًا يا صَديقي ، وَوَداعًا أَيُّها ٱلأَسَدُ . لَيْسَ في وُسْعي



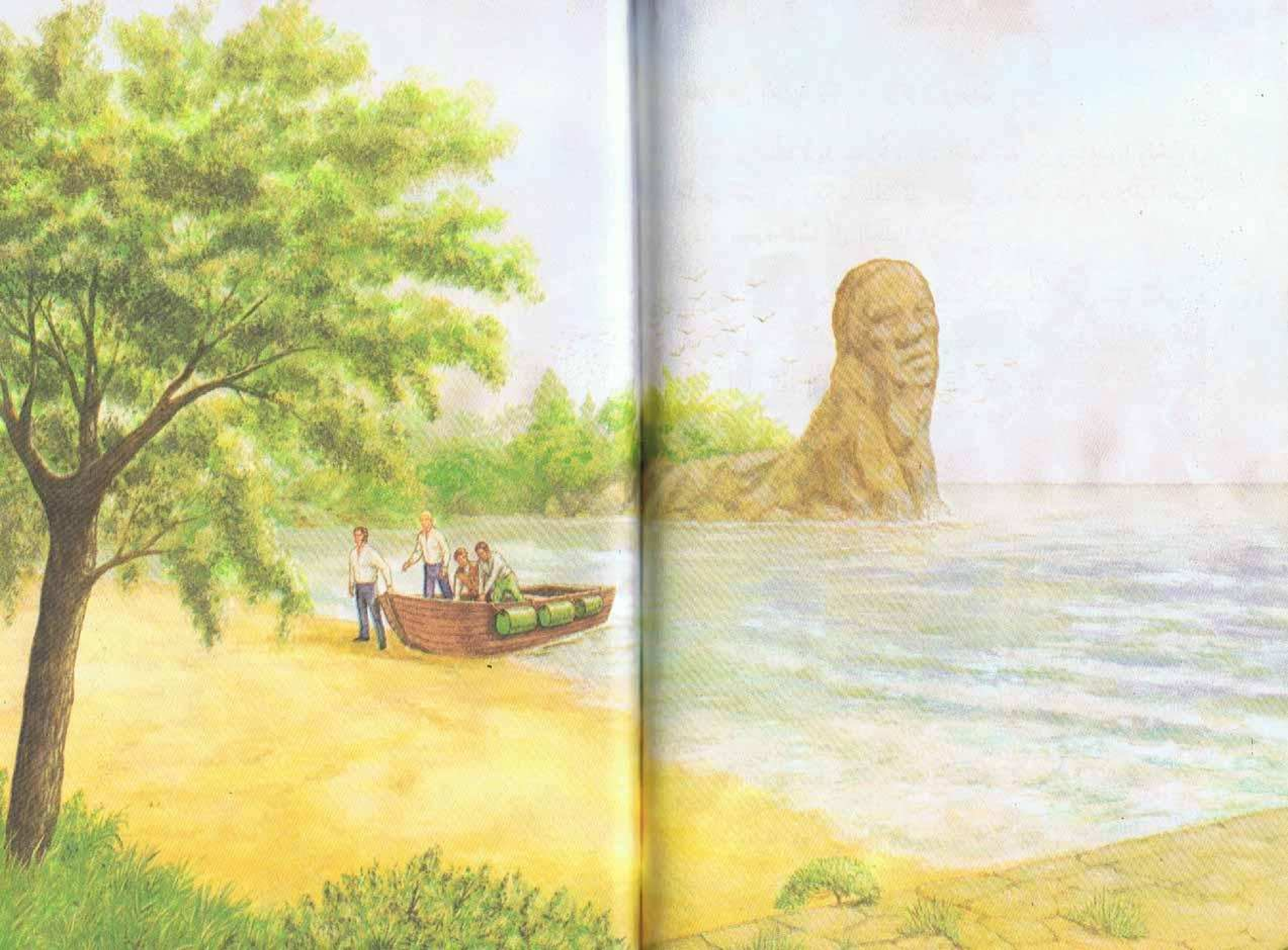
ٱلآنَ أَنْ أُساعِدَكُما أَكْثَرَ مِنْ هٰذا ، وَسَوْفَ أَتَذَكَّرُكُما دائِمًا . »

وَٱنْصَرَفَ عائِدًا . وَوَقَفْنا نَرْقُبُهُ هُوَ وَصَفَّ ٱلرِّجالِ ٱلسّائِرَ خَلْفَهُ حَتّى

غابوا عَنْ أَنْظارِنا بَعْدَ أَنْ تَرَكونا وَحيدَيْنِ .

وأَخيرًا بَلَغْنا قَرْيَةً صَغيرَةً ، كانَ أَهْلُها وَدودينَ وَساعَدونا وَنَحْنُ في طَريقِ ٱلعَوْدَةِ . وَهٰكَذا بَلَغْنا نَهْرَ زامْبيزي ، ثُمَّ خَليجَ دِيلاغْوا حَيْثُ رَكِبْنا باخِرَةً نَقَلَتْنا إلى إنْجِلْتِرا .

وَلَيْسَتْ هٰذِهِ نِهايَةَ ٱلقِصَّةِ . فَقِصَّةٌ بَدَأَتْ مُنْذُ أَلْفَيْ سَنَةٍ يَنْبَغي أَنْ تَمْتَدَّ أَحْداثُها أَيْضًا إلى ٱلسَّنَواتِ ٱلمُقْبِلَةِ . وَكَثيرًا ما أَجْلِسُ في ٱللَّيْلِ وَأُحاوِلُ أَنْ أَنْفُذَ إلى ٱلمَجْهولِ وَأَتَساءَلُ أَيْنَ وَكَيْفَ سَتَتَوالى ٱلأَحْداثُ ؟



١٠ أ شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي - الجيزة

الطبعة الأولى ١٩٨٩

رقم الإيداع : ١٩٨٩/٢٧٥٠٢

الترقيم الدولي : ISBN ٩٩٧-١٤٤٦-١٧-٧

رقم مرجع كمبيوتر 01 C 198107

طبع بمطابع أخبار اليوم

الروايات المشهورة

١ ـــ جين إير
٢ ـــ فرانكنشتاين
٣ ـــ مونفليت
٤ ـــ دراكولا
٥ ـــ لورنادون
٦ ـــ دكتور جيكل ومستر هايد
٧ ـــ شي الملكة الأسطورة
٨ ـــ كونت مونت كريستو
٩ ـــ الرجل الخفي
١٠ ـــ الزمن العصيب



مَكتبة لبنَان
سَاحَة ريَاض الصّلح - بَيروت